

قصة الحضارة

ول وايرنيل ديورانت

الشرق الأقصى اليابان

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الخامس من المجلد الأول



تونس



بيروت

اليابان

إن « ياماتو العظمى » (أى اليابان) قطر مقدس ؛ إن بلادنا وحدها دون
سائر البلدان هى التى كان « السلف الأقدس » أول من وضع أساسها ؛
لأنها وحدها هى التى تعاورتها بعد إلهة الشمس سلسلة طويلة من سلاطينها ؛
لأنك لن تجد من هذا القبيل شيئاً فى الأقطار الأجنبية ؛ ومن ثم سميت
بِالأرض المقدسة .

تشيكا فوزا كيتاباتاكا ، ١٣٣٤ ، فى مردخ

تاريخ اليابان ، الجزء الأول ، ص ٧١٥

الترتيب التاريخي للمدينة اليابانية (*)

قبل الميلاد	١ - بطانة تاريخية
٩٠١ - ٢٢ عصر إنجي	١ - اليابان البدائية
٣ - اليابان في العصر الإقطاعي	قبل الميلاد
١١٨٦ - ٩٩ يوريتومو	حوالي ٦٦٠ دخول المغول
١٢٠٣ - ١٩ ميناموتو سانيتومو	حوالي ٦٦٠ - ٥٨٥ جيمو ، الإمبراطور
١٢٠٠ - ١٣٣٣ باكوفوني كاما كورا	٤١٢ - ٥٣ م إننيكو الإمبراطور
١١٩٩ - ١٣٣٣ وصاية هوجو	٥٢٢ م البوذية تدخل اليابان
١٢٢٢ - ٨٢ نشيرن مؤسس مذهب اللوتسى	٥٩٢ - ٦٢١ شوتوكوتايشي ، ودى على
١٢٩١ قبلئى خان يفتزو اليابان	العرش
١٣١٨ - ٣٩ جودايجو الإمبراطور	٥٩٣ - ٦٢٨ سويكو الإمبراطورة
١٣٣٥ - ١٥٧٣ سيادة أشيكاجا	٦٤٥ الإصلاح العظيم
١٣٨٧ - ٩٥ يوشيمتسوا	٤ - اليابان الجديدة
١٤٣٦ - ٨٠ يوشيماسا	٢ - اليابان الإمبراطورية
١٥٧٣ - ٨٢ زبوناجا	٦٦٨ - ٧١ تنشى تينو الامبراطور
١٥٨١ - ٩٨ هيديوشى	٦٩٠ - ٧٠٢ جيتو الإمبراطور
١٥٩٢ هيديوشى يفتشلى غزو كوريا	٦٩٧ - ٧٠٧ مومو الإمبراطور
١٥٩٧ هيديوشى يطرد الكهنة	٧٠٢ تشريع تايهو
١٦٠٠ موقعة سكيجاهارا	٧١٠ - ٩٤ عصر هيجو ، ناراهى العاصمة
١٦٠٣ - ١٨٦٧ سيادة توكوجاوا	٧٢٤ - ٥٦ شومو الإمبراطور
١٦٠٣ - ١٦ أيباسو	٧٤٩ - ٥٩ ، ٧٦٥ - ٧٠ ، كواكن
١٦٠٥ حصار أوساكا	الإمبراطور
١٦١٤ مرسوم أيباسو	٧٩٤ - ١١٩٢ عصر هيا ، كيوتوشى العاصمة
المناهض للمسيحية	٨٧٧ - ٩٤٩ بوزى الإمبراطور
١٦٠٥ - ٢٣ هيديتادا	٨٩٨ - ٩٣٠ دايجو الإمبراطور
١٦٢٣ - ٥١ أيمتسو	

(*) تواريخ الملوك تحدد مولدهم وموتهم ، فكثير منهم تنازل عن العرش أو قتل أو طرد من العرش .

بعد الميلاد	
٣ — القصة	
السيدة موراساكي	٩٨٧-١٠٣١
نو - شيكيبوا	
قصة جنجي مونو جاتاري	١٠٠١-٤
سانتوكودن	١٧٦١-١٨١٦
كيوكوي باكن	١٧٦٧-١٨٤٨
(موت) جينشا إيكو	١٨٣١

٤ — التاريخ والبحث العلمي

الكوجيكي	٧١٢
النيجونجي	٧٢٠
جنتو شوتوكي تأليف	١٣٣٤
كتاباتاكي	
متسوكوفي	١٦٢٢-١٧٠٤
هياشي رازان يؤسس جامعة	١٦٣٠
طوكيو	

أراي هاكوسيكى	١٦٥٧-١٧٢٥
ما بوشى	١٦٩٧-١٧٦٩
موتو - أوري	١٧٣٠-١٨٠١
نوريناغا	

٥ — المقالة

حوالى	١٠٠٠
السيدة سى شوناجون	
كا،ونو - شوى	١١٥٤-١٢١٦

٦ — الفلسفة

فوجيوارا سيجوا	١٥٦٠-١٦١٩
هياشي رازان	١٥٨٣-١٦٥٧
فاكاي توجو	١٦٠٨-٤٨
كاييارا إكن	١٦٣٠-١٧١٤
كومازاوا بانزان	١٦١٩-٩١

بعد الميلاد	
١٦٥٧	حريق طوكيو الكبير
١٦٨٠-١٧٠٩	تسونا يوشى
١٦٨٨-١٧٠٣	عصر جنروكو
١٧٠٩-١٢	أينوبو
١٧١٦-٤٥	يوشيموني
١٧٢١	يوشيموانى يشرع القانون
	الياباني
١٧٨٧-١٨٣٦	أينتارى
١٨٥٣-٨	أبيسادا
١٨٥٨-٦٦	أيموش
١٨٦٦-٨	كيكى

٢ — الأدب

٨٤٥-٩٠٣	سوجادارا ميشيزانى: القديس
	الراعى الآداب .

١ — الشعر

٦٦٥-٧٣١	ناديتو
٧٣٧	(تاريخ موت) هيتومارو
٧٢٤-٥٦	أكاهيتو
٧٥٠	المانيتو
٨٨٣-٩٤٦	تسوراياكى
٩٠٥	الكوكنشو
١١١٨-٩٠	سايجيوهوشى
١٢٣٤	الهايكو - زن - إيشو
١٦٤٣-٩٤	ماتسوراباشو
١٧٠٣-٧٥	السيدة كاجانو - شيو

٢ — المسرحية

١٣٥٠-١٦٥٠	المسرحيات الغنائية
١٦٥٣-١٧٢٤	شيكا. انوموتراييم

بعد الميلاد

١٦٢٧-١٧٠٥ إيتوجنساي

١٦٦٦-١٧٢٨ أوجيوسوري

١٦٧٠-١٧٣٦ إيتوتوجاي

٣ - الفن

١ - فن العمارة

حوالي ٦١٦ معابد هوريوجي

حوالي ١٤٠٠ قصور يوشيمتسو

٩٠-١٥٤٣ كانويتوكو

حوالي ١٦٣٠ مدفن آبيياسو

٢ - النحت

٧٤٧ النارا دايوتسو

٧٧٤-٨٣٥ كوبو دايشي

١١٨٠-١٢٢٠ أونكي

١٢٥٢ انكاماكورا دايوتسو

١٥٩٤-١٦٣٤ هيدامى جنجاري

٣ - الخزف

حوالي ١٢٢٩ شيروزييمون

حوالي ١٦٥٠ كاكيمون

حوالي ١٦٥٥ نسي

١٦٦٣-١٧٤٣ كنزان

حوالي ١٦٦٤ جوتوسايجيرو

١٨٥٥ (موته) زنجوروهوزن

٤ - التصوير

حوالي ٩٥٠ كوزي نو-كانادكا

حوالي ١٠١٠ ناكايوشي

حوالي ١٠١٧ ييشين سوزو

١٠٥٣-١١٤٠ توباسوجو

١١٤٦-١٢٠٥ فوجيواراكانوبو

حوالي ١٢٥٠ كيون (؟)

حوالي ١٢٥٠ توزاجن - نو - كوي

بعد الميلاد

١٣٥١-١٤٢٧ شوندم

بعد الميلاد

حوالي ١٤٠٠ شوبون

١٤٢٠-١٥٠٦ شيشوشيو

١٤٩٠ (موته) كانوماسا فوبو

١٤٧٦-١٥٥٩ كانوموتونوبو

حوالي ١٦٠٠ كويتسو

١٥٧٨-١٦٥٠ إداساماتاني

١٦٠٢-٧٤ نوتانيوكا

١٦١٨-٩٤ هيشيكافا مورونوبو

١٦٦١-١٧١٦ كورين

١٧١٨-٧٠ هارونوبو

١٧٣٣-٩٥ مارويامي أوكيو

١٧٤٢-١٨١٤ كيوناغا

١٧٤٧-١٨٢١ موري كوزن

١٧٥٣-١٨٠٦ أوتامارو

حوالي ١٧٩٠ شاراكو

١٧٦٠-١٨٤٩ هوكوساي

١٧٩٧-١٨٥٨ هيروشيغي

٤ - اليابان الجديدة

١٨٥٣ الأميرال برى يدخل خليج

أوراجا

١٨٥٤ الزيارة الثانية للأميرال برى

١٨٥٤ معاهدة كاناجاوا

١٨٦٢ مسألة رتشارد سن

١٨٦٢ ضرب كاجوشيما

١٨٦٣ « إيتو » و « إيتوبي » يزوران

أوربا

١٨٦٨ عودة القوة الإمبراطورية

١٨٦٨-١٩٣٢ ميحي الإمبراطور

١٨٧٠ طوكيو تصبح العاصمة

الإمبراطورية

١٨٧١ زوال العهد الإقطاعي

بعد الميلاد		بعد الميلاد
١٩١٤	القبض على تسنجاتو	١٨٧٢ أول خط حديدى فى اليابان
١٩١٥	الأوامر الواحدة والعشرون	١٨٧٧ ثورة ساتسوما
١٩١٧	اتفاق لا لسنج - لشيى	١٨٨٩ الدستور الجديد
١٩٢٢	مؤتمر واشنطن	١٨٩٤ الحرب مع الصين
١٩٢٤	تحديد هجرة اليابانيين إلى أمريكا	١٨٩٥ ضم فرموزا
١٩٢٥	هيوهيتو الإمبراطور	١٩٠٢-٢٢ التحالف الإنجليزى اليابانى
١٩٣١	فتح منشوريا	١٩٠٤ الحرب مع روسيا
١٩٣٢	المجوم فى شنغهاى	١٩١٠ ضم كوريا
١٩٣٥	الإنذار بإلغاء اتفاق واشنطن	١٩١٢ نهاية عصر ميچى
سنة ١٩٣٦		١٩١٢-٢٥ تايشو الإمبراطور

باب الثامن والعشرون

بناء اليابان

تاريخ اليابان مسرحية لم تكمل بعد ، قد تم منها ثلاثة فصول ، أما فصلها الأول - بغض النظر عن القرون البدائية الأسطورية - فهو اليابان البوذية الكلاسيكية (٥٢٢ - ١٦٠٣ ميلادية) التي دخلتها المدنية فجأة على أيدي الصين وكوريا ، والتي هذبها الدين وصقلها ، فخلقت آيات الأدب الياباني والفن الياباني في العصر الذي يدونه التاريخ ؛ أما الفصل الثاني من المسرحية فهو اليابان الإقطاعية الآمنة التي تنسب إلى توکو جادا شوجوناتي (١٦٠٣ - ١٨٦٨) والتي اعتزلت العالم وحصرت نفسها في نفسها ، لا تريد لنفسها شيئاً من اتساع الرقعة ولا تنشأ تبادلاً تجارياً مع الخارج ، قانعة بالزراعة منصرفة إلى الفن والفلسفة ؛ والفصل الثالث واليابان الحديثة ، التي كشف عنها الستار أسطول أمريكي سنة ١٨٥٣ ، والتي اضطرتها العوامل الداخلية والخارجية اضطراراً أن تضرب بسهم في التجارة والصناعة ، وأن تبحث عن خامات من الخارج وأسواق في الخارج ، وتقاتل قتالاً مستميتاً في سبيل التوسع ، محاكية في ذلك بلاد الغرب في نزعتها الاستعمارية وطرائقها في هذا السبيل ، مهددة بذلك سيادة الجنس الأبيض وسلام العالم ؛ وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالي من المسرحية سيكون قتالاً (*) .

لقد درس اليابانيون مدنيتهما دراسة فاحصة لكي يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها ، فقد يكون من الحكمة أن تدرس مدنيتهما في صبر يشبه صبرهم في دراسة مدنيتهما ، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرننا إما إلى حرب أو تفاهم معهم ، كان في مقدورنا أن نصل معهم إلى تفاهم .

(*) صدر هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقد جاءت الحرب مصداقاً لما تنبأ به المؤلف (المرعب)

الفضل الأول

أبناء الآلهة

كيف خلقت اليابان - أثر الزلازل

في البداية كانت الآلهة ، هكذا يقول أقدم ما دون عن اليابان من تاريخ^(١) وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى ، ثم تموت ، حتى صدر الأمر في النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منها ، هما « إيزانا جي » و « إيزانا مي » . وهما أخ وأخت من الآلهة ، أن يخلقوا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا في المحيط برمح مرصع بالجوهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هي « الجزر المقدسة » ، وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع في الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى « إيزانا جي » و « إيزانا مي » التقاء الزوجين وأنسلا الجنس الياباني ، وولدت « أماتراسو » - إلهة الشمس - من عين « إيزانا جي » اليسرى وكذلك من حفيدها « نيجي » نشأت سلسلة متصلة مقدسة حلقاتها كل أباطرة « دي نيون » (أي اليابان العظمى) فبذلك اليوم حتى يومنا هذا ، لم تشهد اليابان إلا هذه الأسرة الحاكمة الإمبراطورية^(*)

كان الرمح المرصع بالجوهر قد قطر أربعة آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطرة ، لأن هذا هو عدد الجزائر التي يتألف منها أرخبيل الجزر الذي هو اليابان^(**) : من هذه الجزر ستمائة مأهولة ، لكن ليس بينها إلا خمس لها حجم

(*) إذا عترض معترض على هذه القصة بقوله إنها مستحيلة الحدوث ، فقد يرد على اعتراضه بما قاله « موتو - أوري » منذ زمن طويل ، وهو أعمق النقاد اليابانيين أثراً ، إذ قال إن تناقض القصة نفسه هو دليل صدق روايتها إذ من ذا تسوغ له نفسه أن يلقي عقله إلغاء يتيح له أن ينتحل قصة قد بلغت كل هذا الحد الظاهر من تفاهة واستحالة على التصديق ؟ (٢) .

(*) كلمة اليابان قد تكون تحريفاً للفظ تستعمل في الملايو ومعناها جزر وهي =

جدير بالاعتبار ؛ أما أكبرها فهي « هوندو » أو « هونشو » ويبلغ طولها ١١٣٠ ميلا ومتوسط عرضها هو ٧٣ ميلا ، ومساحتها واحد وثمانون ألف ميل مربع ، وهي تعادل نصف مساحة الجزر كلها ، ويشبه موقعها - كما يشب تاريخها الحديث - موقع إنجلترا وتاريخها : فقد حتمها البحار المحيطة بها من الغزوات ، وحلتها سواحلها الطويلة التي يبلغ مداها ثلاثة عشر ألف ميل على أن تكون أمة بحرية ، فكأنما قضى عليها المؤثر الجغرافي والضرورة التجارية أن تبسط لنفسها سيادة واسعة على البحار ، وتلتقى الرياح والتيارات البحرية الدافئة الآتية من الجنوب ، بالهواء البارد الهابط من قمم الجبال ، فينتج عن ذلك في اليابان مناخ إنجليزي تملؤه الأمطار ، وتكثر فيه الأيام الغائمة بالسحب^(٤) ، ومن ثم تمتلئ أنهارها القصيرة السريعة الانحدار ، ويزدهر فيها النبات وتزدان المناظر ، فهنا - إذا ما بعدت عن المدن والمساكن العتيقة القلدة - ترى نصف البلاد جنة عدن في ازدهارها ، وليست جبالها أكاداساً مركومة من الصخر والقلدر ، بل هي ذوات أشكال فنية ، تكاد تبلغ في تخطيطها حد الكمال ، كما هي الحال في فيوجي^(٥) .

ولا شك أن هذه الجزر قد ولدتها الزلازل لا القطرات التي انتشرت من الرياح^(٦) ؛ فليس على الأرض مكان - وربما جاز أن نستثنى أمريكا الجنوبية - قد عانى كل ما عانته اليابان من اضطراب أرضها ، فحدث سنة ٥٩٩ أن اهتزت

- « يابانج » أو « يابون » ؛ وهذه اللفظة الأخيرة هي ما تقابل في اليابانية كلمة « فيبون » ثم هذه بدورها هي تحريف الكلمة الصينية التي معناها « المكان الذي تشرق منه الشمس » وهي « جب - ين » ؛ وينعت اليابانيون كلمة « فيبون » عادة بكلمة « داي » ومعناها العظيم^(٣) .

(*) « فيوجي سان » (أو قد يسمى حديثاً فيوجي ياما) هو معبود الفنايين والكهنة ، ويكاد يكون في شكله غموضاً مندرج السفوح تدرجاً سهلاً ، وترتفع قمته ١٢٣٦٥ قدماً ، يصعدا ألوف من المجاج كل عام ؛ وكانت آخر مرة ثار فيها بركان فيوجي في سنة ١٧٠٧^(٥) .

الأرض وابتلعت قرى بأكملها في فيها الضاحك ، وهوت الشهب ولعلت
المذنبات وابتضت الشوارع بالثلج في منتصف يوليو ، وأعقب ذلك قحط
ومجاعة ، وقضى من اليابانيين ألف الألوف ، وكذلك حدث سنة ١٧٠٣
أن قضى زلزال على اثنين وثلاثين ألفاً في طوكيو وحدها ، وعادت العاصمة
سنة ١٨٨٥ فتقوض بنيانها من جديد ، وانفجرت الأرض عن فجوات
واسعة ابتلعت في جوفها ألوفاً ، وجعلوا يحملون جثث الموتى في عربات
النقل ليقذفوا بها بعيداً جماعات جماعات ؛ وفي زلزال ١٩٢٣ أتت موجة
المد وألسنة النار على مائة ألف نفس في طوكيو ، وسبعة وثلاثين ألف نفس
في بوكاهاما وما يجاورها ، وأما كاماكورا - التي طالما أحسنت ابودا -
فكادت تندك من أساسها^(٧) ، مع أن التمثال النحيل الذي كان قائماً هناك للقديس
الهندي (يقصد بودا) قد لبث وسط هذا الخراب الشامل قائماً كما هو ، لم يصبه
سوى ارتجاج ، كأنما أراد بقيامه ذاك سليماً من الأذى أن يضرب مثلاً يوضح
للناس أهم درس يلقيه التاريخ - وهو أن الآلهة يمكن لها أن تصمت في مختلف
اللغات ؛ ولبث الناس في حيرة تملكهم حيناً ، كيف ينزل هذا الخراب كله
بأرض خلقتها الآلهة وتحكمها الآلهة ؛ وأخيراً فسروا هذا الاضطراب بأن
سمكة ضخمة تحت الأرض انزعجت في نعاسها فاهتزت^(٨) ويظهر أن لم
يطراً ببال أحد إذ ذاك أن يغادر تلك المدينة التي تعرض ساكنيها لأكبر
الخطر ؛ ففي اليوم التالي لاهتزاز الأرض بزلزالها العظيم الأخير ، استخدم
صبية المدارس قطعاً من مادة الطلاء المتناثرة أفلاماً ، والأحجار الارتوازية
المشورة من بيوتهم المحطمة ألواحاً^(٩) واحتملت الأمة صابرة هذه الضربات
من يد القدر وخرجت من هذا الدمار المتكرر نشيطة نشاطاً لا سبيل إلى الحد
منه ومقدامة على نحو ما يكون المتفائل إقداماً .

الفصل الثاني

اليابان البدائية

تموماتها الجنسية - مدنيها الباكرة - الدين « شنتو » -

البوذية - بدايات الفن - « الإصلاح العظيم »

لقد ضاعت الأصول اليابانية - كما ضاع غيرها من أصول الأمم - في خليط عام من النظريات ، فيظهر أن الجنس الياباني مزيج من عناصر ثلاثة : عنصر بدائي أبيض جاء عن طريق « الأينو » الذين وفدوا إلى اليابان من منطقة نهر أمور في العصر الحجري الأخير ؛ وعنصر أصفر مغولي جاء من كوريا أو عبر خلاها في نحو القرن السابع قبل المسيح ؛ وعنصر قائم من الملايو وأندونيسيا تسرب إلى البلاد من جزر الجنوب : ففي اليابان - كما في أي بلد آخر - شهدت البلاد خليطاً من عناصر مختلفة قبل أن تشهد - بمئات السنين - قيام نمط جنسي جديد يتكلم بلغة جديدة وينشئ مدينة جديدة ، وكون عملية المزج بين هذه الأجناس لم تبلغ تمامها بعد ، تراه ظاهراً في الفوارق التي بين الأرستقراطية الطويل النحيل طويل الرأس ، وبين الرجال من الشعب في قصره وبدانته ورأسه العريض .

وتصف الروايات التاريخية الصينية التي ترجع إلى القرن الرابع ، تصف اليابانيين بأنهم « أقزام » ، ثم تصيف إلى ذلك أنهم « لا يعرفون الثيرة ولا الوحوش الكاسرة » ، وهم « يشيمون وجوههم بزخارف تختلف شكلاً باختلاف المنزل الاجتماعية » ، ويلبسون رداء مصنوعاً من قطعة واحدة ، ولديهم حراب وقسي ورماح في أطرافها حجر أو حديد ، وهم لا يلبسون أحذية ، ومن خصائصهم طاعة القانون وتعدد الزوجات ويدمنون الشراب وهم طوال الأعمار .

ونساءهم يطلين أجسامهن بالأحمر والقرمزي»^(١١) . وتروى هذه المدونات عنهم « أن ليس يقع بينهم سرقة ، وكلما يشكو أحد منهم أحداً إلى القضاء »^(١٢) ، ولم تكد المدنية تبدأ عندهم ، وقد صور « لافكاديوهين » - مدفوعاً بصدق نظره وبجبه لذلك العصر القديم - صوره فردوساً لا يشوبها استغلال أو فقر ؛ ووصف « فنلوزا » طبقة الفلاحين إذ ذاك بأنها مكونة من سادة عسكريين مستقل بعضهم عن البعض^(١٣) ؛ وجاءت الصناعات اليدوية إلى اليابان من كوريا في القرن الثالث الميلادي ، وسرعان ما انتظمتها نقابات^(١٤) ، ودون هؤلاء الصناع اليدويين ، كانت تقع طبقة كبيرة من العبيد ، تجمع أفرادها من المسجونين وأسرى الحروب^(١٥) ، وكان النظام الاجتماعي إقطاعياً إلى حد ما وقبلياً إلى حد ما ، فكان بعض الفلاحين يزرعون الأرض عبيداً للسادة أصحاب الأرض ، ولكل قبيلة رئيس يكاد يكون ملكاً عليها^(١٦) ، وكانت الحكومة بدائية في تفكيرها وضعفها .

كانت العاطفة الدينية عند اليابانيين الأولين تجدد ما يشبعها في العقيدة بأن لكل كائن روحاً ، وفي الطوطمية ، وفي عبادة الأسلاف وعبادة العلاقة الجنسية^(١٧) ؛ فعندهم أن الأرواح سارية في كل شيء - في كواكب السماء ونجومها ، في نباتات الحقل وحشراته ، والأشجار والحيوان والإنسان^(١٨) ، ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنها ويرقص مع ضوء المصباح ووجهه إذا رقص^(١٩) ، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التي تحدثها النار ، فحسباً تستمد فيه المعونة من الحراء ؛ وتذكر لنا المدونات القديمة الصينية أنه بهذه الطريقة « كان اليابانيون يستوثقون من طيب الحظوظ وخبيثها ، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها »^(٢٠) . كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ؛ فلكى يسترضوا هؤلاء الموتى ، كان لزاماً عليهم أن يضعوا لهم النفائس في

قبورهم - كأن يضعوا سيفاً إذا كان الميت رجلاً ، ومراة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ويقدمون فاخر الطعام أمام صبور أسلافهم في كل يوم^(٢١) وكانوا يلجأون إلى التضحية البشرية آنأ بعد آن توسلا لإيقاف مطر غزير ، أو ضمناً لثبات بناء أو جدار ، وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ليدافعوا عنه في أولى مراحل حياته الآخرة^(٢٢) .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قائمة في اليابان ، وهى « شنتو » أى « طريق الآلهة » ولها صور ثلاث : العقيدة المنزلية التى تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة ، وعقيدة الدولة التى تتجه بالعبادة إلى الحاكين الأسلاف وهم الآلهة الذين أسسوا للدولة بناءها ؛ فكانوا يخاطبون السلف المقدس الأول الذى عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، ضارعين سبع مرات كل عام ، فيتوجه إليه الإمبراطور نفسه بالدعاء ، أو من ينوب عن الإمبراطور ؛ ثم كانوا يؤدون له صلاة خاصة إذا ما همت الأنة بالاضطلاع بمشروع تراه استثنائياً فى قداسه ، مثل الاستيلاء على شانتونج (سنة ١٩١٤) ^(٢٣) ؛ ولم تكن ديانة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبي أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، كلا ولا تذهب إلى ما يبعث الغراء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس ؛ فكان كل ما تطالب به معتنقها أن يحجوا آنأ بعد آن لأسلافهم وأن يقدموا لهم ضراعة الخاشعين ، ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم ولماضى أمتهم ؛ وقد حلت لهم عقيدة أخرى محل هذه العقيدة حيناً ، لأنها مسرفة التواضع فى جزائها التى تعد به ، وفى أوامرها التى تلزم بها الناس .

وفى سنة ٥٢٢ جاءت البوذية - وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمسةائة عام - إلى اليابان خلال القارة الآسيوية ، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً

(٢ - ج ٥ - مج ١)

سريعاً ، وقد تأمر عاملان فكتبنا لها النصر ، وهما : الحاجات الدينية عند الشعب ، والحاجات السياسية عند الدولة ، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى اليابان ، بما عرفت به تلك البوذية من لا أدوية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انحاء الفرد في الكل ، بل جاءت بوذية «ماهايانا» بأهلها الوديعه من أمثال «أميدا» «وكوانون» ، وباحتفالاتها الدينية البهيجة ، واعترافها بوذيين منتظرين يخلصون البشر ، وبخلود الروح الإنسانية ، ثم ما هو خير من ذلك ، جاءت هذه البوذية تبث في النفوس بأسلوب لا يقاوم لفرط رفته ، كل فضائل الورع والسلام والطاعة التي يمكن أن تصوغ الناس صياغة تجعلهم أكثر انصياعاً للحكومة ، وراحت تفسح للمظلومين من الأمل والعزاء ما يجعلهم راضين قانعين بشظف عيشهم ، وتحفف من وطأة الحياة الكادحة وما فيها من برود يشبه برود النثر وفتور العمل المكرور المعاد ، بما تبثه في تلك الحياة من شعر متمثلة في الأساطير والصلاة ، ومن مسرحية تمثل في الاحتفالات البهيجة ، وهيأت للناس سبيل الوحدة في الشعور والعقيدة ، وهما شيثان طالما رحب بهما الساسة ، لأنهم أصل النظام الاجتماعي ، ودعامة القوة القومية .

ولسنا ندرى أكانت هي السياسة أم الورع ، هو الذي كتب النصر للبوذية في اليابان ، فلما مات الإمبراطور «يوى» سنة ٥٨٦ ميلادية ، تنازعت وراثة العرش من بعده أسرتان متنافستان ، تنازعا استخدمت فيه السلاح ، واعتنقت كلتاها العقيدة الدينية الجديدة اعتنافاً سياسياً ، واستطاع الأمير «شوتوكوتايشي» الذي يقال عنه إنه ولد وفي يده تميمة مقدسة - أن ينتهي بالحزب البوذي إلى النصر ، ثم أقام على العرش «الإمبراطورة سويكو» . ولبت تسعة وعشرين عاماً (٥٩٢ - ٦٢١) يحكم الحزر المقدسة أميراً امبراطورياً ووصياً على العرش وراح يغدق العطاء لمعابد البوذيين ، ويشجع رجال الدين البوذي ويعينهم ،

وبدخل الأخلاق البوذية في صلب القوانين القومية ، حتى لقد أصبح بوجه عام للبوذية اليابانية ما كان « أشوكا » لها في الهند ، وامتدت رعايته إلى الفنون والعلوم ، واستقدم الفنانين ومهرة الصناعات من كوريا والصين ، وكتب التاريخ ، ورسم التصاوير . وأشرف على بناء معبد « هوريوجي » ، وهو أقدم آية بقيت لنا في تاريخ الفن الياباني .

لكن على الرغم مما تركه هذا الرجل الناصر لأسباب الحضارة من مختلف الآثار ، وعلى الرغم من كافة الفضائل التي راحت البوذية تبثها في النفوس أو تبشر بها ، فقد طغت على اليابان أزمة أخرى عنيفة ، ولم يكن قد مضى على موت « شوتوكو » جيل واحد ؛ ذلك أن أرستقراطياً طموحاً . هو « كاماتاري » قد دبر مع « الأمير تاكا » ثورة في القصر ، كانت بداية واضحة لتغير مجرى التاريخ السياسي في « نيبون » (اليابان) حتى يشير إليها المؤرخون من أبناء البلاد في حماسة وطنية فيصفونها بقولهم « الإصلاح العظيم » (سنة ٦٤٥) ؛ فقد قتل ولي العهد ، وأجلس على العرش ملك كهل لم يكن إلا صورة ، وكان الأمر في يد « كاماتاري » باعتباره رئيساً للوزراء ، فظنق بمعونة « الأمير تاكا » - حين كان لم يزل ولياً للعهد ، ثم حين أصبح هو الإمبراطور تنشى « - يعيد بناء الحكومة اليابانية بحيث جعلها سلطة إمبراطورية أوتوقراطية ؛ وارتفع الحاكم من مجرد كونه زعيماً لكبرى القبائل ، إلى سلطة شاملة تسيطر على كل موظف في اليابان ، وهو الذي يعين كل الحكام ، وتدفع له الضرائب كلها مباشرة ، وأعلن أن البلاد كلها ملك يمينه ؛ وبهذا سارت اليابان بخطوات سريعة من ارتباط بين القبائل مخلخل العرى وروساء قبائل يشبهون أطراف الإقطاع ، إلى دولة ملكية وثيقة العرى فيما يربط بين أجزائها .

الفصل الثالث

العصر الإمبراطورى

الاباطرة - الأرستقراطية ، تأثير الصين . عصر كيوتو الذهبى - التدهور

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، جعل الإمبراطور يتمتع بالقباب ضخمة ، فكان يسمى أحيانا « تنشى » أو « شمس السماء » على أن اسمه كان غالبا « تنو » أى « الملك السماوى » ونادرا ما كان يطلق عليه « ميكادو » أى « الباب المجيد » ؛ وكان من امتيازاه أن يطلق عليه اسم جديد بعد موته ، يعرف فى التاريخ باسم خاص يختلف كل الاختلاف عن الاسم الذى أطلق إبان الحياة ؛ ولكى يضمن اتصال النسل الإمبراطورى ، كان للإمبراطور الحق فى أى عدد شاء من الزوجات أو الرقيقات ؛ ولم يكن حتما أن يهبط الملك إلى أكبر الأبناء ، بل تؤول ولاية العرش من بعده إلى من كان فى رأيه هو ، أو فى رأى أبطال العصر . أقرب أبنائه إلى أن يكون أقواهم ، أو أضعفهم على العرش [فيختار أقواهم إن كان الذى يختار هو الملك ، ويختار أضعفهم إن كان الذى يختارهم أعلام العصر ذوو المصالح الشخصية] وكان الاباطرة فى بواكير العصر الكيوتو يميلون إلى الورع ، حتى لقد تنازل بعضهم عن العرش ليجعلوا من أنفسهم رهبانا بوذيين ، وحرّم أحدهم السّماكة على أنها إساءة إلى بوذا^(٥) ؛ لكنك نجد بينهم « يوزى » يشذ عن هذا المجرى ، ويتعب الناس بنشاطه ، فجاء مثلا يوضح كيف تكون الأخطار التى يستهدف لها الملك إذا نشط ؛ فكان يأمر الناس أن يصعدوا الأشجار ثم يرميهم بقوسه ونشابه ، ويمسك بالعذارى فى الطرقات ، ويوثق قيدهم بأوتار قيثارة ويقذف بهم فى البرك ، وكان مما يمتع جلالته أن يركب جائسا خلال العاصمة فيلهب الناس بسوطه ليدفعهم إلى العمل ، لكن رعيته خلعتة عن العرش آخر الأمر بثورة أعنت فيها

العصيان السياسى الذى هو بمثابة الخروج على حدود التقوى وهو شيء نادر
الموقع فى تاريخ اليابان^(٢٦) ؛ وحدث سنة ٧٩٤ أن انتقلت مراكز الحكومة
من « نارا » إلى « ناجاوكا » ثم لم تلبث بعدئذ أن انتقلت إلى كيوتو (أى عاصمة
السلام) فظلت هى العاصمة خلال أربعة القرون (٧٩٤ - ١١٩٢) التى
يجمع معظم المؤرخين على أنها كانت فى اليابان عصرها الذهبى ، فلما أن
كانت سنة ١١٩٠ بلغ سكان كيوتو نصف المليون ، وهو ما لم تبلغه أية
مدينة أوروبية فى العصر ما عدا القسطنطينية وقرطبة^(٢٧) ، وقد خصص جزء
من المدينة لأكواخ الناس وحظائر لماشيتهم ، والظاهر أن قد نعم هؤلاء
الناس بعيشهم رغم فقرهم المدقع ؛ ثم خصص آخر - جعلوه معزولا
بما تقتضيه الحكمة لحدائق العلية والأسرة الإمبراطورية وقصورهم ؛ وكان
يطلق على حاشية الإمبراطور بحق « سكان ما فوق السحب »^(٢٨) لأن تقدم
الحضارة وارتفاع الأساليب الفنية كان من نتائجها فى اليابان - كما هى الحال
فى غيرها - ازدياد الفوارق الاجتماعية ؛ وبهذا زالت المساواة التقريبية التى
كانت تسود الناس فى باكورة الأيام ، وحل محلها تفاوت لا مندوحة عن
وقوعه إذا ما قُسمت الثروة المتزايدة بين الناس على قدراتهم المختلفة
وشخصياتهم وامتيازاتهم المتباينة ؛ ونشأت أسرات كبيرة ، مثل
ال « فويجيوارا » وال « تايرا » وال « ميناموتو » وال « سوجاوارا » ،
وهى أسرات كانت تقيم الأباطرة وتخلعهم ، ويحارب بعضها بعضاً على النحو
العنيف الذى شهدته أيام النهضة الإيطالية ؛ ولقد قرَّب « سوجاوارا »
متشيزانى نفسه من قلوب اليابانيين لرعايته للأدب ، وهو الآن معبود
لديهم بوصفه إلهاً للأدب ، وتعطل المدارس تكريماً له فى الخامس والعشرين
من كل شهر ؛ وكذلك امتاز الشاب « ميناموتو سانيتومو » بإنشائه فى الصباح
السابق لاغتياله هذه المقطوعة الشعرية الساذجة ، التى تمثل الأسلوب اليابانى
فى أنصع صوره :

إذا لم أعد إليك ثانياً
يا شجرة البرقوق التي تجاوز داري
فلا تنسى أنت موعد الربيع
وازدهري ما وسعك الازدهار

ولبت اليابان في عهد « دايجو » المتنور (٨٩٨ — ٩٣٠) وهو أعظم الأباطرة الذين أقامتهم على الحكم قبيلة فوجيوارا ، لبت في عهده تتشرب — بل بدأت تنافس — ثقافة الصين وأسباب ترفها ، التي كانت عندئذ في أعلى ذرى ازدهارها في عهد « تانج » ؛ ولما كانت اليابان قد استمدت عقيدتها الدينية من « المملكة الوسطى » فقد طفقت تستمد من المعين نفسه لباسها وألعابها وطهيها وكتابتها وشعرها وأساليب حكومتها وموسيقاها وفنونها وبساتينها وعمارتها ، بل خُطِّطت عاصمتها الجميلتان « نارا » و « كيوتو » على غرار « شانجان » ؛ فقد استوردت اليابان ثقافة الصين منذ ألف عام ، كما تستورد ثقافة أوروبا وأمريكا في عصرنا هذا ، وهي في هذا تتعجل أولاً ثم تتمهل لتنتق وتختار ثانياً ؛ لكنها تحتفظ بروحها الخاصة وشخصيتها الخاصة غيرة عليهما ، ولا تدخر في وسعها جهداً في سبيل مداومة الأساليب الجديدة إلى الأغراض القومية القديمة .

ودخلت اليابان في عهدها « الأنجي » (٩٠١ — ٩٢٢) الذي يعتبر ذروة العصر الذهبي (*) مدفوعة إلى ذلك الصعود بحافز من جارتها العظيمة ، وبوقاية

(*) يقول فولوزا المتحمس : « هذا العهد الذي يسمى بالعهد « الأنجي » هو بنير شك أعلى ذروة بلغت الحضارة اليابانية ، كما كان عهد « منج هوانج » ذروة الحضارة في الصين ، فلن تبلغ الصين أو اليابان بعد الآن ما كانتا باغتياه إذ ذاك ثراء وفخامة وخصوبة في ذرى العبقرية الحرة ... فن حيث الثقافة العامة وتترف الحياة الذي تناول العقل والروح مدأ ، لم يشهد العالم مثيلاً لتلك الزخامة ، لا فتقول في اليابان وحدها ، بل في الدنيا بأسرها ، (٢١)

حكومة منظمة مستتبه ؛ فتراكت الثروة واتجه لإنفاقها نحو أسباب حياة مترفة رقيقة تشيع فيها الثقافة بحيث لا يكاد يضارعها في ذلك مثل حتى جاءت عصور أسرة مديتشى و « صالونات » « التنوير الفرنسى » (*).

وأصبحت « كيوتو » هى بمثابة باريس وفرسارى فى فرنسا ، رقيقة فى شعرها وثيابها ، رشيقة فى أخلاقها وفنونها ، تضع للأمة كلها معايير المعرفة والذوق ، وانفتحت « الشهية » عند الناس على اختلاف صورها وإلى آخر حلودها وآمادها ، فابتكر الطهارة صنوفاً جديدة من شهى الطعام ، وكلدسوا الآكال تكديساً ليشبعوا أصحاب النهم وأرباب الذوق فى الطعام على حد سواء ، وغض الطرف عن جرائم الزنا على أساس أنها من أنفه خطايا الإنسان (٣٢) ، وتزمل كل سيد أو سيدة بالحرير ونفيس الثياب ، وكنت ترى مختلف الألوان متناسقة على كل كم تلبسها ذراع ، وازدانت حياة المعابد والقصور بالموسيقى والرقص كما أشاع الرقص والموسيقى وروح الرشاقة فى بيوت العلية التى كانت تحاط بروائع المناظر الطبيعية من الخارج ، وتزدان صقلا من الداخل بما فيه من آيات البرونز والولؤلؤ والعاج والذهب والخشب الذى حفر حفرأ بلغ الغاية القصوى من دقة الحفر (٣٣) ؛ لقد ازدهر الأدب إذ ذاك وانحلت الأخلاق .

أمثال هذه العصور التى تتلأل بجوانب الرقة ، يغلب ألا تدوم طويلا ، لأنها ترتكز ارتكازاً مقلقلا على ثروة متراكمة يمكن فى أية لحظة أن تذروها عوامل تذبذب التجارة ، وقلق الطبقات المستغلّة وتقلبات الحروب ؛ وقد أدى إسراف القصر آخر الأمر إلى إفلاس الدولة وارتفعت الثقافة بحيث رجحت كفتها بالقياس إلى القدرة العلمية ، فانتهى ذلك إلى ملء المناصب الإدارية بمتشاعرين عاجزين ، وأخذ الفساد يتكاثر تحت أنوفهم المعطّرة دون أن يستوقف انتباههم ، ثم أصبحت المناصب آخر الأمر تباع لمن يدفع فى شرائها أغلى ثمن (٣٤) وازدادت الجرائم بين الفقراء بقدر ما ازدادت أسباب

الترف بين الأغنياء ، وانبث وباء اللصوص والقراصنة في الطرقات والبحار ، فكانوا ينقضون على كل فريسة تقع في أيديهم ، لافرق عندهم بين الإمبراطور والشعب ، ويسطون على جباة الضرائب فيسلبونهم ما كانوا يحملونه إلى القصر من أهوال ، ونظمت عصابات من اللصوص في الأقاليم ، بل وفي العاصمة نفسها ، وكان يتاح لأخطر مجرم في اليابان — كما هي الحال عندنا — أن يعيش في رفاهية علنية ؛ لأنه كان من القوة بحيث يتعذر على أولى الأمر أن يقبضوا عليه أو يسيئوا إليه^(٣٥) ، وأهل الناس عاداتهم وفضائلهم الحربية ، وتراخوا في نظامهم العسكري والأهبة للدفاع ، بحيث باتت الحكومة مفتوحة الصدر لكل ضربة يسدها إليها من شاء من القراصنة القساة ؛ وراحت الأسر الكبيرة تجيش لنفسها جيوشها ، فبدأت بذلك عهداً من حروب أهلية ، ولبثت تناضل بعضها بعضاً نضالاً تسوده الفوضى ، كل منها يحاول أن يظفر لنفسه بحق. تعيين الإمبراطور ، وأما الإمبراطور نفسه فكان يزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، في الوقت الذي كان رؤساء القبائل فيه يوشكون أن يعودوا إلى سابق عهدهم من حيث استقلال كل منهم بسلطته ؛ وهكذا أخذ التاريخ مرة أخرى يتذبذب على نحو ما كان يتذبذب قديماً ؛ بين حكومة قوية مركزية من ناحية ، ونظام إقطاعي لا مركزي من ناحية أخرى .

الفصل الرابع

الطغاة

« الشواجنة » - سلطان عسكري في كاماكورا - وصاية هوچو
على العرش - غزوة قبلاى خان - سيادة أشيكاجا - القراضنة الثلاثة

كان من شأن هذه الظروف القائمة أن سنحت الفرصة لظهور فئة من الطعاة العسكريين الذين قبضوا بأيديهم على زمام الأمور كلها ، في كثير من أجزاء الجزر اليابانية ؛ ولم يعترفوا بالإمبراطور إلا على أنه ظاهرة مقدسة في اليابان يحتفظ بها بأقل ما يمكن من النفقات ، وجعل الفلاحون الذين لم تعد تحميهم من عصابات اللصوص جيوش الإمبراطور ولا رجال شرطته ، يدفعون الضرائب لهؤلاء « الشواجنة » أى القادة بدل دفعها للإمبراطور ، لأن « الشواجنة » وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون حمايتهم من اعتداء اللصوص (٣٦) . وهكذا ساد النظام الإقطاعي في اليابان لنفس الأسباب التي كان قد ساد بسببها في أوروبا ، وأعني أن مصادر السلطان في الإقطاعيات ازدادت نفوذاً بمقدار ما فشلت الحكومة المركزية النائية في حفظ الأمن والنظام .

وحدث في سنة ١١٩٢ أن جمع « يوريتومو » - وهو أحد رجال قبيلة ميناموتو - حوله جيشاً من الجند والعبيد ، وأقام لنفسه سلطة مستقلة ، اتخذت لنفسها اسماً هو اسم المكان الذي قامت فيه ، وهو « باكوفوكاماكورا » وكلمة « باكوفو » معناها منصب عسكري ، ولإذن فهي تدل صراحة على نوع الحكومة الجديدة ؛ ومات « يوريتومو » العظيم فجأة في عام ١١٩٨ (*) .

(*) يروى أعداء « يوريتومو » قصة موته فيقولون إنه كان يركب جواداً إذ رأى شيخ أخيه الذي كان قد قتله ، اضطرب الجواد وراكبه ماعاً لرؤية الشيخ ، وتعثر الجواد وسقط راکبه ، ومات « يوريتومو » بعد ذلك ببضعة أشهر ، وسنة ثلاثة وخمسون عاماً (٣٧) .

وأعقبه في الحكم أبناؤه الضعفاء ، وذلك - كما يقول المثل الياباني - لأن « الرجل العظيم لا ذرية له » (٢٨) فأقامت أسرة منافسة وصاية لنفسها على العرش عام ١١٩٩ ويسمى العهد باسم « وصاية هوجو » ، ولبت تلك الأسرة مدى مائة وأربعة وثلاثين عاماً تحكم « الشواجنة » الذين كانوا بدورهم يحكمون الأباطرة ؛ فكانت هذه الحكومة الثلاثية فرصة سانحة لقبلاى خان يحاول فيها غزو اليابان ؛ فقد وصفها له الكوريون الدُّعاة الذين كانوا يخشون بأسها ، فقالوا إنها من الثراء بحيث تستحق المجهود ؛ فأمر قبلاى ببناء سفنه أن يشيدوا له أسطولا بلغ من الضخامة حداً جعل شعراء الصين يصورون التلال باكية ترثى ما سُلِبَ من غاباتها (٢٩) ؛ ويقول اليابانيون حين يروون حوادث الماضي، رواية الفخور ببطولته - إن السفن بلغت سبعين ألفاً ، لكن المؤرخين الذين لا يتأججون بمثل هذه الحاسة الوطنية يكفيهم من العدد ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ومائة ألف محارب ؛ وتبدى هذا الأسطول الجبار على مبعده من شواطئ اليابان في أواخر سنة ١٢٩١ فخرج سكان الجزر الأبطال ليلاقوه في أسطول لهم بنوه على عجل ، وهو أسطول ضئيل بالقياس إلى الأسطول المهاجم ؛ لكن حدث لهذه الأرمادا ، ما حدث للأرمادا التي كانت أصغر منها ، وإن تكن أشهر (٣٠) ، وهو أن هبت « ريح عظيمة » لا تزال مذكورة لما أسدته للناس من جيل ، هبت فحطمت سفائن « النحان » الجبار ، إذ رطمتها على جوانب الصخور ، وأغرقت من بحارته سبعين ألفاً ، وأبقت على بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق في بلاد اليابان .

ودارت الدوائر على أسرة « هوجو » عام ١٣٣٣ ، إذا أصابتهم السيطرة هم أيضاً بسمومها ، وانتهى الأمر إلى انتقال الحكم الوراثي من أيدي الأبالسة والعباقرة إلى أيدي الجبناء والحمقى ؛ وكان آخر هذه السلالة رجل يدعى « تاكا

(٥) نفصده الأرمادا الأسبانية سنة ١٥٨٨ التي كانت تتألف حين وصلت إلى بحر المانش ، من مائة وعشرين سفينة فيها أربعة وعشرون ألف محارب (٢٨) .

توكى « يحب الكلاب حباً شديداً ، فيقبلها بدل الضرائب ، حتى لقد جمع منها عدداً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف ، وأعد لها حظائر زينها بالذهب والفضة وأطعمها بالسّمك والطيور ، وهياً لها العربات المزخرفة تحملها للتنزه ؛ فوجد الإمبراطور القائم على العرش إذ ذاك ، وهو « جو دايجو » أن انحلال حماة فرصة سانحة يستعيد فيها سلطانه الإمبراطورى ، وأيدته قبيلتنا « ميناموتو » و « أشيكاجا » وقادتا له جيوشه حتى ظفرتا له بالنصر على « أسرة الوصاية » بعد سلسلة من هزائم ، ومن ثم أوى « تاكا توكى » ومعه ثمانمائة وسبعون من عبيده وقادته ، إلى معبد ، وجرع كأساً أخيرة من « الساقى » ثم أنزل بنفسه « الهارا كيرى » (أى أنه انتحر) ؛ ولقد أخرج أحد الحاضرين أمعاء المنتحر بيديه قائلاً : « إن هذه لتضفى على الحمر طعماً لذيداً » (١٠) .

وانقلب « أشيكاجاتا كاوجى » على الإمبراطور بعد أن كان هو الذى أعانه على استعادة سلطته ؛ وقاتل الجيوش التى جاءت لإخضاعه قتالا موقفاً من حيث خطته العسكرية ومؤامرات الخيانة ؛ وأزال « جو دايجو » عن العرش ليضع مكانه إمبراطوراً صورياً هو « كوجون » ، وأقام فى كيوتو تلك الحكومة لعسكرية المعروفة باسمه « أشيكاجا » والتى ظلت تحكم اليابان مدى مائتين وخمسين عاماً سادتها الفوضى والحرب الأهلية التى لم تنقطع ؛ ولا بد لنا أن نعرف هنا بأن جزءاً من تلك الفوضى كان يرجع إلى الجانب السامى من طغاة « أشيكاجا » - وهو جهم للفن ورعايتهم له ؛ فها هو ذا « يوشيمتسو » قد مل الكفاح فأدار يديه نحو التصوير ، حتى أصبح يعد من مصورى عصره الأفاضل ، وارتبط « يوشيبازا » بصلات الود مع كثير من المصورين ، وأعان بالمال كثيراً من الفنون ، وأصبح فى عالم الفن ذواقة دقيقاً ، حتى ليعد هواة الآثار الفنية اليوم القطع التى كان قد اختارها هو وأتباعه خير ما يستحق الاقتناء (١١) لكن مهام الحكم الإدارى قد أهملت إذ ذاك ، ولم يعد حفظ

الأمن والسلام في مقدور القادة العسكريين (أى الشواجنة) الأغنياء
ولا في مقدور الأباطرة الذين حل بهم الإفلاس .

فكان من شأن هذه الفوضى نفسها وما أصاب الحياة من انحلال ،
ومطالبة الأمة بقيادة يهثون لها النظام ، أن ظهر القراصنة الثلاثة المعروفون
في التاريخ الياباني ؛ وتقول الرواية إن هؤلاء الثلاثة — وهم « نوبوناغا » ،
و « هيديوشى » و « أياسو » — اعتزموا أن يتعاونوا معاً في شبابهم على إعادة
الوحدة لوطنهم ، وحلف كل منهم يميناً على أن يطيع طاعة الأتباع مَنْ
يفوز من زميله الآخرين بموافقة الإمبراطور على توليه حكومة اليابان (٤٢) ؛
وحاول « نوبوناغا » بادئ ذي بدء ، لكنه مئى بالفشل ، وحاول بعده
« هيديوشى » لكنه مات حين أوشك على النجاح ؛ وكان « أياسو » يراقب
فرصته ، فجاءته آخر الأمر وحاول بعد زميله ، وأسس الحكومة العسكرية
المعروفة باسم « توكوجاوا » . وبهذا افتتح عهداً هو من أطول عهود السلام ،
وعصرآ هو من أخصب عصور الفن ، في تاريخ الإنسانية كلها .

الفصل الخامس

« وجه القردة » العظيم

ظهور هيدوشى - المجوم على كوريا - الاشتباك مع المسيحية

كانت الملكة اليصابات و « أكبر » (فى الهند) معاصرين لـ « هيدوش » العظيم - هكذا قد يحلو لليابانيين أن يذكروا هذه الحقيقة على سبيل التنويه بفضل عظيمهم - كان « هيدوشى » ابن فلاح ، يعرفه أصدقاؤه ، وتعرفه رعيته حين أصبح فيما بعد حاكماً ، باسم « سارو من كانجا » - ومعناها « وجه القردة » لأنه لم يكن ينافسه فى دمامة الوجه أحد حتى ولا كونفوشيوس ؛ وكان والداه قد عجزا عن إخضاعه للنظام فبعثا به إلى مدرسة فى دير ؛ لكن « هيدوشى » سخر من كهنة البوذية سخرة شديدة ، وأثار فى الدبر ضجة وثورة ، بحيث انتهى أمره إلى الطرد من مدرسته ، فألقى صبيّاً فى كثير من الحرف ، وطرده من عمله سبعمائة وثلاثين مرة (٤٣) ؛ وجعل من نفسه قاطعاً للطريق ، لكنه عاد فرأى أنه يستطيع أن يسلب وهو مع القانون أكثر مما يسلبه وهو خارج على القانون ؛ ثم التحق بخدمة « الساموراي » (أى حملة السيف) وأنقذ حياة مولاه ، وسمح له بعدئذ أن يحمل سيفاً ؛ وانضم إلى أتباع « نوبوناجا » وعاونوه بتفكيره وببسالته ، حتى إذا مات « نوبوناجا » تولى هو قيادة الثائرين الخوارج على القانون ، الذين شنوا حملتهم ليغزوا أرض وطنهم ، فما انقضت ثلاثة أعوام حتى كان « هيدوشى » قد أصبح حاكماً على نصف الإمبراطورية. وظفر بإعجاب الإمبراطور العاجز ، وأحس فى نفسه من القوة ما يتيح له أن يهضم فى جوفه كوريا والصين ؛ وفى ذلك قال متواضعاً يخاطب

« ابن السماء » : « لقد اعترفت أن أطوى الصين كلها تحت سلطاني ،
بمجموعة الجنود الكوريين وبتأييد من نفوذك الساطع ؛ فإذا ما تم لي ذلك ،
ستصبح الأقطار الثلاثة (الصين وكوريا واليابان) قطراً واحداً ؛ وسيتم
لي ذلك في يسر كما أننا أطوى حصيرة لأحملها تحت ذراعي »^(٤٤) لكنه حاول جهده
بغير جدوى ، لأن رجلاً شيطانياً من الكوريين اخترع قارباً خريباً من
المعدن — ولولا سبقه في الزمن لقلنا إنه سرق منا الـ « مونتور » والـ « ميرماك » —
وبهذا القارب راح يحطم سفن « هيدوشى » المثقلة بجنوده ؛ سفينة بعد سفينة ،
وكان « هيدوشى » قد أنفذهما بجنده إلى كوريا (١٥٩٢) ، لقد أغرقت
في يوم واحد اثنان وسبعون مركباً ، وانقلب البحر بحر آ من دماء ، وورست
أربع وثمانون سفينة أخرى على الشاطئ حيث فر منها اليابانيون وخلفوها
وراءهم ، فأحرقها الظافرون حتى لم ينروا منها شيئاً ؛ وبعد أن تبادل الفريقان
نصراً وهزيمة دون أن يكون فيها ما يفصل بالنصر ، أرجا الفاتحون فتح
كوريا والصين حتى القرن العشرين ؛ وقال ملك كوريا عن « هيدوشى »
لأنه حاول « أن يعبر المحيط في صدقة من أهداف المحار »^(٤٥) .

ولم أن يحزن ذلك الحين ، استقر « هيدوشى » ليستمتع بهذه « الوصاية
التي أسسها لنفسه ، وليدير فيها عجلة الحكم ، وجمع لمتعته ثلاثمائة غانية ، لكنه
وهب مبلغاً كبيراً من المال لزوجته الريفية التي كان قد طلقها منذ زمن طويل
وبحث عن أحد سادته القدماء ؛ وأعاد له المال الذي كان قد سرقه منه أيام أن
كان يعمل معه صبياً ، وأضاف إلى المال قيمة الربح طوال هذه المدة ؛ ولم
يجرؤ أن يطلب من الإمبراطور أن يوافق له على تلقيب نفسه بـ « شوجن »
(أى حاكم عسكري) لكن معاصريه عوضوه عن ذلك بـ « بلقب آخر أطلقوه
عليه ، وهو « تايكو » أى « الحاكم العظيم » ، وهي كلمة غامرت في رحلة
من تلك الرحلات « الأوديسية » التي تتبع آثارها في علم اللغات ، حتى

دخلت في ختام رحلتها إلى لغتنا نحن وأصبحت كلمة من كلماتنا ، وهى كلمة Tycoon : ووصف مبشر دينى « هيدىوشى » ، فقال : « إنه ماكر ماهر إلى درجة تجاوز كل معقول ، فقد نزع عن الشعب سلاحه بحيلة لطيفة ، وهى أنه أمر الناس أن يجمعوا كل ما عندهم من أسلحة معدنية ليصنع من مادتها تمثالاً ضخماً - وهو تمثال « دايوتسو » أى « بوذا العظيم » الذى يقوم فى كيوتو - والظاهر أنه لم يكن يعتقد عقيدة دينية ، لكنه لم يكن أسى من أن يستغل الدين من أجل غاياته فى طموحه أو سياسته .

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ متمثلة فى شخص رجل هو فى طليعة طائفة الجزويت ومن خيرتهم ، وأعنى به « القديس فرانمس اكسافير » ولم يكد يكون جمعية صغيرة حتى أخذت تزداد ازدياداً سريعاً ، بحيث لم يمض جيل واحد بعد قدومه إلا وقد بلغ عدد أعضاء الجزويت سبعين ، وعدد من تحولوا إلى المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية مائة وخمسين ألفاً^(٤٧)؛ وكانوا من الكثرة فى ناجازاكي بحيث جعلوا ذلك الميناء التجارى مدينة مسيحية ، وحلوا حاكمها المحلى « أومورا » على اتخاذ التدابير المباشرة فى نشر العقيدة الجديدة^(٤٨)؛ يقول « لافكا ديوهيرن » : « إن البوذية فى إقليم ناجازاكي قد طمست طمساً تاماً فكهنيتها أصابهم الاضطهاد والتشريد »^(٤٩) ؛ ففزع « هيدىوشى » لهذا الفتح الروحانى للبلاد ، وارتاب فى أن تكون وراءه أهداف سياسية ، فأرسل رسولا إلى نائب رئيس الجزويت فى اليابان ، مزوداً بخمسة أسئلة عاجلة :

١ - لماذا وبأى حق أرغم هو (نائب رئيس الجزويت) وأعضاء طائفته

الدينية رعية « هيدىوشى » على اعتناق المسيحية ؟

٢ - لماذا حرضوا أتباعهم وأشياعهم على هدم المعابد ؟

٣ - لماذا اضطهدوا كهنة البوذية ؟

٤ - لماذا أكلوا هم وبعض البرتغاليين حيوانات نافعة للإنسان مثل العجول والأبقار ؟

٥ - لماذا سمح لتجار من بنى جلده أن يشتروا أفراداً من اليابانيين يتخذونهم عبيداً في جزر الهند الشرقية ؟ (٥٠)

ولما لم يقنع « هيدوشى » بالإجابات ، أصدر سنة ١٥٨٧ الأمر الآتى :

بما أننا قد علمنا من مستشارينا الأمناء أن طائفة دينية أجنبية قد جاءت إلى مملكتنا ، حيث جعلت تبشر بقانون يتنافى وقانون اليابان ، بل ذهبت بها المرأة إلى تحطيم المعابد التي شيدت باسم (آلهتنا القومية) « كامي » و « هوتوكى » وعلى الرغم من أن هذه الفتنة تستحق أقصى ألوان العقاب ، فإننا مع ذلك راغبون في مقابلة أعضائها بالرحمة ، لذلك نأمرهم بمغادرة اليابان خلال عشرين يوماً ، وعلى من يعصى تقع عقوبة الموت ؛ ولن يصيب أحداً منهم أثناء هذه المهلة ضرر أو أذى ، أما إذا بلغ ذلك الأمر ختامه فإننا نأمر بأن يقبض على من يوجد منهم في بلادنا وأن يعاقب على أنه من أخطر المجرمين (٥١) .

وفي وسط هذه المفازع كلها وجد القرصان الأكبر من وقته فراغاً ينفقه في تشجيع رجال الفن ، وأن يُسهم في مسرحيات « لا » وفي تأييد « ركبو » في جعل الاحتفال بالشاى حافزاً على تشجيع صناعة الخزف اليابانى ، وحليّة هامة تزدهن بها الحياة في اليابان ؛ ومات سنة ١٥٩٨ بعد أن استوغد « أيياسو » وعداً ببناء عاصمة جديدة في « ييدو » ، (وهى الآن طوكيو) ، وفي الاعتراف بابن هيدوشى - وهو هيدورى - وارثاً له على وصاية العرش في اليابان .

الفصل السادس

الشوجن (أى الحاكم العسكرى) العظيم

أيياسو فى منصب السلطان - فلسفته - أيياسو والمسيحية -

ميرت أيياسو - طائفة الحكام العسكريين من توكوجاوا

مات «هيدىوشى» فأعلن «أيياسو» أنه حين حلف اليمين له ، لم يشهد على يمينه قطرات من دمه يستقطرها من أصابعه أو من فمه ، كما يقضى بذلك تشريع «ساموراي» أى حملة السيف بل استقطر دمه ساعة حلف اليمين من خدش وراء أذنه ومن ثم كان يمينه غير ملزم بالوفاء^(٥٢) ، والتقى بجامعة من قاداته كانوا ينافسونه السلطان ، التقى بهم عند سكيجاهارا ، فعصف بهم عصفاً فى موقعة انتثر على أرضها أربعون ألفاً من القتلى ، وأبقى على «هيدىورى» حتى بلغ سن الرشd فأصبح بذلك خطراً عليه ، وعندئذ أوحى له بالتسليم صيانة لحياته ؛ ولما قرّعوه على موقفه ذاك ، حاصر قلعة أوساكا الجبارة حيث كان هيدىورى محصناً ، واستولى عليها فى الوقت الذى كان الفقى فيه يزهد روح نفسه ، ومكّن لنفسه من السلطان كاملاً بأن قتل أبناء «هيدىورى» جميعاً الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، وبعدئذ نظم «أيياسو» الأمن فى مهارة وقسوة كما نظم القتال ، وحكم اليابان حكماً بلغ من صلاحيته أن رضيت اليابان بأن تحكم بأبنائه وعلى مبادئه مدى ثمانية أجيال .

كان رجلاً له أفكاره الخاصة ، وكان يتخذ لنفسه من قواعد الأخلاق ما تقتضيه ظروف الساعة ؛ فلما جاءته سيدة من أكرم السيدات تشكو إليه أن أحد رجاله قد قتل زوجها لكى يظفر بها ، أمر «أيياسو» ذلك الرجل أن يخرج أمعاء نفسه بيده ، وبعدئذ اتخذ من السيدة خليله له^(٥٣) وهو شبيه بسقراط (٣-ج ٥ - مجلد ٢)

في جمل الحكمة الفضيلة التي لا فضيلة سواها ، ورسم الطرق المؤدية إليها ،
ذلك الكتاب العجيب الذي أسماه « التراث » أو العهد العقلي الذي خلفه
لأسرته عند موته :

« الحياة شبيهة برحلة طويلة يحمل فيها الراحل حملاً ثقيلاً ، فاجعل خطاك
وثيدة ثابتة ، حتى لا تتعثر ، واقنع نفسك بأن النقص والتعب هما نسيج الحياة
الطبيعي عند من تفتى حياته ، ولن يكون في حياتك ما يمد لك في سبيل السخط
أو اليأس فإذا ما نَزَتْ في قلبك نزوات الطموح ، فتذكر أيام الشقاء البالغ
حده الأقصى ، التي اجتزتها في ماضي حياتك ؛ فالصبر هو أس السكينة
والطمأنينة إلى الأبد ؛ أنظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك ؛ فإذا اقتصر
علمك على كيف تهزم ، ولم تعلم كيف تنهزم ، فالويل لك ، وبأسوء
سبيلك في الحياة الدنيا ؛ فاكشف عن الخطأ في نفسك قبل أن تكشف عنه
في سواك » (٥٤) .

أما وقد ظفر لنفسه بالسلطان بقوة السلاح ، فقد قرر أن اليابان لم تعد بها
حاجة إلى مواصلة الحروب ، وكرّس نفسه للنهوض بما يقيم السلام من وسائل
وفضائل ، ولكي يباعد بين « الساموراي » (أي حملة السيف) وبين عاداتهم
العسكرية ، شجعهم على دراسة الأدب والفلسفة والخلق الفني ، وهكذا
ازدهرت الثقافة في اليابان في ظل حكمه الذي نشره في ربوع البلاد ؛
وتدهورت الروح العسكرية ، وقد كتب يقول : « إن الشعب هو أساس
الإمبراطورية » (٥٥) . واستثار في قلوب خلفه الرحمة والرأفة « بالأرمل والأرملة
واليتيم ومن لا أنيس له » لكنه لم يتصف بالميل الديموقراطية ، حتى لقد
ذهب إلى أن أفدح الجرائم جميعاً هو العصيان ، « فالزميل » الذي يخرج
على صفوف الزملاء من طبقته ، لابد من الفتك به فور ساعته ، ولا مندوحة
من قتل أسرة الناصر بأسرها (٥٦) ، ومن رأيه أن النظام الإقطاعي هو أفضل

نظام يمكن وضعه لبنى الإنسان كما هم في حقيقة طبائعهم ، لأنه يبنى اتزاناً معقولاً بين السلطة المركزية والسلطة المحلية ، كما يقيم نظاماً طبيعياً وراثياً تتسق به الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو كذلك يضمن استمرار المجتمع دون أن يتعرض لسلطان الحاكم المستبد ، ولا بد لنا من الإعراف هنا بأن «أبياسو» قد نظم في بلاده أكل صورة عرفها الإنسان للحكومة تقوم على نظام الإقطاع (٥٧) .

وهو - ككل سياسى آخر - قد فكر في الدين على أنه أداة للنظام الاجتماعى قبل أن يكون أى شيء آخر ، وأحزنه أن يرى أن اختلاف الناس في عقائدهم الدينية قد قضى على نصف هذا الخير الاجتماعى بما أحدثته العقائد المتعادية من فوضى ؛ وقد كانت العقيدة التقليدية للشعب اليابانى - وهى خليط مضطرب من الشنتوية والبوذية - كانت هذه العقيدة التقليدية من وجهة نظره السياسية الخالصة ، رباطاً بالغ القيمة يربط الجنس اليابانى في وحدة زوجية ونظام خلقى وولاء وطنى ، وهو على الرغم من أنه نظر إلى المسيحية بادئ ذى بدء بعين التسامح وبأفق عقلى فسيح كاللذين عرفوا عن «أكبر» في (الهند) وأبى أن يرض عليها ما كان يفرضه عليها «هيدوتشى» من أوامر يعلن بها غضبه منها ، إلا أنه عاد فضاق بها صدىً لتعصبها ، ولاتهامها القاسى للديانة القومية بأنها وثنية ، وما أحدثته بتعصبها الجامح من شحناء لم تقتصر على أن تكون بين المعتنقين المسيحية وبقية أفراد الأمة ، بل امتدت فدبت بين معتنقى الديانة الجديدة أنفسهم (*) ؛ ثم ثار في صدره السخط آخر الأمر

(*) حدث سنة ١٥٩٦ أن أرعحت التوارب اليابانية سفينة أسبانية على الرسو في ميناء يابانية ، وسألتها عمداً إلى موضع صخرى فانحطمت نصفين ، ثم استولى الحاكم المحلى على ما بها على أساس أن القانون اليابانى يبيح لآلى الأمر أن يضموا أيديهم على كل السفن التى تلجأ مضطرة إلى شواطئ اليابان ، فبارت قاترة الريان «لانديكوا» واحتج عند وزير «هيدوتشى» وهو «ماسودا» - وكان وزيراً للأشغال - فسأله «ماسودا» كيف أمكن للكنيسة المسيحية أن تظفر بكل ما ظفرت به من أنظار فتخضعها لرجل واحد ، ولما كان «لانديكو» بجاراً قبل أن يكون سياسياً ، أجاب : «إن ملوكنا إذا ما أراحوا فتح قطر من الأقطار بدأوا بإرسال المبشرين الدينيين يدعون الناس إلى الدخول في ديانتنا ، حتى إذا ما وفقوا إلى شيء من النجاح ، أرسلت الجنود لتنضم إلى من اعتنقوا المسيحية من أهل البلاد ، وبعدئذ لا يجد ملوكنا كبير عائد في إتمام ما بقى» (٥٩) .

لما عرف أن المبشرين بالمسيحية كانوا أحياناً يُستخدمون طلائع للفاتحين وأنهم كانوا في أجزاء متناثرة من أرض الوطن يتآمرون على الدولة اليابانية (٥٨) ؛ فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بتعاليمها في اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة من الأهالي إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم الجديدة ، واستطاع قساوسة كثيرون أن ينجوا بأنفسهم من طائلة هذا القانون ، وألقي القبض على طائفة منهم ، ولكن لم يُعدم أحد منهم في حياة «أياسو» ، فلما قضى نحبه ، صبَّ سادة الحكومة غضبهم على المسيحيين ، وأعقب ذلك موجةٌ وحشية من الاضطهاد الديني ، كان من أثرها أن احت المسيحية من بلاد اليابان محوّاً تاماً تقريباً ، ولما كان عام ١٦٣٨ نجمت البقية الباقية من المسيحيين ، وبلغ عددها سبعة وثلاثين ألفاً ، في شبه جزيرة «شيامبارا» وحصنتها ووقفت وقفة أخيرة دفاعاً عن حرية العبادة ؛ فأرسل لها «أيمنتسو» - حفيد أياسو - قوة كبيرة مسلحة لإخضاعها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت الحامية في أيدي اليابانيين ، وذبح المعتصمون بها ذبحاً في الشوارع ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا مائة وخمسة أشخاص .

مات «أياسو» في نفس العام الذي مات فيه شيكسبير ؛ وخلف هذا الحاكم العسكري القوى سلطانه إلى ابنه «هيدينااما» مصحوباً بنصح بسيط وهو : «ارْعَ أبناء الشعب ، وحاول أن تكون فاضلاً ، ولا تهمل أبداً في حماية البلاد» ؛ وكذلك قدم النصح إلى الأشراف الدير وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره ، فكان نصيحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرِفَت عند «كونفوشيوس» و «منشيوس» إذ قال قال لهم : «لقد بلغ ابني الآن سن الرشد ، ولست أشعر بأى قلق على مستقبل الدولة ولكن إذا ما اقترف خلقي خطأ فادحاً في إدارة حكومته ، فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم ، فليست البلاد ملكاً

لرجل واحد ، لكنها وطن للأمة بأسرها ، وإذا ما أضاع حدى سلطانهم بسبب أخطائهم ، فلن أسف على ضياعه منهم » (٦٠) .

لكن حفدته ملكوا زمام أنفسهم على نحو أحسن جدا مما كان ينتظر عادة من ملوك عصرهم أن يفعلوا خلال أمد طويل من الزمن ؛ أما « ميديتارا » فقد كان رجلا متوسط القدرة لا يصدر عنه الأذى ؛ ثم جاء « أينستسو » مثلا لصورة أقوى من صور أفراد هذه الأسرة ، فاستعاع بشدته أن يحبط حركة نهضت لإعادة النفوذ الحقيقي إلى الأباطرة الذين كانوا لم يزالوا يملكون ولكنهم لم يكونوا يحكمون ؛ وأغلق « تسونا يوشى » إغداقا في رعايته لرجال الأدب ، ورعايته للمدرستين المتنافستين العظيمتين في عالم التصوير . وهما « كانو » و « توسا » اللتان زينتتا عصر « جتروكو » (١٦٨٨ - ١٧٠٣) ؛ وجاء « يوشيمونى » فجند نفسه للغاية التى ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين ، وهى محو الفقر ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت ميزانية حكومته تعاني فيه عجزاً جاوز المألوف ؛ فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلا ، وهاجم إسراف الأغنياء ، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقى ، الذى ذهب به إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللاتى كن أجمل السيدات ، واكتفى فى ثيابه بلبس القطن ، وفى نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون وفى طعامه بأبسط ألوان الطعام ؛ ووضع صئلاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفى الحكومة على أى نحو شاموا ؛ فلما قدم رجل يدعى « ياماشيتا » عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها ، أمر « يوشيمونى » بالاتهام فقرئ على مسمع من الملأ ، وكافأ كاتبها على صراحته بأجر العطاء (٦١) .

ولقد قرظ « لافكاديوهيرن » حكمه فى ذلك العهد فقال : « إن عصر « تركوجاوا » كان أسعد العصور التى شهدتها الأمة فى حياتها الطويلة » (٦٢)

ويميل التاريخ إلى الأخذ بهذا الرأي نفسه ولو على سبيل الترجيح ، لأن التاريخ لن يبلغ في علمه بالماضى مبلغ اليقين ؛ فكيف يستطيع الإنسان إذا نظر إلى اليابان اليوم ، أن يتصور أن هذه الجزر التي تضطرب أعصابها اليوم اضطراباً كانت منذ قرن واحد مضي يسكنها شعب فقير لكنه قانع ، ويتمتع بعصر طويل من السلام في ظل حكومة تقوم عليها طبقة عسكرية ، ويتجه بمجهوده — في عزلته الهادئة — نحو أسمى غايات الأدب والفن ؟ !

الباب التاسع والعشرون

الأسس السياسية والخلقية

محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التي أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم — كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب — شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لونا ولغة وحكومة وديانة وخلفاً وعادات وشخصية واهداً وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أى كاتب غربي آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة فى إدراك وفهم ما يمكن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانية »^(١) ، وكتب أديب يابانى بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائماً على الحكايات المشكوك فى صحتها مما يرويه لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعننا نحن الأسويين هذا النسيج العجيب الذى يمزج الحقائق بالأوهام حين يتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فتراكم تصوراتنا كأنما نعيش فى عالم كله عطر من أزهار اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفئران والصراصير »^(٢) فلن نجد فيما يلى — إذن — أكثر من محاولات — قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز — لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق اليابانى : وينبغى لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذى تلقىه علينا الفلاسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

الفصل الأول

طبقة الساموراي (أى حملة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له - سلطة « الشوجن » (أى الحاكم
العسكرى) - سيف « الساموراي » - قانون « الساموراي »
« هاراكيرى » - « الروفانات » السبعة والأربعون - حكم
قضى بتخفيفه

يقوم على رأس الأمة - من الوجهة النظرية - الإمبراطور المقلس ،
وكان البيت الحاكم حقيقة - وأعنى به الحاكم العسكرى الورائى - يسمح
للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل
الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد
الحكم فى بيت واحد (*) ؛ وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً
يلوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشهم : فبعضهم يضع المظلات ، وبعضهم
يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛
وجعل الحكام العسكريون من أسرة « توجوواكا » من مبادئهم ألا يتركوا
للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء
ويفتنوا من عضده بالتخث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن
سلطاتها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب (٢) .

أما « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) فقد كان حينئذ ينعم بثروة
اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق
الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولاً فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولاً
فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها
والمصاريع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(٥) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الأمريكية الحالية .

والقطط كلها داخل الدور ، رَأَى يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض^(٤) ؛ وكان «الشوجن» حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثمانى سيدات مثقفات واجبن أن يسليهن فى غير التزام لقواعد الاحتشام^(٥) ، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشارى قوامه اثنا عشر عضواً : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان فى الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — (أو «الدائمو» كما يسمونهم ومعناها «أصحاب الأسماء العظيمة») لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذى يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيادزو التى كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا فى الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة (بارونات) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأرضى ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة «الساموراي» — والساموراي هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية فى المجتمع الإقطاعى اليابانى هى أن كل رجل من السادة هو جندى ، والعكس صحيح ، أى أن كل جندى هو كذلك من السادة^(٦) فهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسألة التى ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التى تغذى فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التى عنوانها «قصة المالك الثلاثة» ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأدب بالسكران الذى يفوح برائحة الكتب^(٧) ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفون من الضرائب ، ولهم الحق فى مقدار من الأرض يعطيهم

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا
فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ، وكانوا يحترقون الحب
ويعدون لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط اغريقى : والميسر
والعريضة كانا جزءاً متما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا
يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عليهم بالإعدام^(٨)
فسياف رجل من فئة « الساموراي » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « آياسو »
وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم
من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ، فله الحق - إذا أخذنا
بما يقوله « آياسو »^(٩) - أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا
إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه
فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب^(١٠) وفى ذلك يقول « لئنجفورد » :
« إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينون باشى »
(وهذا اسم جسر فى وسط مدينة ييدو) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ،
فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الحمر ، فقبله السياف
بضربة يسمونها « ناشى وارى » (ومعناها شق الكثيرى) وأصابته الضربة
مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذه ، ففضى
الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بحمال فسقط نصفين
مشطورين على أدق صورة^(١١) ، فأتفه الفرق بين « الواحد » و « الكثير »
هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيافين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحية التى
كانوا يحولون بها الفناء خلود ؛ فقد ألزموا أوضاعاً صارمة اشتراطها
للرجل الشريف - ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيلو »^(*) .

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هي القدرة على اختبار سلوكك في الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغي لك أن تضرب »^(١٢) وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أسمى من القانون السائد بين عامة الناس^(١٣) وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون في المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيا حياة خشنة مقتررة فلا يأكلون في اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون في أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخلية ، وعلموا نساءهم كيف يتلنن بشراً إذا ما نعى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم في ساحات القتال^(١٤) ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراي » (أى هؤلاء السيفيين) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكي يخدمه ويحميه في الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) الذى يدعى « أيمتسو » يحضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « جَنْشِي » (أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع^(١٥) ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور^(١٦) فلست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة أبسل ، أو هذا أصرم ،

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيفين » من أعضاء تلك الفئة التي تعرف عندهم باسم « ساموراي » :

وآخر القوانين في تشريع « بوشيدو » (أى تشريع طائفة السيفين) هو قانون « هارا كيرى » — ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التي تقتضى من السيف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له — إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له — بأن يقربطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً في ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم في القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يقربطنه بيده معادلاً تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك (فكلمة « هارا كيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوية قلما ينطق بها الياباني ، إذ هم يفضلون كلمة « سيبوكو ») فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأوروبية في إخلاء «لياوتنج» فارتكب أربعون رجلاً من العسكريين « هارا كيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث في حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع في أسر الروس ، وإذا لقي الرجل من « الساموراي » (السيفين) إساءة من سيده ، فإنه — إن كان سيفاً أصيلاً — يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السيبوكو » (أى بقر البطن انتحاراً) — وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . في طليعة ما يلحق للشاب من فئة « الساموراي » ، وآخر علامات المودة التي يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده (١٢) ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى الياباني من عدم الخوف من الموت (*) .
كذلك كان يسمح بالاغتيا ل - كما كان يسمح بالانتحار - في ظروف
معيّنة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان في نظامها الإقطاعي كانت تقتر في الإنفاق
على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتل أو أخيه أن يثار
لنفسه بدل اللجوء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثار - إلى
جانب إيمائه بنصف القصص والمسرحيات في الأدب الياباني - إلى الحيلولة دون
كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراي » (أي السيفين)
كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب (الهاراكيري) بعد استخدامه لحقه
في الثار بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانا » الأربعون المشهورون
وهم فئة من السيفين لم يكونوا أعضاء رسميين في تلك الطائفة (حين
تأثروا من « كوتسوكي » لما ارتكبه من قتل اغتيا ل ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون
له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا وقار إلى ضيعات عينها لم
« الحاكم العسكري » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات (كان ذلك
سنة ١٧٠٣) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكي » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ
منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

(*) كانت الـ « هاراكيري » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن
يرتكبن ما يسمى « چيكاكي » - ومعناها أن يؤذن لهن - احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة -
أن يخترن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة
لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً في عملية جز الرقة ، ويعلمونها كيف تربط ساقها قبل قتلها
نفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثثها وهي في وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة (١٨) .

٢ - حزمة ورقية واحدة .

تسلمت الشيتين المذكورين أعلاه .

(توقيع) سايارا موجوباي

سايتو كوناي

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة في تاريخ اليابان كله وأصدقها نمشلا لليابانيين ، وهى من أدل الحادثات تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقرءوا ذلك الفعل ، ما يزالون - فى أعين الشعب - أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم^(١٩) .

ولما دنا عهد وصاية « آياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم - فى رأيهما - فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « آياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك - مراعاة لعادات عصره - أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلاً : « اذهب أنت أولاً ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية الـ « سيبُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبران

وعيناها تلمعان ، وقالوا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ، ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره في الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخي ، أنفهم الآن ؟ والذي ينبغي أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتيك في وضع ثابت » . وفعل « ناينكي » ما فعله « ساكون » وقال للصبي : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهي تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً في جوفك يعوق لإخراج خنجرك ، وأن قواك تنحور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك في شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبي إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره « (٢٠) » .

الفصل الثاني

القانون

التشريع الأول - المسئولية الجمعية - العقاب

كان التشريع القانوني في اليابان مكملاً عنيقاً لما كان يتم بالاغتياي وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية في القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صعب الدين في هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان^(٢١) ، وبدأ « تنشئ تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت في عهد الإمبراطور اليافع « مومو » عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطوري ، أهملت في العصر الإقطاعي ، إذ جعل كل حاكم إقطاعي يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلا عن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيفين » بقانون إلا ما يريد به وما يأمر به مولاه^(٢٢) .

وكانت العادة في اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة - في معظم الأقاليم - توضع في مجموعة من خمس أسر ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفي على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد^(٢٣) ، وكان نظام المحنة متبعاً في التحقيق على نحو ما كان متبعاً في العصور الوسطى ، ولبت التعذيب شائعاً - في صورته الخفيفة - حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب لزاء المسيحيين ؛ ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

بأنفسهم في تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق في وسائلهم التعذيبية .
فيربطون الرجل بحبال في وضع وثيق . يزيد المربوط ألماً كلما مرت به لحظات
الزمن لحظة بعد لحظة^(٢٤) ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط
لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ،
وجاء الإمبراطور شومو (٧٢٤ - ٥٦) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة
أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور
« كوشين » (٧٧٠ - ٨١) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك
أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح^(٢٥) ، وكانوا
ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع
والحرق أو الغلي في الزيت^(٢٦) ، وكان « أياسو » قد ألغى العادة التي تقضى
بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التي تقضى بأن
يربط المتهم في عمود وسط الملأ ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه في
تقطيع جسده بمشار ينشره من كتفه فأسفل^(٢٧) ، وكان من رأى « أياسو »
أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار
ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم^(٢٨) ، وكهم ساء « يوشيموني » أن يجد
محبون عصره بغير استعدادات صحيحة ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها
منذ ست عشرة سنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة
إليهم ، ومات الشهود^(٢٩) ، وأخذ هذا الحاكم العسكري انذى كان أكثر
هذه الطائفة استنارة في إصلاح السجون ، وعمل على السرعة في الإجراءات
القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضني بغية أن يصوغ
أول تشريع موحد للقانون الإقطاعي في اليابان (١٧٢٩) .

الفصل الثالث

العمال

نظام الطبقات - تجربة في تأميم الأراضي - تحديد الدولة للأجور -
مجاعة - الصناعات اليدوية - الصناعات والنقابات

انقسمت الجماعة في العصر الإمبراطوري ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق في العهد الإقطاعي بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراي (أى السيفون) والصناع والفلاحون والتجار - والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة في الترتيب الاجتماعي ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة في كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً في الأسواق(*) (٣٠) ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم في المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجسين لأنهم يشتغلون بالجزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة (٣٢) .

والأكثريّة العظمى من السكان (الذين بلغ عددهم في أيام يوشيموني عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضي الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(**) ، وحدث في عصر « نارا » أن أمت الدولة الأراضي الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(•) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩ (٣١)

(••) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت - ولا تزال - تسمد بالفضلات البشرية .

لم بعضهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرسوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام من الجائز أن تؤول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال في فصل الربيع ليتمكن الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد^(٣٣) ، ومع هذه المعونة المالية لم تكن حياة الفلاح على درجة من اليسر تحلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع - حقاً ، في ذلك العهد الإقطاعي - كان مورد رزق لألني رجل^(٣٤) وكان على الفلاح أن يسخر في عمل للدولة مدى ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الجائز خلالها أن يلاق حتفه بطعنة رمح عقاباً له على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل^(*)(٣٥) وكانت تفتضيه الحكومة ستة في المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك في القرن السابع ، أما في القرن الثاني عشر ، فكانت تفتضيه سبعة في المائة ، وأربعين في المائة في القرن التاسع عشر^(٣٦) ، وكانت آلاته الزراعية غاية في بساطتها ، وثيابه هلاهيل خفيفة في الشتاء ، وهو في العادة لا يلبس شيئاً قط في الصيف ، وكل أساسه في المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره من الضالة بحيث يكفي نصف أسبوع لبنائها^(٣٨) ذلك لأن الزلازل تحطم له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه الحاجة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل آخر ، حددت له الحكومة - في عهد توكوجاوا - ما يستحق من أجر^(٣٩) لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيماً ، وتجد في كتاب لـ « هو كوكي » وهو من أشهر كتّاب الأدب الياباني - وصفاً لطائفة من الكوارث

(*) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقللوا في الظهيرة من منتصف النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام العمال المرضى ، ومثلها كذلك أن تعد الأكلان لمن يموت إبان السخروز^(٣٦) .

اجتمعت كلها في الثمانية الأعوام — ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ — فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتي على كيوتو كلها(*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلاً من أجل ما في النثر الياباني :

« حدث في أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس أراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون في شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التي لم تكن مألوفة في الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى ... وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً في إثر نفيس (من أجل القوت) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ ... واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلات آذاننا بأصوات أنينهم الباكي ... كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا يأساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سملك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سياهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف في سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم نغاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عينيك لآعباء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

(*) ابشع ما شهدته اليابان في تاريخها من حرائق — وهي في تاريخها كثيرة — هي تلك التي محت ييدو (طوكيو) محوً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وقضت حل مائة ألف نفس بشرية .

يطرأ على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها ... ومن لم يكن له كسب يشتري به القوت ، هدم دارد لبيع أجزاءها في السوق ، وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكني سد رمقه يوماً واحداً ، والعجب أنك كنت ترى في هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة في بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشيء آخر يستثير في النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ، وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لحبوبة — رجلاً كان أو امرأة — أى شيء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قد فاقت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى في كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٣٠٠ من الأنفس البشرية « (٤٠) » ، قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية في اليابان كما رآها في كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى في الإمبراطورية ؛ فتكاد لا يجد في هذه العاصمة الكبرى منزلاً واحداً لا يصنع فيه شيء أو يباع شيء ؛ فالتناس هاهنا يُصنفون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهو الذهب والفضة . وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشئ الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع ها هنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التي تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد في هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر في شيء مما لا تراه يصنع في كيوتو — وليس هنالك شيء مما يستورد من خارج البلاد — مهما بلغت دقة صناعته — مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس في المنازل التي تقع في الشوارع الرئيسية إلا قلة لا تعرض شيئاً للبيع ؛ ولم يسعى إلا العجب أني هو لاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع ؟ »^(٤١) .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمان طويل كل فنون الصين وصناعاتها ؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلمها من أهل الغرب في الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلي^(٤٢) ، فكذلك حدث في أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعاتها ينافسون ، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة في الدار — كما كانت الحال في أوروبا في عصرها الوسيط — وكانت الأسرة تورث صناعاتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيراً ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التي كانت تقوم بها ؛ وكذلك — كما كانت الحالة أيضاً في أوروبا في عصرها الوسيط — تألفت نقابات كبرى ، لم يكن قوامها الصنفوف الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالاً لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا في ضيقها^(٤٣) ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات المالية « والكبيالات » وبقروضون القايمن على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى (١١) وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التي كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا في صدورهم الشحناء باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتآزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المنحجرة فوق اليابان القديمة .

الفصل الرابع

الشعب

قوام أجسادهم - صجائن الزينة - الثياب - الطعام - آداب المعاملة -
- سيك - احتفال الشاي - احتفال الزهور - حب الطبيعة -
الحدائق - المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »^(٥٥) ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الخير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن ؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهلها^(٥٦) ، لكننا لا ينبغي أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال - شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما هن من نشاط - وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك - يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة ؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن :

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم - حتى في العصر القديم الذى بسط فيه « كيو تو » زعامته على البلاد - ترى الرجل منهم إذا ما كان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمَّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب^(١٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالاً لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفي ذلك تقول « السيدة مى شرناجون » في كتابها : « صور على الوسادة » (حوالى ٩٩٤ ميلادية) مصطنعة الحشمة في قولها : « حَنَيْتُ رَأْسِي فَأَخْضَيْتُ وَجْهِي بِكُمَى ، مَخَاطِرَةٌ فِي ذَلِكَ بِمَا قَدْ يَحْدِثُهُ الْكُمُ مِنْ إِزَالَةِ الْمَسْحُوقِ عَنْ وَجْهِي فَيَبْدُو مُبَقَّعاً »^(١٨) فقد كان سيدات البدع يَحْمَرْنَ خُدودهن ويطلين أظفارهن . وَيَذْهَبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة في القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفاً ، وهى في القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرف النساء خمسة عشر طرازاً لتصفيف الشعر الأمامى ، واثني عشر طرازاً للشعر الخلقى ، وكن يخلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلةً أو غيرها من الرسوم ؛ أو كن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين في أعلى الجبهة ، لكي يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التى كن يُسَوِّدْنَها صناعةً ، وكان تصفيف الشعر للمرأة عملاً يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصفيف خبيراً بفننه ؛ وكان معظم الرجال في عصر « هاى » يخلقون مقدمات رؤوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامى الخلقى ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحية ضرورة للرجال ، رعم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحي بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحي صناعية ، وكان يقدم للضيف في بيوت العلوية ملقط يسوى به لحيته^(١٩)

كانت الثياب اليابانية في عصر « نارا » تقتنى أثر الثياب الصينية فصدار وسراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر « كيو تو » وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشيء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يتراوح عددها من ثوبين إلى عشرين .
وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها
عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف في تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت
أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتها ، وفي طرفها جرس يُنْتَنَتِنُ وهي تسير ،
وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من
الحشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفي
عصر «توكوجاورا» بلغ الإسراف في الثياب حداً جعل «السيافين» لا يعبأون
بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرقت
السر اويل المبطنة بالحرير والموشاة كما حرقت الجوارب التي كانت تزخرف
على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ،
جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرويه
في الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ،
لكنهم في معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان
من حماقة فطرية (٥٠) .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ،
وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .
ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص
عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات في اليوم الواحد عند من يستطيع
إلى ذلك سبيلاً ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم (٥١) (*) .

وأما في القرى ، فكان الناس يستحمون في طسوت خارج منازلهم في

(*) كان في طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شعبي ، يستحم فيها كل يوم نصف
ليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت (٥٢) .

الصيف ، ويثرثر الجار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع (٥٢) ، وكانوا يستحمون في الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تطفئ عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين في الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون في أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسي عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل الياباني يفضل هذا الطعام الذي يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجري من خمسين ميلاً إلى ثمانين في أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو لإعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجري السريع (*) وحاول الأباطرة في عصر كيوتو محاولة دينية فصلوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لوناً شهاً من الطعام ، ويسرفون في أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية (٥٣) .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهي علامة جوهرية للحضارة ، حتى أقد أخذ الطهاة — كأنهم في ذلك فنانون أو فلاسفة — يتقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبدع كل منها من « وصفات » ،

(*) لكننا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يتعرضون لاضطرابات في الهضم (٥٦) .

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادت أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضاة ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم في كل رحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً في الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بحشاشات عدة يظهرون بها عرفانهم بالجميل (٥٨) ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » في زمن بالغ في القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكي » هو الحل الوحيد الذي تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ما كان ينشده السبعة الحكماء
اولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان
هو — بغير شك — شراب « الساكي »
فدل أن تجلس ساكناً
مفكراً ، جاداً ، صناً
فخبر ألف مرة أن نشرب « الساكي »
وأن تسكر به حتى تصبح صباحاً عالياً
فما دام الواقع الحق ،
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً
فلنمرح

ما دمتنا على قيد الحياة
إن اللؤلؤة التي تتألق بريقها في الليل

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه
التي تأتيه إذا ما شرب « الساكى » (٥٩)

لكن الشاى كان أكثر قدسية عند العلوية من « الساكى » . فهذا النبات العجيب الذى نتغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلى ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتباره سماً لا ينبغي أن يقربوه ، ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيفين » أن قليلاً من أقذاح الشاى سرعان ما يرد إلى رأسه اتزانته بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط فى شراب « الساكى » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يقيمون فائدة الشاى ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سعره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهادون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ، حتى لقد كان يُقدَّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا فى أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذى يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحة من الشاى ، يجمع حوله الأصدقاء لشاركوه هذا الشراب الملكى ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاى احتفالاً رقيقاً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاى بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فمن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التى توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاى ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الوضوء مليئاً بالماء الصافى ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص فى أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولا يجوز أن يغوص الحاضرون فى حديث بانه ، بل يجب عليهم ألا يطرُقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

ولم يكن يستعمل إبريق الشاي في مثل هذه المحافل التي يطلق عليها « شا-نو-يو » (ومعناها ماء ساخن للشاي) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاي في فنجان ممتاز في نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يمسح حافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية^(٦٠) ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاي حافزاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملاً على صياغة آداب اليابانيين في صورتها الهادئة الفاتنة التي يراعى فيها تبادل الاحترام^(٦١).

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية في اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذي صاغ طقوس محافل الشاي ، فكانت الزهور عنده تلقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاي ، ولما سمع أن « هيديوشي » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور في بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع في عيني هذا « السيف » الخفيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة في عالم الزهور^{(٦٢)(٦٣)} ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاي » في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام في حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساندة الزهور » تعلم الرجال والنساء

(*) محصول الشاي هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هي التي جاءت إلى أوروبا بأول ماعرفته من الشاي سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعمائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواي » سنة ١٧٥٦ إن الرجال في أوروبا يفقدون من طول قامتهم والنساء فيها يفقدون من جمالهن ، بفعل شرب الشاي ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه العادة بوصفهم إياها بالهيجبة القذرة^(٦٤) .

(**) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم في عالم الشاي » قد تمحبا كما يتحاب الرجلان المبقران ، وقد اتهم أولهما الثاني بتهمة الخيانة ، لكنه بدوره اتهم بإنساد ابنة الثاني (ركيو) وأخيراً انتحر « ركيو » حل طريقة هارا كيري^(٦٥) .

كيف يبتون الزهور في البستان وكيف ينسقونها في دورهم ، فكان هؤلاء الأساندة يقولون إنه لا يكفي أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال في ورقة الزهور وفي غصنها وفي عودها كما ترى الجمال في الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال في زهرة واحدة كما تراه في ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لا يقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها في طاقات وصفها^(٦٤) ؛ وهكذا أصبح الشاى والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية في اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقربين ، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون في كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين في أوائل شهر إبريل ، يخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحذجوا فيها بأبصارهم ؛ بل لأنهم ليحجون إلى الأماكن التي تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر^(٦٥) ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها - وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذي يستعد للموت في سبيل وطنه في اللحظة التي تصل فيها حياته أوج شبابها^(٦٥) ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم في طريقهم إلى الموت^(٦٦) ، وتروى لنا « السيدة تشيو » في قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصدت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتقاً عليهما أغصان النبات اللبلابي ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات^(٦٧) ، ويقول « تسورايوكي » « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور في قرى ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقها^(٦٨) » ، هذه العبارة الساذجة هي من أعظم الشعر

(*) هم كذلك يحجون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

الياباني ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة للجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملاً يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحب الطبيعة بمثل ما أحبها اليابانيون ولن تجد الناس في أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقنيات الطبيعة كما تبدى في الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم في دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد في اليابان منزلاً بغير أضيض للزهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة في الأدب الياباني تخلو من وصف مشاهد الطبيعة في ثيابا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغي لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثراً بلغ في فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال في عاطفة جارفة تكاد تبلغ في حدتها قوة نهما لإزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن هاهنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التي لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرائى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها في أضص ، وتدفعهم في ذلك فكاهة شيطانية وصب عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها في أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكون سور البستان — أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التي عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون في فوهات براكينهم وفي أوعر شطآنهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

النيران الداخلية ، أو صاغها حجارون صابرون في أشكال غريبة ملتوية
الأجزاء ، وهم يحفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهرات الفوارة
بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرائي كأنما جاءت نمواً طبيعياً في
أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هذه التكوينات المختلفة كلها مماش
ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتهدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن
هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا
بيوتهم جزءاً من حدايقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدايقهم جزءاً من بيوتهم ،
ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها حميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً
-أهماً- ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه
وسمده فيجعل منها مسكناً تبلغ بساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد
الكمال بحيث تراه في فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى في مثل هذا
المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناضد أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة
تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل
ولا التحف ؛ لكنك ترى في ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط
صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفي ، وتجده على
الأرض المغطاة بالحصى وسادة وضع أمامها كرسي مما تسند عليه الكتب
 للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ،
وهم يخفون الحشايا والأغطية في خزائن خشبية ، ليخرجوها وينشروها على
الأرض إذا حان وقت النوم ، ففي مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو في كوخ
الفلاح الهزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية
في « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات
ومن فساد سياسي وكفاح في سبيل الدين .

الفصل الخامس

الأسرة

الأب المستبد - منزلة المرأة - الأبناء -
الأخلاق الجنسية - « جيشاء » - الحب

الأسرة هي المصدر الحقيقي للنظام الاجتماعي ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها في يد الأب في اليابان - كما هي الحال في سائر أنحاء الشرق - لا يدل على انحطاط في درجة الرقي الاجتماعي ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسية ، فليس للفرد من الأهمية في الشرق بمقدار ما له من الأهمية في الغرب ، وذلك لأن الدولة في الشرق كانت أضعف منها في الغرب ، ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التي تشمل بسلطاتها شتى نواحي الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية في الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هي وحدة الإنتاج في عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعي ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التي لا يعقبها شيء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبذل للناس أمراً طبعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته في حصبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته في سوق النخاسة

أو سوق الدعارة(*) وفى مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة(٧٠) فإذا ما كان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ، ولم يكن أحد ليتم بما يقترفه من خيانة زوجية آنأ بعد آن(٧١) ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكوا الكتاب من أهل البلاد مما أحدثته من اضطراب فى هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التى تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا(٧٢) .

وكانت منزلة المرأة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أعلى فى مراحل المدنية الأولى منها فى المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطورى ، ولعبت المرأة فى كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول فى حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفى ذلك العهد الذهبى للثقافة اليابانية — لو جاز لنا أن نجازف بالرأى فى مثل هذه النواحي الغامضة — سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا ، بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال(٧٣) وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة فى أدب المقالة ، قولها : « ولست أدرى إن كان الرسول الذى حمل رسالة هذا الحب معطرة بقطرات الندى انتشرت من الزهور العبق ، قد تردد فى تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هى بدورها تستضيف عشيقاً »(٧٤) ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين فى إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعى الحربى ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلتا يتعاقبان على نحو طبيعى يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » — الولد والزوج والابن — — وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهدهن فى ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(*) لم يكن يقع هذا إلا فى أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها نوراً ؛ وقد أضاف « ايباسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة في مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حتى عليه هو نفسه عقاب الموت (٧٦) ؛ وقد نصح الفيلسوف « لاكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت في حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ، أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغي للزوجة - في رأى « لاكن » - أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفي ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله في بلاد الغرب (٧٧) .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً في اليابان « السامورية » (*) على خلاف ما نراه في أقدم عادات المجتمع الشرق وأكثرها قدمية ؛ وذلك لأنه لما تكاثرت السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهلها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيفين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين (٧٨) ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم في زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً (٧٩) . وكان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفي جو من الأدب الذى يبيث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تُبعث في الأبناء والتى تكون معيناً للنظام في الأسرة ، وقد أمرت

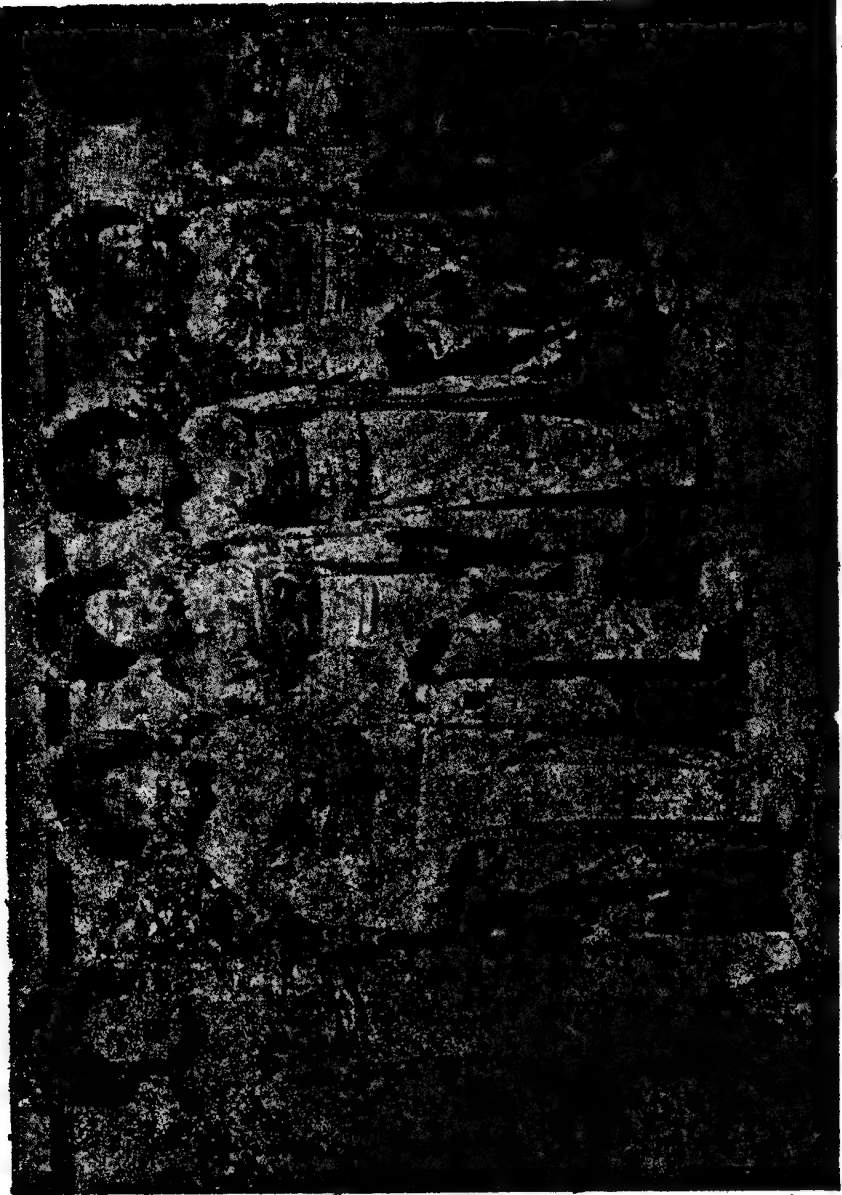
(*) الساموار « السيف » ، واليابان السامورية ، هي اليابان في العهد الذى ساد فيه السيفيون . (المغرب)

الإمبراطورة « كوكن » - في القرن الثامن - كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ في مدارس الأقاليم أو في الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقاناً تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيفيين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولاً لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هي الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة الياباني بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبت هذه هي الفضيلة الرئيسية في التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس في اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التي تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الجزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ماورد في الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته (٨٠).

لم تكن الفضائل الأخرى - فيما عدا الطاعة والولاء - تحتل بينهم مثل المكانة التي تحتلها في أوروبا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها ، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر (٨١) ، لكن كربة واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملاً ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهي قصة « جنجي مونوجاناري » هي عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية في الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات في الأدب الياباني وهي المجموعة في كتاب « صور على الوسادة » لكاتبته « السيدة سي شوناجون » تراها في بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة في الأوضاع الصحيحة التي ينبغي مراعاتها عند اقتراف الخطيئة (٨٢) ، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرهم إلى أمر طبيعي كما ينظرون إلى الجوع والظما ؛ فترى آلاف الرجال - وكثير منهم أزواج محترمون - يحتشدون ليلاً في « يوشى وارا » ، (أى حى الزهر) في طوكيو ؛ ففي ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخصهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن في الليل

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخترت الثياب بيضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أولن ساءت عشيرته منهم (٨٣) .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن (فكله جيشا مكونة من مقطعين : « جى » ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص) وهن شبهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى » (١٧٨٧ - ١٨٣٦) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق (٨٤) ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسليه رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف » (٨٥) ؛ ومنذ ذلك التاريخ عُدَّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر » يملأن جوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق (٨٦) ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسليه فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أبدى « الجيشا » القديمت مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألون ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون « ورد كسب لهن » ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأمراتهن من أنياب الجوع (٨٧) .



قوان حيفا

إن هذه العادات - مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً - لا تختلف في جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا في الصراحة والتهديب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء (٨٨) ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحبون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يأبون الجرى مع دوافع الحب في عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان في وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التي نصادفها في حوادث التاريخ ، وفي الوقائع الخيالية التي وردت في الأدب الياباني ، التي تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آمليين أن يتمتعوا في الآخرة الأبدية بالاتصال الذي حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض (٨٩) ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسي في الشعر الياباني ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصه عميقة على نحو لا يضارِعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،
مما أراه طافياً على بحر « أيسو »
زهرات
أجمعها طاقةً
أقدمها هديةً لحبيبتى (٩٠)

ثم اسمع « تسورا يوكي » العظم يحكى قصة حبه المرفوض في أربعة أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب الياباني :

أنقل ألا شيء وشيك الزوال
مثل زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة
ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة
ولم تعد تتحرك من الريح هبةً (٩١)

الفصل التاسع

القديسون

الدين في اليابان - تحول البوذية - الكهنة - الشداك

إن شعور الولاء الذى يعلن عن نفسه في الوطنية وفي الحب وفي حب الوالدين وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذى لا بد أن يلتبس في الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال في تدينهم - فهم ليسوا كالهندوس في عمق إيمانهم الدينى وشدة انخاسهم في ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسى الكاثوليكية في العصور الوسطى في حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم في عقيدتهم حتى بلغوا في ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الدينى المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة والفلسفة التى تنتهى بهم إلى التناول ، حتى لقد تميزوا بذلك من بنى عمومهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها صحابة قائمة من التشاوم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينية تبعث الغبطة في النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ما كان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصلور كروبها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالحجيم كما آمنت بالجنة - بل آمنت

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغابات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص (يسمونه أوني) له قرون وأنف أفطس ومخالب وأنياب ، ويسكن في مكان مظلم يقع في الشمال الشرقى ، وأنه آناً بعد آناً يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتنعه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم في غذائه مادة البروتين^(٩٢) ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التي جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفي كل مرة يتضون حياتهم في فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة في آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذى يشبه المسيح ؛ وفي أمثال هؤلاء تجدد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحية ؛ كانت الديانة فيها تخلّى المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تنبذى علامتها في لبس النساء للأثواب الحميلة ، وفي انغماس الرجال في ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجاد في عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق في قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ في رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهب ليشبع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن الياباني يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب في البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زن » (أى التأمل) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل في صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ؛ وله أن يختار لطمانينة نفسه مذهب الأرض الطاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا في الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها في حج صبور إلى حيث دير « كوپاسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

يدفن في أرض تقديست بفضل ما فيها من عظام «كوبودايشى» — ذلك العظيم في علمه وفي تدينه وفي فنه، وهو الذى أسس في القرن التاسع مذهب «شنجون» أى مذهب «الكلمة الصادقة» .

وعلى وجه الحملة فالبوذية اليابانية هى من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير ، ولقد غزت اليابان مُسالمَةً ، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً في لاهوتها وفي عداد آلهتها ، لمذاهب «شنتو» وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ «أما تيراسو» وخصص مكان متواضع في المعابد البوذية لضريح «شنتو» وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا في القرون الأولى رجالاً فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة ، وكان لهم أثر عميق في تقدم الآداب والفنون في اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحاتين من الطراز الأول ، كما كان بعضهم علماء ، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى ، فكانت ترحاتهم تلك حافزاً قوياً على التقدم الثقافى في اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً في إفساد الكهنة في العصور المتأخرة ، إذ أصبح منهم كثيرون أميل إلى الكسل والجشع (لاحظ في هذا الصدد الصور الرمزية التى كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش على العاج أو الخشب) ، وبعد بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة (٩٣) ؛ ولما كان الكهنة يهيئون للناس ضرورة هى أولى ضرورات الحياة — وأعنى بها تهئية الأمل الذى يسرى عن النفوس . فقد ازدهرت صناعاتهم حتى في الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين ؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن ، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله (٩٤) ؛ وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل في سن الأربعين يمكنه أن يشتري عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل في سن الخمسين أن يشتري عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

معبد آتدعو له ، وفي سن الستين يستأجر ستين معبداً — وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون في تقواه من نقص (٩٥) (*) ، وكان الرهبان في عهد «توكوجاوا» يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط (**) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان (٩٦) .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ وانجبه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض «مايوشى» و «موتو أورى» فتزعما حركة تدعو إلى إحياء عقيدة «شنتو» ؛ وحاول علماء من أمثال «إشيكاوا» و «أراى هاكوسيكى» أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال «إشيكاوا» في جراءة بأن الأصول الدينية التي تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدونات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهلها من أن هذه الجزر وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التي أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهي ، إن إله هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة (٩٧) ؛ وهكذا بدأت المدنية في اليابان القديمة — كما بدأت في بلاد كثيرة غيرها — بالدين ، وها هي ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(*) يقول مردوخ : « كان الرهبان في دير كيوتو » و « فارا » المظلمين يلبفون ذرّة مجدهم المادى في الأوقات التي كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون في هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء في أمثال هذه الأوقات » (٩٦) .

(**) في سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً للكهنة ، فكان هؤلاء الكهنة يخلقون لهم حواجيمهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستمال ، لأنه منذ عهد «يوشيمتسو» الذي نضرب مثلاً سيئاً في هذا الصدد وفي كثير غيره من الأمور ، والوطا يزاد شيوماً ، خصوصاً في الأديرة ، ولو أنه لم يكن قائماً على الأديرة وخدماً (٩٧) .

الفصل السابع

المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان — ناقد الدين — ديانة العلماء — كايبارا إاكن — في التربية —
في ألوان المتعة — المدارس المتنافسة — سينوزا ياباني — إيتو جنساي — إيتو توجاي —
أوجيرو سوارى — حرب العلماء — مايوشى — موتو أوى

جاءت الفلسفة — كما جاء الدين — إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن
البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها في « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »
بستمائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية في اليابان — متخذة صورة
المذهب الكونفوشيوسى — بما يقرب من أربعمائة عام بعد أن أفاضت الصين
على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ ففي نحو منتصف القرن السادس عشر ،
ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوجيو اراسيجوا »
ولم يرضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظماء
في الصين ، فقرر أن يرحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين
محرمًا في سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر
في سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة في
نُزُل في الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً
صينياً عن كونفوشيوس ؛ فكم كانت غبطة « سيجوا » حين علم أن الكتاب
من تأليف « شو هسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلاً : « هذا
هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبت يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل
على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة
الكونفوشيوسية ، وانغمس في تتبع ما في هذه الكتب من مجادلات ،

حتى نسي رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحي أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده للفكر الديوى ؛ وسمع « أياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سيجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التى تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه أثر البقاء فى مكانه الهادئ الذى يدرس فيه ، وأرسل بدلا عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب الممتاز فى عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطلق بابيه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين فى كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل فى سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب^(١٠٠) ، غير أن الأمر حُلَّتْ عقدته بموت « سيجوا » موتاً مفاجئاً (سنة ١٦١٩) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذى أرسله إلى « أياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزرَّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذى مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التى يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلاً لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » فى سنة ١٦٣٠ ، وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التى أشاعها حكيم « شانتونج » فى أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحى خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت فى عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون في الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان مخفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبنائك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه « (١٠١) » ؛ وكان « هاياشى » ينعم في شيخوخته بشهرة هائلة ، حين شبت النار الكبرى في طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه ينذرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه ألسنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ في كتابه ؛ وقضى ليلته تلك - كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد - قضاها في العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

رغوضت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هیأت لها في العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسة ؛ وذلك هو « موروكيوسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ ففي صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يودى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سينوزا (*) .

سأنهض من نومي كل صباح في الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعي كل مساء في الساعة الثانية عشرة

ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير ذلك من ظروف القاهرة ...

لن أنطق بباطل

سأجتنب الألفاظ التي لا تغني شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث
إلى من هم دوني

سأكون معتدلاً في طعامي وشرابي

وإذا اشتعلت في الشهوات ، سأقضي عليها فوراً ، دون أن أعينها قط
على التزايد

ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدي كل ما يصرفني
عن حصر انتباهي ، وسأقاوم في نفسي العجلة الزائدة .

سأسعى إلى تثقيف نفسي بنفسي ، ولن أسمح للرغبة في الشهرة أو في
الكسب أن تحدث في عقلي اضطراباً .

إنني سأنقش هذه القواعد في صفحة قلبي ، وسأحاول أن أتبعها .

وإنني لأشهد الآلهة على ما أقول (١٠٢)

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التي نعهدنا
في رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « بلجيت » ،
فوجه نفسه وجهة تسابير العالم في مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى
يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلاً باتصاله بالناس ؛
وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛
أما إن اعتزل كل شيء وكل إنسان ، فلأنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ...
إن طريق الحكماء ليس منفصلاً عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن
البوذيين يستحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين
المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من
أنفسهم إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة في العالم الآخر . لا تظنوا
أن الله بعيد عنكم ، بل ابحثوا عنه في قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله (١٠٣) .

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسيين اليابانيين القدماى رجل لا يسلكونه عادة فى عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته فى عبارة رشيقة ، فأحسن الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً فى جماعة الأدباء ، وذلك هو « كاييارا إكِن » الذى كان ابن طيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته فى الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما فى ذلك كثير من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة فى أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية (كما كانت عادة زملائه الفلاسفة) بل كتبها باليابانية السهلة التى يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له — إلى جانب الغرور الذى تراه عند كل كاتب — تواضع كالذى تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بحذاء الساحل اليابانى ، تعهد لزملائه فى السفر أن يحاضرهم فى الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذى بدء بما عرف عن اليابانيين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ماكاد يمضى المتكلم فى حديثه قليلا ، حتى وجد السامعون أن كلامه بيعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساس يهديه إلى التمييز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد « راح هذا السامع الواحد يتبع البحث بتركيز عجيب فى انتباهه ، حتى سأل المحاضر حين فرغ من محاضرتة ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كاييارا إكِن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أويزيد ، يحاول أن يلقي الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى فى عصره (١٠٤) .

كانت فلسفة « إكِن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « ك أونج » منه إذ

حصر نفسه في حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن حق الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك في وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم في الوقت الذي تراه فيه يقترفون الموبقات »^(١٠٥) ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملاً على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذي يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير في كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نعمة الزمن الذي نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع في المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالاً صادقين قبل أن نكون رجالاً عالمين ... إن دراسة الأخلاق التي كانت تُعَدُّ عماد التعليم في مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً في مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون في صالحهم أن يتفوقوا بمجهودهم في الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذي يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخادمه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيقي الذي حدا بالناس ألا يقدرُوا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء في تعاليم الحكماء »^(١٠٦) .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقي في وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائي أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لفنكم أبوكم درساً ، فلا تزوروا عنه ، بل اصغوا إلى ما يقول ؛ قد

تظنون أن تقاليد أسرتكم أمر سخيف ، ومع ذلك فلا تخطموها ، لأنها تجسيد
لحكمة آبائكم» (٧٠١) .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه «أونا ديكاكو» ومعناه
«الحكمة العظمى للنساء» لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعي قوى على
مركز المرأة في اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يلمس الخطيئة
في كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربي أن يعلمنا كيف نستمتع
باليئة التي نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك اليئة وأن نتحكم فيها (إذا
استطعنا) :

«لاتدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا للحماقة
الآخرين أن تنال من أنفسكم تعذيباً . . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق
منذ أول خلقها . . . فلا ينبغي إذن أن نغم أنفسنا ، أو أن نضيع أسباب متعتنا ،
حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثريين فيتجاهلوا خير
مجهوداتنا في سبيل إسعادهم . . . إن «ساكي» (نوع من الخمر) هو هبة السماء
الرائحة ، فهي توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهي كذلك تنعش
الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق الهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان
وأصدقائه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف في شربها يفقد
احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . .
اشربوا «الساكي» بالمقدار الكافي لإنعاش نفوسكم ثم لا زيادة ، وبذلك
يمكنكم أن تتمتعوا بروية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن
تسرف في الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التي وهبها لك
السماء» (١٠٨)

ولقد وجد - كما وجد غيره من سائر الفلاسفة - أن الطبيعة هي آخر
موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

«لواننا جعلنا قلوبنا معين النعيم . وأعينا وآذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا
سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهينا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً (ملياً) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغطوا الأغنياء على رفاهية عيشتهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة في تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... ففي لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحي ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج في السقوط ، وينهض الإنسان من نومه في الصباح التالي ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة في الأشجار التي كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذي يجدد لنا القوة والنشاط .

إنني أحب الزهر ، فأنهض من نومي مبكراً
وأحب القمر ، فأوى إلى مخدعي متأخراً ...
إن الناس يخيثون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة
أما القمر فباق على طول العصر (١٠٩)

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفي في اليابان أشد منه في الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشى » التي كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إاكن » ، التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسى » لأنها اتبعت طريقته في تفسير الكتب الصينية التي تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية في التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هي مدرسة « أويوى » التي كان على رأسها « وانج يانج منج » (*) الذي عرفه « نيبون » باسم « أويوى »

(*) راجع ما جاء عنه في هذا الجزء الخاص بالمدينة في الصين من هذه السلسلة .

فلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة «أويوى» اقتفوا أثر «وانج» في استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عملوا في ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول «ناكاي توجو» (١٦٠٨ - ٤٨) : «لقد لبثت أعواماً طويلاً أومن إيماناً قوياً في «شوشى» حتى شامت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات «أويوى» ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدياء» (١١٠) ، وعلى ذلك أخذ «ناكاي» على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من «كى» و«رى» - أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ، والله ، وهذه الوحدة شىء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه (١١١) ، فقد جرى «ناكاي» مجرى «سينوزا» و«وانج يانج منج» والفلاسفة المدرسين فى أوروبا ، فى قبوله لهذا القانون الكونى بشىء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه «سينوزا» شياً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الخلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

«إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلاً آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد» (١١٢) .

كان «ناكاي» رجلاً له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويوى » ، ثم تجاوز حدود الميثافيزيقا وأوغل في السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيفين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العقين في الإنسان ، باعتبارهما عضوين يتفعا الفلاسفة بصفة خاصة في الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقي له من سنين في غمرة الغابات (١١٣) ، وفي سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم يحرم المضي في تعليم فلسفة « أويوى » ، وكان العقل الياباني من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويوى » منذ ذلك الحين ، فاندست في عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً في القانون العسكري ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من متناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسألة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال ٥

ولما تقدم البحث العلمى في اليابان ، بحيث صار في مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس في أصوله إلا في شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوچنسى » و « أوجيوسوراي » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر الياباني ، التي أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « لك أونج » العظيم اتصالاً مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوچنسى » لتتفق معه في تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته في عالم نظرى مجرد ، وتنبت له بأنه سيموت فقيراً وأنبأته : « بأن البحث العلمى من خصائص أهل الصين ، أما في اليابان فليس البحث العلمى بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من يبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طيباً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادي جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتبس مكاناً معزولاً يعيش فيه ليتابع

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيما حتى لقد ظنه الناس أحيانا أميرا ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ ياباني :

إن « جنسى » كان فقيرا معدما ، بلغ من الفقر حداً أعجزه في نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذي يصنعه الناس في بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان لزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءت زوجته وجئت على ركبتيها أمامه وقالت : « سأودى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئا لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا « جنسو » لا يفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الجار على ما يأكونه من كعك الأرز ، وإننى أؤنبه على ذلك ، لكن قلبي ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين » لكن جنسى مضى منكبا على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : يبعي هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز » (١٠٤) .

أنشأ « جنسى » في كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاما ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب في الفلسفة وكان يتحدث آنأ بعد آن في الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى . حتى ، تتغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

« إن ما لا ينفع في حكم الدولة ، أو في تفسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لا غناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغي أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها في حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المأوفة ممتازة بحسبها ، ولن نجد في العالم ما يفوقها حسناً » (١١٥) .

وبعد موت « چنسى » مضى ولده « إيتو توجاى » فى واصله مدرسته وعمله ؛ وكان « توجاى » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسب اسمه بمجرد موته إلا بأحد اسمين ، فلما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فى تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكى يلقى اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ »^(١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « مولير » بالفضائل التى تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجاى » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أى فلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد » الذى نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فى أخطاء الآخرين ...

ولم يهتم بشيء إلا بالكتب

وكانت حياته خلواً من الحوادث^(١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين ، هو « أوجيو سوراي » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جنو — أول أباطرة اليابان — لم يظهر من يوازىنى إلا نفر قليل » وهو على تقيض « توجاى » فى أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأل سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحب إلى من أكل الفول المحروق ونقد عظماء اليابان » ويقول « ناميكأوا تنجين » : « إن سوراي رجل جد عظيم ، لكنه يظن أنه يعلم كل ما يمكن علمه ، وهذه عادة سيئة »^(١١٨) ، وكان فى مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً — ويذكر نفسه بينهم صراحة — قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شيء لا بد من قوله ، فقد قاله

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس^(١١٩)، واثارت في وجهه فئة «السيافين» وفئة العلماء، لكن الحاكم العسكري المصلح «يوشيمونى» أعجبه فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية، وقد أقام «سوراي» منبره في «يدو» وراح يضحك ويسخر من «جنسى» الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه، فما أشبهه في ذلك بـ «هسون تسى» حين عارض النزعة العاطفية في «موتى» أو بـ «هيز» حين فند «روسو» قبل أن يأتى «روسو» إلى عالم الوجود، وقال: «سوراي» إن الإنسان — على نقيض ما ظنه «جنسى» — شرير بطبعه، يختطف كل ما تقع عليه يده، ولا يجعل منه مواطناً مقبولا إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين، والتربية التى لا تلتين في معاملته:

«تتور في الإنسان شهواته بمجرد ولادته، فإذا عجز ناعن تحقيق تلك الشهوات في أنفسنا — وهى شهوات لا حد لها — ينشأ النزاع، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة في السلوك، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتازت بذكائها، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان (١٢٠)».

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم «سوراي»، فهبط الفكر اليابانى في القرن الذى تلاه، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس، وضاع أباديد في حرب أراقت المداد بين وثنى الصين وموثنى اليابان، وفي هذه الحرب التى شنها الأقدمون على المحدثين، كتب النصر للمحدثين، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم، فتفوقوا في ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء «واسمها كانجا كوشا» تسمى بلادهم اليابان — وهى وطنها — قطراً هجياً،

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها في الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان (واسم جماعتهم واجا كوشا) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضتهم لأنه موقف يؤدي إلى إشاعة الجهل ونبد الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هي من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشي» أهل الصين قائلاً إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة في الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد في الفضيلة ولا في العقل (*) .

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشي » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً في كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، بشرح فيها الـ « جوجيكي » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » - وهي المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح بعنوانه « كوجيكي دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صيني في اليابان أو خارج اليابان ، واستمسك استمسكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهي الذي نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين في اليابان - رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا - شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلاً من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

(*) النبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشي » كما بسطها « سيرا . ساتو » : « لما كانت ميول الناس في العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضروري أن يتخذوا تشرعاً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضروري في تلك الأيام أن يكون للناس مذهب في الصواب والخطأ ، أما أهل الصين ، فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين في الظاهر وحده وكانت أفعالهم الشريرة من الفداحة بحيث وقعت الجماعة في حالة من الفوضى ، ولأن اليابانيين كانوا على استقامة في الخلق ، فقد استنفذوا عن التعلم (١٢١) .

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هي التي ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً » (١٢٢) ، واستأنف تلميذه « هيراتا » — بعد موت موتو أورى — سبيل الحاجة في الموضوع فقال :

« إنه لما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التي تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فين الشعب الياباني وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف في النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف في الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذي جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهي ، وجميعهم ولدوا في اليابان ، فالإباني هي موطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هذا النبأ ، فالكوربيون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزاناجي » و « إيزانامي » ، ولا كانت المنشأ الذي ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انخطاطهم عنا » (١٢٣) .

هؤلاء هم الناس ، وتلك هي الآراء ، التي كونت حركة « سونوجوإي » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فكانت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر الياباني أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعبد السلطان والسيادة « للبيت الإلهي » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً في القرن العشرين ، إذ أخذت تغذي تلك الوطنية المستقلة التي لن تطمئن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس في بلاد الشرق التي تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .

الباب الثالثون

الفكر والفن في اليابان القديمة

الفصل الأول

اللغة والتعليم

الغة - الكتابة - التعلم

كان اليابانيون قد استعاروا طرائق الكتابة وأساليب التعليم من أولئك الصينيين الذين جعلوا يهتمونهم بالهمجية كما رأيت ؛ لكن اللغة كانت يابانية خالصة ، وأرجح الظن أنها كانت لغة منغولية قريبة الشبه باللغة الكورية ، لكنها لم تكن مشتقة من اللغة الكورية أو غيرها مما نعرف من لغات ، اشتقاقاً يقوم على صحته البرهان القاطع واللغة اليابانية تختلف عن اللغة الصينية بنوع خاص في كثرة مقاطعها واتصال أجزاءها رغم بساطتها ؛ فليس فيها أحرف حلقية ولا أحرف تخرج مع هواء التنفس ولا سواكن في أواخر الكلمات (ما عدا حرف ن) وتكاد كل حروف المد فيها أن تكون منغمّة طويلة ، ونحوها كذلك طبعي وسهل ، فقد استغنت في الأسماء عن التمييز العددي بين المفرد والجمع ، كما استغنت عن التمييز الجنسي بين المذكر والمؤنث ؛ كذلك استغنت في الصفات عن درجات التفضيل ، وفي الأمثال استغنت عن التصارييف التي تدل على ضمير من قام بالفعل ؛ وضمائر المتكلم والمخاطب والغائب فيها قليلة العدد ، وليس فيها أسماء للوصول على الإطلاق ؛ لكنها من جهة أخرى تحتوي على تصارييف تتغير بها الصفات والأفعال تبعاً للنفي ولصيغة

الفعل في حالة الأمر مثلاً أو غيره ، وهم يستعملون بدل أحرف الجر التي تسبق الكلمات المجرورة ، أحرفاً تأتي بعد الكلمات لتحديد المقطع الأخير من الكلمة ، وفي ذلك ما فيه من مشقة وعناء ، وحلت عندهم عبارات تكريرية معقدة ، مثل « خادمك المطيع » و « سعادتكم » محل ضمائر المتكلم والمخاطب .

وقد استغنت اللغة — فيما يظهر — حتى عن الكتابة ، إلى أن جاءها الكوريون والصينيون بهذا الفن في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، ومنذ ذلك الحين ، اكتفى اليابانيون مدى مئات من السنين بطريقة الكتابة التي شاعت في « المملكة الوسطى » ليبعدوا بها عن كلامهم الذي يشبه في جماله لغة الإيطاليين ؛ ولما كان حتماً عليهم أن يستخدموا حرفاً كاملاً من حروف الخط الصيني ليدل على كل مقطع من كل كلمة يابانية ، فقد أصبحت الكتابة اليابانية في عصر « نارا » أعسر ضروب الكتابة التي عرفها الإنسان تقريباً ؛ ثم حدث في القرن التاسع أن سن قانون يعمل على الاقتصاد في هذا الاتجاه ، بأن يحدد كثيراً من الإشكالات اللغوية ، فأراح هذا القانون أهل اليابان بما قدمه إليهم من صور الكتابة المبسطة ، إذ قدم إليهم صورتين كل منهما يستعمل حرفاً صينياً — بعد اختصاره في صورة خطية منحنية — يمثل مقطعاً من المقاطع السبعة والأربعين التي يتألف الكلام المنطوق عند اليابانيين ، وهذه الأشكال التي تمثل السبعة والأربعين مقطعاً ، حلت عندهم محل أحرف الهجاء (*) ولما كان شطر كبير من الأدب الياباني مكتوباً بالصينية ، ومعظم بقيته ليس مكتوباً بالكتابة المقطعية الشائعة ، بل هو مزيج من الأحرف الصينية وأحرف الهجاء اليابانية ، كان من المتعذر إلا على القليلين من العلماء العربيين أن يتمكنوا من الأدب الياباني في أصوله ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح علمنا بالأدب الياباني

(*) بسط الخط الكاتاكانى هذه الرموز المقطعية فجعلها خطوطاً مستقيمة كالتي تراها في بعض حروف الطباعة وفي كتابة الإعلانات ، وفي اللافتات المضاءة في اليابان الحديثة (٢) .

لا يتجاوز قطعاً متاثرة من هنا وهناك ، ولذا فهو علم ينجدنا عن الأصل ، ويستحيل أن يكون حكمنا على ذلك الأدب ذا قيمة كبيرة ، ولما وجد اليسوعيون أن حوائل اللغة تقف في وجوههم سدوداً منيعة ، قرروا أن لغة تلك الجزر قد صاغها الشيطان لمنع نشر تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) في بلاد اليابان(*) (٢) .

لبثت الكتابة أمداً طويلاً بمثابة الترف يستمتع به أبناء الطبقات الرفيعة ، ولم يبذل أى مجهود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر في سبيل نشرها بين طبقات الشعب ؛ ففي عصر « كيوتو » أقام الأغنياء مدارس لأبنائهم ، كما أنشأ الإمبراطوران « تنشى » و « مومو » في بداية القرن الثامن في كيوتو ، أول جامعة يابانية ؛ ثم نشأت مجموعة من المدارس الإقليمية شيئاً فشيئاً ، تحت رقابة الحكومة ، كان من حق متخرجها أن يلتحقوا بالجامعة ، ثم كان من حق من يخرج في الجامعة بعد اجتياز الامتحان المطلوب ، أن يشغل مناصب الدولة ؛ لكن جاءت الحرب الأهلية في الشطر الأول من العهد الإقطاعي ، فأوقفت هذا التقدم في ميدان التعليم ؛ وأهملت اليابان فنون العقل حتى أسعفتها الحكومة العسكرية التي قامت عليها أسرة « توكوجاوا » بأن أعادت السلام وشجعت العلم والأدب ، وقد عدها « أياسو » سبة فظيعة أن يجد تسعين في كل مائة من طائفة « السيفين » لا يعرفون القراءة أو الكتابة(٥) وفي سنة ١٦٣٠ ، أنشأ

(*) جاءت الطباعة - كما جاءت الكتابة - من الصين ، باعتبارها جزءاً من التراث البوذي ؛ وأقدم ما بقى لنا من أمثلة الطباعة في العالم ، طلاس بوذية طبعت بأحرف ثابتة بأمر الإمبراطورة « شوتوكوا » في سنة ٧٧ ميلادية(٣) ثم جاءت الأحرف الممكنة تحريكها من كوريا حول عام ١٥٩٦ ، لكن كثرة النفقات التي يقتضيها طبع لغة لم تزل مؤلفة من آلاف الأحرف ؛ حال دون انتشار استعمال تلك الأحرف المتحركة ، حتى كانت النهضة (سنة ١٨٥٨) التي فتحت الأبواب للنفوذ الأوروبي وإلى يومنا هذا ، ترى الجريدة اليابانية تتطلب مجموعة من بضعة آلاف من الأحرف(٤) ورغم هذه الصعاب ، فإن الطباعة اليابانية من أجل ضرور الطباعة في عصرنا هذا .

« هياشي رازان » في « ييدو » مدرسة تخرج المعلمين في إدارة البلاد وفي الفلسفة الكونفوشيوسية ، ولقد تطورت هذه المدرسة فيما بعد وأصبحت هي جامعة طوكيو ؛ وكذلك أسس « كومازاوا » سنة ١٦٦٦ في « شيزوتاني » أول كلية في الأقاليم ، وأجازت الحكومة للمعلمين أن يلبسوا السيوف ، فينافسوا طائفة « السيفين » في منزلتهم الاجتماعية ، وبهذا شجعت طلاب العلم والباحثين والكهنة أن يقيموا مدارس خاصة في المنازل والمعابد لتعلم الناس تعليماً أولياً ؛ وبلغ هذا الضرب من المدارس ثمانمائة سنة ١٧٥٠ ، يتعلم فيها ما يقرب من أربعين ألفاً من الطلاب ، وكانت كل هذه المعاهد من أجل أبناء « السيفين » أما التجار والفلاحون ، فكان لابد لهم أن يقنعوا بمحاضرات عامة ، ولم يكن يتعلم عن النساء على نحو منظم إلا الفتيات ؛ ولم يتسع التعليم بحيث يشمل الجميع إلا حين مست الضرورة ودعت الحاجة بتأثير الحياة الصناعية (٦) وهي في ذلك شبيهة بأوروبا .

الفصل الثانی

الشعر

الـ « مانیوشو » - الـ « كوكنشو » - مميزات الشعر الياباني -
أمثلة - لعبة الشعر - مقامرو الـ « هوكا »

أقدم ما وصل إلينا من الأدب الياباني هو الشعر ، وأقدم الشعر الياباني هو
خير شعر اليابان إطلاقاً في رأى أصحاب العلم من أهل اليابان أنفسهم ؛ ومن
أقدم وأشهر الكتب اليابانية ، كتاب الـ « مانیوشو » ومعناها « كتاب العشرة
الآلاف ورقة » وهو عشرون مجلداً ، جمع فيها ناشران الكتاب أربعة آلاف
وخمسمائة قصيدة ، نظمها الشعراء خلال الأربعة القرون السالفة ، وفيها تجدد على
الأخص شعر « هيتومارو » وشعر « أكاهيتو » وهما الشاعران الرئيسيان اللذان
ازدهر فيهما الشعر في عصر « نارا » ومن شعر « هيتومارو » هذه الأسطر
الموجزة التالية التي كتبها يرثى بها حبيبته حين ماتت وتساعد الدخان من
جثمانها المحترق إلى شعاب التلال :

أواه ؟ أهذه السحابة هى حبيبتي ؟

هذه السحابة التى تجوب فى الوهد العميق

الذى يتخلل جبل هاتسوزو المنعزل ؟

ولقد حاول الإمبراطور « دايجو » محاولة أخرى ليحفظ الشعر الياباني
من أيدي الفناء ، فجمع ألفاً ومائة قصيدة نُظمت خلال القرن والنصف قرن
الماضيين ؛ فجمعها في ديوان مشترك أطلق عليه اسم « كوكنشو » ومعناها
« قصائد قديمة وحديثة وكان مساعده الأيمن في هذا العمل « تسورا يوكي »
الشاعر الظالم الذى كتب مقدمة للديوان ، هى لنا أمتع من المقطوعات التى جاء

لنا بها من ربة الشعر عندهم ، التي توجز القول لمجازاً - قال في تلك المقدمة :
 « الشعر في اليابان كالبنرة ، تنبت من قلب الإنسان فتورق من اللغة أوراقاً
 لاحصر لعددها . . . ففي هذا العالم المليء بالأشياء ، ترى الإنسان مجاهداً في
 سبيل ألفاظ يعبر بها عن الانطباع الذي تركته المراثيات والمسموعات في
 قلبه . . . وهكذا حدث لقلب الإنسان أن يجد التعبير المنشود في ألفاظ تمتعه
 وجدها في جمال الزهر ، وفي إعجابه بتغريد الطير ، وفي حسن استقباله
 للضباب الذي يغسل بنداه سهول الأرض ، كما وجدها في حزنه الذي شاطر به
 العطف على ندى الصباح السريع الزوال . . . لقد اهتز الشعراء إلى قرص الشعر
 كلما رأوا البطاح بيضاء برذاذ الثلج الذي يتناثر من زهرات الكريز الساقطة في
 أصباح الربيع ، أو سمعوا في أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهي تتساقط
 أو كلما رأوا مشاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث
 عاماً بعد عام . . . أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى الزائلة ترتعش
 على الكلاؤ المزدان بلائته » (٨) .

لقد أجاد « تسوزايوكي » التعبير عن الموضوع الذي لم يفتأ الشعر الياباني
 يتناوله - وهو ما تبديه الطبيعة من أوجه وحالات ، ومن ازدهار وذبول ،
 الطبيعة في تلك الجزر التي جعلتها البراكين مشهداً للروائع ، وجعلها المطر
 الغزير دائمة الإيتاع ، وإن الشعراء في اليابان يمرحون فيما لم تلكه الألسن
 من جوانب الحقول والغابات والبحر - فصغار السمك تثر الرذاذ وهي
 تتقلب في مجارى الجبال ، والضفادع تقفز فجأة من البرك الساكنة ، الشيطان
 تخلو من المد والجزر والتلال تقطعها كسف الضباب الذي مسكن بلا حراك ،
 وقطرة المطر تأوى كأنها الجواهر المكونة في ثنية نجم من أنجم الكلاؤ ، وكثيراً
 ما يمزج شعراء اليابان في شعرهم بين أغاني الحب وأشعار عبادتهم للطبيعة
 النامية ، أو تراهم يرثون رثاء مرأ لما يروونه في الازدهار والحب والحياة من
 قصر الأمد ، والعجيب أن هذه الأمة التي تموج بالمقاتلين ، قلما تتغنى في
 شعرها بالقتال ، بل تراهم لا يثيرون الحماسة في القلوب إلا بترانيم يترنمون بها
 (٧ - ج ٥ - مجلد ١)

حيناً بعد حين ، وكانت الكثرة الغالبة من القصائد قصيرة بعد عهد «نارا» فهذه مجموعة «كوكنشو» التي تحتوى ألفاً ومائة قصيدة ، لا تجد إلا خمساً منها فقط صيغت في صورة الـ «تانكا» — وهي صورة تكون فيها القصيدة مؤلفة من خمسة أبيات ، أولها من خمسة مقاطع وثانيها من سبع ، وثالثها من خمس ، ورابعها من سبع ، وخامسها من سبع كذلك وليس في هذه القصائد قافية ، ذلك لأن ألفاظ اللغة اليابانية كلها تقريباً تنتهى بحرف مد ، فلا تترك مجال الاختيار أمام الشاعر من الاتساع بحيث ينتقى مختلف القوافي ، وكذلك ليس في شعرهم تفعيلات ولا نغم ولا مقدار معين من الكلمات في البيت الواحد ، لكنك تجد فيه كثيراً من الأعيب اللغة ، فتراهم مثلاً يضيفون مقاطع في أوائل الكلمات لا يكون لها معنى سوى ما تضيفه إلى الكلام من تنعيم ، ويستهلون قصائدهم بأبيات تعمل على تكملة الصورة أكثر مما تؤدي إلى تمام الفكرة ، ويربطون العبارات بألفاظ تحمل معنيين على نحو يثير في القارئ الدهشة والانتباه ، ولقد خلع الزمن ثوباً من الجلال على أمثال هذه الأعيب اللفظية عند اليابانيين ، كما هي الحال في توافق اللفظ والمعنى وفي القافية عند الإنجليز ، وأشعارهم محبة لدى طبقات الشعب ، ومع ذلك فلا يؤدي ذلك بالشاعر إلى السوقية في شعره ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ تميل هذه القصائد الكلاسيكية إلى الارستقراطية في فكرها ولفظها ، فلأنها ولدت في جو تشيع فيه أبهة القصور ، تراها مصبوغة صياغة روعى فيها الإحكام على نحو يكاد يجعل منها تعبيراً عن الأنفة والكبرياء ، وهذه القصائد تنشده كمال اللفظ والصياغة أكثر مما تبحث عن جودة المعنى ، وهي تكسب العاطفة أكثر مما تعبر عنها ، وهي في كبريائها أرفع من أن تنطب القول وتطيل ، فلن تجد أرباب القلم في أى بلد من بلاد الأرض سوى اليابان ، لهم ما لأدباء اليابان من تحفظ في القول يعترفون به اعترافاً صريحاً ، فكأنما أراد شعراء اليابان أن يكفروا بتواضعهم في القول عما زل فيه مؤرخوها من تهويل في الفخر بأنفسهم ،

فيقول اليابانيون إنك ذا كتبت ثلاث صفحات عن الرياح الغربية ، زلت في ثرثرة السوق ، فالفنان الأصيل لا ينبغي له أن يفكر القارئ ، بل وأجبه أن يغريه حتى يستثير فيه نشاط التفكير لنفسه ، فلا بد للفنان أن يبحث وأن يجد صورة حسية جديدة تثير في القارئ كل الأفكار وكل المشاعر التي يصير الشعر الغربي على بسطها في تفصيلاتها ، فكل قصيدة عند الياباني لا بد أن تكون مجالا هادئا لوحى اللحظة التي كتبت فيها .

وعلى ذلك فإننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا في هذه الدواوين أو في مجموعة المختارات التي تسمى « هيا كونن إشو » ومعناها « أشعار متفرقة لمائة شاعر » والتي هي شبيهة بالديوان الذي يجمع مختارات من الشعر الإنجليزي ويطلق عليه « الكنز الذهبي » - أقول إننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا في هذه المجموعات عن قصيدة فيها حماسة أو عن ملحمة فيها حروب ، أو عن مطولات غنائية ، فهو لاء الشعراء إنما أرادوا أن يخلدوا أنفسهم بسطر واحد يقول الواحد منهم ، فها هو ذا « سايجيوهوشي » قد فقد أعز أصدقائه ، وانقلب راهباً ووجد في أضرحة « إيسى » ما كانت تنشده نفسه المتصوفة من عزاء ، فراح يقرض الشعر في عزيزه الفقيد ، لكنه لم يكتب قصيدة مثل « أدونيس » أو حتى « ليسيداس » (وهما قصيدتان من الشعر الإنجليزي) بل اكتفى بهذه الأسطر البسيطة :

ما هذا الذي

يسكن هاهنا

لست أدري

لكن قلبي مليء بنشوة الرضى

والدموع تنهمر من عيني (٩)

ولما فقدت «السيدة كاجا نوشيو» زوجها لم تكتب فيه سوى هذه
السطور :

إن كل ما يلدو من أشياء

ليست سوى

حلم يطوف بحالم

لانى لأنام ... وإنى لأستيقظ ...

فما أفسح السرير بغير زوج في جوارى^(١٠)

وبعدئذ فقدت ابنها ، فأضافت إلى القصيدة بيتين آخرين :

كم طاف اليوم

هذا الباسل الذى يقتنص اليعاسيب^(١١)

وبات نظم المقطوعات الشعرية (ويسمونها تانكات) لعبة أرسقراطية
شاعت فى الدوائر الإمبراطورية فى «نارا» و «كيوتو» حتى ليستطيع الناظم
أن يشتري عفة المرأة بواحد وثلاثين مقطعاً من الشعر يجيد صياغتها ، كما كانت
عفة المرأة تباع فى الهند القديمة بفيل^(١٢) ، وكان من المؤلف أن يحى الإمبراطور
ضيوفه بكلمات يعطيها لهم مما يصلح لصياغة الشعر^(١٣) ، ونرى فى أدب ذلك
العصر إشارات ترد هنا وهناك ، تدل على أن جماعة من الناس يتطارحون الشعر
أو ينشدونه وهم سائرون فى الطريق^(١٤) وكان الإمبراطور - فى أوج العصر
الهيوى - ينظم مباريات فى الشعر يشترك فيها ما يقرب من ألف وخمسمائة
شاعر يتنافسون أمام محكمين من العلماء ، ليحكموا أبهم أفحل فى صياغة
الموجزات الشعرية ، بل أنشئ فى سنة ٩٥١ مكتب خاص للشعر ، يشرف
على تنظيم هذه المباريات ، والقصائد الراجعة فى كل مباراة تحفظ فى دار
المحفوظات .

وجاء القرن السادس عشر ، فأحس الشعر اليابانى عندئذ أنه يسرف فى
طول القصائد ، وصمم على تقصير «التانكات» - وكانت «التانكا»

فى الأصل تكلمة يضيفها شخص إلى قصيدة بدأها شخص آخر - فأصبحت بعد التقصير ما يسمونه « هوكو » أى « العبارة الواحدة » تتألف من ثلاثة أسطر تتكون أولها من خمسة مقاطع ، وثانيها من سبعة ، وثالثها من خمسة ، أى أن مجموعة المقاطع تكون سبعة عشر مقطعاً ، وكان نظم القصائد من نوع « الهوكو » هو البدع الشائع فى عصر « جنروكو » (١٦٨٨ - ١٧٠٤) ، ثم بات البدع عندهم شغفاً بلغ حد الهوس ، ذلك لأن الشعب اليابانى شبيه بالشعب الأمريكى فى شدة حساسيته العاطفية العقلية التى تسبب سرعة القلب فى الأنماط الفكرية ، وكنت ترى الرجال والنساء ، والتجار والحند ، والصناع والفلاحين ، يهملون شئون الحياة اليومية ليشغلوا بصياغة شعرية موجزة من نوع « الهوكو » يصوغونها فى لحظة حين يُطلب إليهم ذلك ، ولما كان اليابانيون مولعين بالمقامرة فقد راحوا يراهنون بمبالغ جسيمة من المال فى مباريات تقام لنظم قصائد « الهوكو » حتى لقد خصّص بعض المغامرين فى ميدان الأعمال أنفسهم لإقامة أمثال هذه المباريات يجعلونها مرتزقاً لهم ، فكانوا يحشدون كل يوم آلاف الناس المعجبين بهذا الضرب من التنافس ، ولذلك اضطرت الحكومة آخر الأمر أن تقاوم هذه الحلقات الشعرية ، وأن تمنع هذا الفن المأجور الجديد^(١٥) ، وأنبغ من أجاد الشعر من نوع الهوكو هو « ماتسورا باشو » (١٦٤٣ - ٩٤) الذى كان مولده - فى رأى بونى نوجشى - « أعظم حادثة فى تاريخ اليابان »^(١٦) ، وكان « باشو » هذا سيافاً ناشئاً ، مات مولاه وأستاذه ، فكان لموته أعمق الأثر فى نفسه بحيث اعتزل حياة القصر ، وزهد فى لذائذ الجسد جميعاً ، وراح يضرب فى فجاج الأرض على غير هدى ، مضكراً ، معلماً ، وعبر عن فلسفته الهادئة فى تنف من شعر الطبيعة الذى ينزل من ذواقه الأدب فى اليابان منزلة رفيعة لأنه يضرب أروع الأمثلة للكلام كيف يوحى بالمعانى رغم إيجازه الشديد ، ومن قوله :

البركة القديمة
وصوت الضفدعة ونهى تثب في الماء

ومن قوله أيضاً :

ساق من حشيش حَطَّ عليه
اليعسوب محاولاً أن يضيئه (١٧) :

الفصل الثالث

النثر

(١) القصص

السيدة موراساكي - قصة جنجى - امتيازها - القصص الياباني في
العصر المتأخر - كاتب فكه

لقد كانت القصائد اليابانية أشد إيجازاً من أن تصادف إعجاباً عند العقل الغربى ، فلنا أن نعزى أنفسنا بالقصة اليابانية ، إذ قد تبلغ روائع القصص عندهم عشرين جزءاً ، بل قد تبلغ أحياناً ثلاثين^(١٨) ، وأرفع هذه القصص مكانة هي قصة « جنجى مونوجاتارى » (ومعناها الحرفى والصحيح هو ثروة تدور حول جنجى) فهذه القصة فى إحدى طبعاتها تملأ أربعة آلاف ومائتين وأربعاً وثلاثين صفحة^(١٩) ، وألفت هذه القصة الممتعة حوالى سنة ١٠٠١ ميلادية ، ألّفها « السيدة موراساكي نوشيكىو » وهى من قبيلة فوجيوارا العريقة ، وقد تزوجت من رجل من هذه القبيلة عينها ، لكنه مات عنها فخلفها أرملة بعد الزواج بأربعة أعوام ، فجعلت تُسرّى عن نفسها بتأليف قصة تاريخية فى أربعة وخمسين جزءاً ، وبعد أن استنفدت كل ما كان لديها من ورق ، سرقت أوراق « السترات » البوذية المقدسة من معابدها ، واستخدمتها ورقاً لمخطوط قصتها^(٢٠) ، فحتى الورق كان يوماً ضرباً من الترف .

وبطل القصة ابن لإمبراطور أنجبه من أقرب محظياته إلى نفسه ، وهى « اكبريتسوبو » ، وهى من روعة الجمال بحيث أثارت الغيرة فى صدور سائر المحظيات جميعاً ، وجعل هؤلاء يغظنها حتى قضين على حياتها غيظاً ، فاقرأ كيف تصف الكاتبة « موراساكي » الإمبراطور بأنه لا يجد فى موتها ما يعزبه ،

ولعل الكاتبة في هذا قد أسرفت في تقديرها لمدى استطاعة الرجل أن يخلص في حبه ، قالت :

« وكرت الأعوام ، لكن الإمبراطور لم ينس فقيدته ، وعلى الرغم من كثرة النساء اللائي جىء بهن له في القصر لعلهن يثرن اهتمامه ، فقد أغضى عنهن جميعاً ، مؤمناً بأن العالم كله ليس فيه امرأة واحدة تشبه فقيدته ... ولم ينفك يشكو من القدر الذي لم يسمح لها معاً بأن يفيا بالعهد الذي كانا يكرانه كلما أصبح صباح أو أمسى مساءً ، وهو أن تكون حياتهما كحياة الطائرين التوأمين اللذين يشتركان في جناح واحد ، أو كحياة الشجرتين التوأمين اللتين تشتركان في غصن واحد » (٢١) .

وكبر « جنجى » وأصبح أميراً فانتاً ، له من وسامة الشكل أكثر مما له من استقامة الأخلاق ، فجعل يتنقل من غانية إلى غانية تنقل « نوم جونز » إلا أنه قد بذ في تنقله ذلك البطل المعروف في أنه لم يفرق بين ذكر وأنثى ، فهو يمثل فكرة المرأة عن الرجل - كله بعاطفة وكله لإغراء ، دائم التفكير ودائم الحب لهذه المرأة أو لتلك ؛ وكان « جنجى » أحياناً « إذا ما أملت به الللمات ، يعود إلى بيت زوجته » (٢٢) .

وترى الكاتبة « السيدة موراساكي » نقص لنا مغامرته بالتفصيل على نحو تحس فيه بفرحها برواية قصته ، ملتزمة له ولنفسها العذراء تماساً رقيقاً :

« إن الأمير الشاب كان يعدُّ مهملاً لواجبه إهمالاً لاشك فيه ، إذا لم يكن قد أسرف في « فلتاته » الكثيرة ، وإن كل إنسان لا يسعه إلا أن يعد سلوكه هذا طبيعياً لا غبار عليه ، حتى لو كان سلوكاً يعاب على عامة الناس ... لأننى في الحقيقة لأكره أن أقص بالتفصيل أموراً قد تحوط هو نفسه كل الاحتياطات في إخفائها ، لكنى سأقص هذه التفصيلات ، لأننى أعلم أنك لو وجدتني قد حذفت شيئاً ، فستقول : لماذا ؟ الآن المفروض فيه أنه ابن إمبراطور ،

اضطرت إلى ستر سلوكه بستر جميل ، وذلك بحذف كل نقائصه ، وستقول إن ما أكتبه ليس تاريخاً ، والقصة ملفقة أريد بها التأثير على الأجيال التالية تأثيراً يخدمهم عن الحقيقة ، والقصة كما هي ستجعلني في أعين الناس ناقلة لأنباء الدعارة ، لكنني لا حيلة في ذلك » (٢٣) .

وبمرض « جنجى » خلال مغامراته الغرامية ، فيندم على مغامراته تلك ، ويزور ديراً ليرتد إلى حظيرة التقوى على يدى كاهن ، لكنه في الدير يلتقى بأميرة جميلة (بأبى تواضع الكاتبة إلا أن تسميها باسمها هي ، موراساكي) فتشغله تلك الأميرة حتى ليتعذر عليه أن يتابع الكاهن وهو ينحو إليه باللوم على خطاياها :

« بدأ الكاهن يقص القصص عن زوال هذه الحياة الدنيا وعن الجزاء في الحياة الآخرة ، ولقد ارتاع جنجى حين تمثل له فداحة خطاياها التي اقترفها ، إنه لعذاب أليم أن يعلم أن هذه الخطايا ستظل واخزة لضميره ما بقى حيا في هذه الدنيا ، فما بالك بحياة أخرى ستتلو هذه ، فياله من عقاب شديد ذلك الذى ينتظره في مستقبله ! وكلما قال الكاهن شيئاً من هذا ، أخذ جنجى يفكر في تعاسته ، ألا ما أجملها فكرة أن يرتد راهباً وأن يقيم في مكان كهذا ! ... لكن سرعان ما استدارت أفكاره ناحية الوجه الجميل الذى كان قد رآه ذلك الأصيل واشتاق أن يعرف عن تلك المرأة شيئاً فسأل الكاهن : من ذا يسكن منك ها هنا (٢٤) ؟ » .

وتعاون الكاتبة المؤلفة بطلها جنجى على موت زوجته في الولادة ، بحيث أتبع له أن يخلى مكان الصدارة في بيته لأميرته الجديدة « موراساكي » (*) .

(*) إن كانت هذه السطور ليأسف أن يحول قصر الحياة بينه وبين المضى في قراءة هذه القصة لكنه اضطرت أن يكتبني بالجزء الأول من الأجزاء الأربعة التي نقل فيها « آرثر ويل » قصة موراساكي نقلاً دقيقاً .

وربما كان جمال الترجمة لهذا الكتاب هو الذى أضفى عليه هذه الروعة التى يمتاز بها من سائر الآيات الأدبية اليابانية التى ترجمت إلى الإنجليزية ، ويجوز أن يكون مترجمه - وهو مستر ويلى - قد فاق الأصل بترجمته كما هى الحال مع فتزوجرولد (فى ترجمته لرباعيات الخيام) ، فلماذا ما تناسبنا تشريعنا الخلقى برهة - أثناء قراءة هذا الكتاب - وسائرنا حوادث هذه القصة التى تجعل الرجال والنساء « يتلاقحون كما يتلاقح الذباب فى الهواء » - على حد تعبير وردزورث فى ولهم مايستر - لوجدنا فى « قصة جنجى » أروع لمحة فى مستطاعنا اليوم ، مما يتيح لنا رؤية ألوان الجمال المحبوء فى الأدب اليابانى ، فإن كاتبته « موراسكى قد كتبت بأسلوب طبيعى سلس ، سرعان ما يجعل موضوعها مادة حديثه مع أصدقائه ، فالرجال والنساء والأطفال بصفة خاصة ، الذين يحيون على صفحات قصتها الطويلة ينبضون جميعاً بالحياة الصحيحة ، والعالم الذى تصفه مصطنع بصبغة الحياة الحقيقية التى نعيشها ونراها (*) ، على الرغم من أنها كادت تحصر نفسها فى القصور الإمبراطورية والدور الفخمة ، إن الحياة التى تصفها هى حياة العلية التى لا تهتم كثيراً بما تتكلفه الحياة وما يتكلفه الحب من نفقات ، لكنها فى حدود تلك الحياة ، تراها تؤدى الوصف أداء طبيعياً دون أن تضطر

(*) إن السيدة الكاتبة لتدخل بقصتها حتى فى البيوت العادية دخول الفاهمة لدقائقها ، وهى تجعل « أوكانو كامى » - وذلك حوالى سنة ١٠٠٠ - تعبر عن رأى الحديث الذى يطالب للمرأة بحق التعليم : « وهناك كذلك الزوجة النشيطة التى - على الرغم من مظهرها - تلف شعرها وراء أذنها ، وتكرس نفسها تكريساً تاماً لدقائق حياتنا المنزلية ، والزوج فى غدواته وروحاته حول العالم ، لا بد أن يرى وأن يسمع أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتحدث فيها لمن لا يعرفهم ، لكنه يفتبط إذ يتحدث فيها إلى زوجته الحبيبة التى يمكنها أن تصفى إلى ما يقوله لها إصفاة المشاطرة لشعوره الفاهمة لعقله ، والتى يمكنها أن تضحك معه إذا ضحك ، وتبكي إذا بكى ، وكذلك كثيراً ما يحدث من أحداث السياسة ما يفهمه نهما أو يمتعه كبرى وعندئذ تراه يتفرد فى جلسته مشتاقاً أن يتحدث فى الأمر إلى صديق ، فلا تزيد زوجته على قولها له : « ماذا بك » ثم لا تأبه له ، فىكون انصرافها هذا عنه أكبر ما يجيء إليه » (٢٥) .

إلى الاستعانة في قصتها بشواذ الشخصيات والحوادث لتثير بها اهتمام القارئ فالأمر هو كما جاء في العبارة التالية على لسان «أومانوكامى» عن بعض الرسامين الواقعيين ، معبرة عن رأى الكاتبة «السيدة موراساكي» :

« إن التلال والأنهار كما هى في صورها المألوفة التى تراها العين ، والمنازل كما تقع عليها أينما سرت ، بكل ما لهذه وتلك من جمال حقيقى في التناسق والشكل — لو أنك رسمت مناظر كهذه رسماً هادئاً ، أو بينت ما يمكن وراء حاجز حبيب إلى قلبك ، معزول عن العالم مستتر عن الأبصار ، أو رسمت أشجاراً كثيفة على تل وطفء لا يشمخ بأنفه ، أقول لو رسمت هذا كله بالعناية اللازمة من حيث سلامة التكوين والتناسب والحياة — لكانت أمثال هذه الرسوم مما يتطلب أدق الحذق من أنبغ الأعلام ، وهى هى التى توقع الفنان العادى في ألوف الأخطاء» (٢٦) .

ولا أحسب الأدب اليابانى بعدئذ قد أنتج في القصة ما يوازى في روعته قصة «جنجى» أو ما يساوى هذه القصة في مبلغ تأثيرها على تطور اللغة تطوراً أدبياً (٢٧) ؛ نعم إن القرن الثامن عشر قد بلغ في أدب القصة أوجاً ثانياً ، ووفق كثيرون من أدباء القصة في التفوق على «السيدة موراساكي» لكنهم تفوقوا عليها في طول ما رووا من حكايات أو في مدى ما أباحوه لأنفسهم من تصوير للدعارة (٢٨) ، من ذلك مثلاً كتاب «القصص التهذيبى» الذى نشره «سانتو كيودن» سنة ١٧٩١ ، لكنه كان بعيداً عن الغاية التى زعمها لنفسه — غاية التهذيب — بعداً حداً بأولى الأمر أن ينفذوا القانون الذى يحرم الفحش ، فيحكموا على الكاتب بأن تغل يدها خمسين يوماً وهو في داره ، وكان «سانتو» هذا يتاجر في أكياس الطباق والأدوية «البلدية» وتزوج من عاهرة ، وكسب الشهرة أول ما كسبها بكتاب أخرجه عن بيوت الدعارة في لوكيو ، وبعدئذ أخذ يهذب من أخلاق قلمه شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يقتلع بهذا التهذيب

من جمهور القراء ما تعودوه من إقبال على شراء كتبه إقبالا عظيما ، ولما وجد كل هذا التشجيع ، خرج على كل السوابق المعروفة في تاريخ القصص الياباني فطالب الناشرين بدفع شيء من المال ثمناً لكتبه ، إذ يظهر أن سابقه من المؤلفين كانوا يكتفون من الأجر بدعوة يدعونها على عشاء ، وقد كان معظم كتاب القصة من الداعرين الفقراء ، الذين أنزلهم المجتمع مع الممثلين منزلة هي أدنى ما تكون المنزلة أمهانا^(٢٩) ، وظهر قصصى آخر هو «كيوكوتى باكين» (١٧٦٧ - ١٨٤٨) كان أقدر فناً في قصصه من «كيودن» لكنه أقل استتارة لاهتمام قرائه ، وهو يماثل «سكُت» و«ديماس» في صبه للتاريخ في قالب قصصى يفيض بالحياة ، ولقد بلغ إعجاب قرائه به في نهاية الأمر مبلغاً جعله يطمح لإحدى قصصه في مائة جزء ، وكان «هوكوساى» يوضح قصص «باكين» بالرسوم ، ولبثا في العمل زميلين حتى نشب بينهما الخلاف - وما داما من أبناء عبقري فلا بد من خلاف - ثم افترقا .

وأمرحُ هؤلاء القصاصين جميعاً هو «چينشا إيكو» (مات سنة ١٨٣١) وهو في اليابان يعادل «لى ساج» و«دكنز» ؛ «بدأ «إيكو» حياته الراشدة بثلاث زيجات ، فشل منها اثنتان بسبب أن حمويته في كلتا الحالين لم يفهما شلوذ مسلكه الناشئ عن اشتغاله بالأدب ؛ فقد رضى بالفقر متفكهاً ، لم يكن في بيته أثاث . فعلق على جدرانها العارية صوراً للأثاث الذى كان يشتريه لو استطاع ، وفي أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم لخبر ما يمكن تقديمه من قرابين وقدم له الناس حوضاً للاستحمام - رغبة منهم في التخلص من قذارته - فحمله على رأسه مقلوباً ، وراح يوقع به من اعترض طريقه من المارة معلقاً بالنكات في بداهة سريعة على كل من وقع ؛ ولما جاءه الناشر في زيارة إلى داره ، دعاه أن يستحم ؛ وقبل الناشر الدعوة ، فلبس صاحبنا ثياب الناشر أثناء استحمامه وزار كل من أراد زيارته في ذلك اليوم

- وكان رأس السنة الجديدة - وهو في تلك الثياب الفاخرة ، وآيته الأدبية هي قصة « هيزاكورياج » التي نشرها في اثني عشر جزءاً في الفترة التي تمتد من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٢ ، وهي تحكى قصة تهزقارثها هزا بالضحك ، على نحو ما نراه في قصة « مجموعة مذكرات نادى يِكُوكُ » (للكاتب الإنجليزي دكنز) ؛ ويقول « آستن » عن هذه القصة إنها أفكه وأمتع كتاب في اللغة اليابانية كلها^(٢٠) ، ولما كان « إيكو » في فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل حرقه - وكان إحراق الموتى مألوفاً في اليابان عندئذ - بضعة لفائف أعطائها لإياهم في وقار وجد ، ولما كان يوم جنازته ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعل الحطب الذي أعد لإحراق جثمانه ، تبين أن تلك اللفائف كانت تحتوى على مفرقات نارية أخذت تطلق أثناء حرق الجثة طقطقة كلها مرح ونشوة ؛ وهكذا وفي « إيكو » بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو شاب ، بأن يجعل حياته كلها مفاجآت حتى بعد موته .

(٢) التاريخ

المؤرخون - آرى هاكوسيكى

لنى تجد فى كتابة التاريخ عند اليابانيين ما يمتنع بمثل ما يمتنع فى أدبهم القصصى ، على الرغم من أنه يتعذر عليك أن تفرق عندهم بين التاريخ والقصة ، وأقدم كتاب باق فى الأدب اليابانى هو « كوجيكى » ومعناها « ثبت بالآث القديمة » وهو مكتوب بالأحرف الصينية بقلم « باسومارو » سنة ٧١٢ ، وفى هذا الكتاب كثيراً ما تحل الأساطير محل الحقائق ، حتى ليجتاح القارئ أن يمعن فى إخلاصه للعقيدة الشنتوية لكى يقبل هذه الأساطير على أنها تاريخ^(٢١) ثم رأت الحكومة بعد « الإصلاح العظيم » فى سنة ٦٤٥ أن الحكمة تقتضى أن تروى قصة الماضى رواية جديدة ، فظهر تاريخ جديد حول سنة ٧٢٠

عنوانه « نيهونجي » ومعناها « نيهون » وهو مكتوب باللغة الصينية ، ويزدان بفقرات سرقها الكاتب سرقة جريئة من الأدب الصيني ، وأحياناً أجراها على السنة أشخاص من اليابانيين القدماء ، دون أن يأبه مطلقاً للترتيب الزمني للحوادث ؛ ومع ذلك فقد جاء الكتاب محاولة أكثر جداً في روايته للحقائق من كتاب « كوجيكي » وكان هو بمثابة الأساس للكثرة الغالبة مما كتب بعدئذ من كتب في التاريخ الياباني القديم ، فنذ ذلك الحين كتبت عدة كتب في تاريخ اليابان كل منها يبرز سابقه في روحه الوطنية ، وقد كتب « كيتاباتاكي » كتاباً أسماه « چتوشوتوكي » - ومعناها تاريخ التسلسل الحقيقي للملوك الإلهيين - وضعه على أساس هذه العقيدة المتواضعة الآتية ، التي أصبحت اليوم أمراً مألوفاً .

« إن ياماتو العظمى (أى اليابان) بلد إلهي ، فالسلف الإلهي لم يضع أساساً لبلد من بلاد الأرض سوى بلدنا ، وهو دون سائر البلاد قد لقي الرعاية من آلهة الشمس بحيث ولّت على أموره سلسلة طويلة من أبنائها ، ولن تجد لمثل هذا شبيهاً في البلاد الأخرى ، ومن ثم سميت اليابان بالأرض الإلهية » (٣٢) .

وطبع هذا الكتاب أول ما طبع سنة ١٦٤٩ ، فكان بداية للحركة التي قصدت إلى استعادة الإيمان القديم والدولة القديمة ، وهما الجانبان اللذان بلغا أقصى حدودهما في المناقشات الحامية التي أقامها « موتو - موري » وشاءت الأيام أن يكون « متسو - كوني » - وهو حفيد « أياسو » نفسه - هو الذي يتصدى لكتابة كتابه الذي أسماه « داي نيهونشي » (ومعناها « التاريخ الأكبر لليابان » ، ١٨٥١) فأخرج به صورة من مائتين وأربعين جزءاً صور بها الماضي الذي ساد فيه الأباطرة وساد النظام الإقطاعي ، فكان هذا الكتاب بعدئذ من العوامل التي هيأت اليابانيين لخلع حكومة توكوجاوا العسكرية من مراكز السلطان .

وقد يكون « آراى هاكوسيكى » أعلم المؤرخين اليابانيين وأبعدهم عن الميل إلى الهوى ، فعلمه هو الذى ساد الحياة العقلية فى « بيدو » فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وقد سخر « آراى » من اللاهوت الذى كان يأخذ به مبشرو المسيحية الأرثوذكسية ووصفه بأنه « ممعن فى صبيانته » (٣٣) ، لكن جراته قد حدت به كذلك أن يهزأ ببعض الأساطير التى ظنها أهل وطنه تاريخاً (٣٤) ، وكتابه العظيم « هانكامپو » - وهو تاريخ « لدايمو » يتألف من ثلاثين جزءاً - يعد من أعاجيب الروائع الأدبية ، لأنه - فيما يظهر - قد تم تأليفه فى أشهر قلائل ، على الرغم مما لا بد أن يكون قد اقتضاه من كثرة البحث (٣٥) ، وقد استمد آراى بعض علمه وطائفة من أحكامه من دراسته للفلاسفة الصينيين ، ويقال إنه لما جعل يحاضر فى الآداب الكونفوشيوسية ، كان الحاكم العسكرى « أينو بو » يستمع إليه فى إقبال وإجلال حتى لم يكن ليذب البعوض عن رأسه فى الصيف ، وكان فى الشتاء ينحو بوجهه جانباً إذا أراد أن يمسح الرشح عن أنفه احتراماً للمحاضر (٣٦) ، وكتب « آراى » ترجمة لحياته فصور أباه تصويراً جليلاً رسم به المواطن اليابانى فى خير صورة له وأبسطها .

« إننى أعود بذاكرتى إلى أول لحظة بدأت عندها أتعمق الأمور إلى صميمها ، فأجد حياته الرتيبة اليومية لم تكن تختلف فى يوم عنها فى يوم آخر ، فما كان يفوته قط أن يستيقظ قبل شروق الشمس بساعة ، ثم يستحم بماء بارد ، ويصفف شعره بنفسه ، وإذا اشتد برد الشتاء تعرض عليه امرأته - وهى أمى - أن تعد له ماء ساخناً ، لكنه لم يكن يرضى بذلك ، لأنه لم يكن يريد أن يتعب الخدم ، فلما زاد عمره على السبعين ، وتقدمت أمى كذلك فى سنها ، وكان البرد يشتد إلى درجة لا يَحْتَمِلانها ، كانا يستحضران فى غرفتهما موقداً وبنامان وأقدامهما ممددة تجاهه ، وكان يوضع لإبريق من الماء الساخن إلى جانب

المدفأة ، فيشرب منه أبى عند استيقاظه ، وكلاهما كان يقدر بوزا ، فكان أبى لا يفوته قط — بعد أن يصفف شعره ويسوى ثيابه — أن يبدى علام خشوعه لبوزا وبعد أن يرتدى رداءه ، كان يجلس هادئاً فى انتظار تباشير الصباح ، وعندئذ يخرج إلى عمله الرسمى إن أحداً لم يره قط وعلامات الغضب على وجهه ، ولست أذكر أبداً أنى رأيته يوماً — حتى إن ضحك — يستسلم للمرح الصاخب ، وأقل من ذلك حدوثاً أن تراه يسفل إلى الألفاظ الجارحة إذا ما شاءت له الظروف أن يؤنب أحداً ، وكان فى سمره لا يتكلم ما أمكنه السكوت ، كان رصيناً فى سلوكه ، فآرائه قط جازعاً أو مضطرباً أو قلقاً يحافظ على نظافة الغرفة التى كان يشغلها عادة ، ويعلق على الجدار صورة قديمة ، ويضع فى أصيص بعض زهرات من زهور الموسم ، وقد ينفق يومه ناظراً إليها ، كان قليل الرسم للصور يرسمها باللون الأسود على ورق أبيض ، لأنه لم يكن محباً للألوان الزاهية ، وإذا جادت صحته لم يطلب إلى الخادم أن يعينه فى شىء قط ، لأنه كان يعد كل شىء لنفسه بنفسه (٣٧) .

(٣) المفارقة

« السيدة سى شوناجون » — « كامونو — شوى »

كان « آرمى » كاتباً للمقالة كما كان مؤرخاً ، وله نتاج عظيم فى هذا اللون من الأدب (أدب المقالة) الذى ربما كان أمتع ضروب الأدب اليابانى جميعاً ، على أن الزعامة فى أدب المقالة — كما هى الحال فى القصة — كانت لامرأة ، فكتاب « صُور على الوسادة » (ما كورازوشى) الذى كتبه « السيدة سى شوناجون » يوضع عادة فى أعلى مراتب هذا الأدب ، كما أنه أول ما كتب فيه ، والسيدة الكاتبة قد نشأت فى نفس البلاط ونفس الجيل اللذين نشأت فيهما « السيدة

موراساكي » واختارت لقلمها الحياة المترفة الداعرة من حولها ، فراحت تصف تلك الحياة في صور عابرة ، يستحيل علينا أن نلم بروعتها في لغتها الأصلية إلا على سبيل التخمين ، مهتدين بما نراه باقياً في الترجمة الإنجليزية لتلك الصور من آثار جمالها الفاتن ؛ والكاتبة من طائفة « فيوجيورا » وصعدت حتى أصبحت وصيفة الإمبراطورة ؛ فلما قضت الإمبراطورة نحبها ، توارت « السيدة سي » : فن قائل إنها أوت إلى دير ، ومن قائل إنها انطوت في ثنايا الفقر ؛ لكن كتابها ليس فيه ما يدل على صدق هذا القول أو ذاك ، وهي تنظر إلى الإباحية الخلقية في عصرها ، بالعين المتساهلة التي عرف بها ذلك العصر ، ثم هي لا تنزل رجال الدين الماديين منزلة عالية من نفسها .

« إن الواعظ الديني لا بد أن يكون وسيم الحيا ، إذ يسهل عليك عندئذ أن تكدج بعينيك في وجهه ، وبغير ذلك يستحيل الانتفاع بحديثه ، لأن عينيك ستحومان هنا وهناك ، ويفوتك أن تصفى إلى قوله ؛ وإذن فالواعظون الدميون تقع عليهم تبعة كبرى ... ولو كان رجال الوعظ يحبون في عصر أنسب لهم من عصرنا ، لسرني أن أحكم عليهم حكماً أقرب إلى صالحهم من حكى عليهم الآن ؛ لكن الأمر كما أراه في الواقع ، يدعوني إلى القول بأن خطاياهم أشنع فحشاً من أن تختمل منا مجرد التفكير » (٢٨) .

ثم تضيف الكاتبة إلى ذلك قوائم صغيرة بما تحب وما تكره :

فالأشياء التي تبتغ في نفسها النشوة :

أن أعود إلى البيت من رحلة وقد امتلأت العربات جنى فاضت ؛

أن يكون حول العربدة عدد كبير من المشاة الذين يخفون الثيرة

والعربات تسرع في السير ؛

الأسنان زينت بالسواد على نحو جميل ...
والأشياء التي تثير في نفسها الكراهية :
غرفة مات فيها طفل
مدفأة انطفأت نارها
حوزى يكرهه ثور عربته
ولادة سلسلة متصلة من البنات في بيت عالم ...

ومن الأشياء المقنونة :

الناس الذين إذا قصصت عليهم قصة قاطعوك بقولهم : إننا نعرفها
ثم يقولون القصة على صورة تختلف كل الاختلاف عما كنت تتوى
أن تقوله ..

والرجل الذي تصادفه امرأة ، ويكون بينهما ود ، فيثنى على امرأة
أخرى يعرفها ...

والضيف الذي يقص عليك قصة طويلة وأنت عجلان ...
شخير رجل تحب أن تحفيه ، والرجل ينام في مكان لا شأن له به ..
البراغيث (٣٩) .

وليس ينافس هذه السيدة في مكان الصدارة من أدب المقالة في اليابان ،
إلا « كامونو - شومي » ، الذي حُرِّمَ خلافة أبيه في حراسة الضريح الشنتوي
« لكامو » في مدينة كيوتو ، فاعتنق البوذية حتى أصبح راهباً من رهبانها ،
ولما بلغ من عمره عامه الخمسين ، اعتكف في حديقة في الجبل ، حيث
انصرف إلى حياة التأمل ، وهناك كتب كتاباً يودع به الحياة الصاخبة ، وأسمى
كتابه « هوجوكي » (١٢١٢) ومعناها « ملوّن الأقدام العشر المربعة » فبعد أن
بنى الصعاب والمضايقات التي يلاقها الإنسان في حياة المدنية ، ووصف

مراجعة سنة ١١٨١ (*) أخذ يروى لنا كيف أقام لنفسه كوخاً مساحته عشرة أقدام مربعة وارتفاعه سبع أقدام ، واستقر فيه راضى النفس بفلسفة لا يعكر هدوءها شيء وزمالة هادئة لما يحيط به من كائنات الطبيعة ؛ ولا يسمع الأمريكى الذى يقروء إلا أن يسمع فيه صوتاً شبيهاً بصوت « ثورو » وإن يكن صادراً من اليابان فى القرن الثالث عشر ؛ فالظاهر أن كل جيل لابد له من كاتب يدعو إلى معايشة الطبيعة بمثل كتاب « بركة وولدن » ..

الفصل الرابع

المسرحية

المسرحيات « الغنائية » - خصائصها - المسرح الشعبي -
شيكسبير اليابان - خلاصة الرأي

وآخر ألوان الأدب ، وأعسرهما فهماً علينا ، هي المسرحية اليابانية ؛
فما دمتنا قد نشأنا في جو من تقاليد المسرح الإنجليزى الذى يبدأ من رواية
هنرى الرابع وينتهى برواية « مارية اسكتلندة » فكيف يمكن أن نعد آذاننا
لإعداداً يتقبل المسرحيات الغنائية اليابانية بما فيها من إطناب وحركات صامتة
بالنسبة إلينا ؟ إنه لا بد لنا من نسيان شيكسبير والعودة إلى « إفريمان » بل والعودة
إلى ما هو أبعد من ذلك فى الماضى ، إلى الأصول الدينية للمسرحية اليونانية
والمسرحية الأوروبية الحديثة ؛ عندئذ نجد ما يعيننا على متابعة تطور التمثيل
الصامت الشنتوى القديم ، والرقص الكهنوتى المسمى « كاجورا » ، حتى أصبح
هذه الصورة التمثيلية الناطقة بالحوار ، التى تتألف منها المسرحية الغنائية عند
اليابانيين ؛ ففى نحو القرن الرابع عشر أضاف الكهنة البوذيون أناشيد جوقية
إلى التمثيل الطقوسى الصامت ، ثم أضافوا إلى ذلك شخصيات فردية ،
ودبروا حبكة للمسرحية بحيث تفسح المجال أمام هذه الشخصيات فتفعل
الأفعال كما تقول الكلام ، ومن ثم ولدت المسرحية^(١٠) .

كانت هذه المسرحيات - مثل المسرحيات اليونانية - تؤدّى فى ثلاثيات
وكانوا يمثلون فى الفترات التى بين الفصول أحياناً ، ما يطلقون عليه « كيوجن »
أى المهازل (أو التهريج) قاصدين بذلك أن يخففوا ويلطفوا من حدة العاطفة
والفكر ؛ أما الجزء الأول الثلاثى المسرحى فقد كانوا يخصصونه لاسترضاء

الآلهة ، فكاد لا يزيد على تمثيل ديني صامت ؛ وأما الجزء الثاني فكان يؤدي
بعده مسرحية كاملة ، ويبتغون به طرد الأرواح الشريرة بتخويفها ؛
وأما الجزء الثالث فكان ألطف جواً ، يراد به تصوير جانب رائع من جوانب
الطبيعة ، أو وجه ممتع من وجوه الحياة اليابانية^(٤١) ؛ وكانت أسطر المسرحية
تصاغ عادة في صورة الشعر المرسل ، بحيث يتألف البيت الواحد من اثني عشر
مقطعاً ؛ وكان الممثلون ذوي منزلة اجتماعية حتى بين العلوية ؛ فلا تزال بين
أيدينا وثيقة تثبت أن « نوبونجا » و « هيدبوشي » و « آياسو » قد اشتركوا
جميعاً كممثلين في إحدى المسرحيات الغنائية حول سنة ١٨٥٠^(٤٢) ، وكان
كل ممثل يلبس قناعاً منحوتاً من الخشب نحتاً دقيقاً يجعل هذه الأقنعة تحفة
عند هواة الآثار الفنية في عصرنا هذا ، وكانت مناظر المسرح قليلة ، إذ كانوا
يعتمدون على الخيال القوى عند النظارة في خلق البطانة التي يتم الفعل المسرحي
في جوها ، وأما الحكايات التي تمثل فن أبسط الحكايات تأليفاً ، ولم يكن
يجري الرواية هو نقطة الاهتمام ؛ ومن أشيع تلك الروايات رواية تحكي عن
« سيف » أصابه الفقر ، طرق بابه راهب جوال أراد الدفء ، فقطع له
السياف أعز نباتاته ليوقد له بها ناراً ؛ وعندئذ تبين أن الراهب لم يكن
إلا الوصي على العرش ، فأجزل العطاء للفارس ، وكما أننا في الغرب لا نفتأ
نختلف إلى المسرح مرة بعد مرة لنسمع مسرحية غنائية ، روايتها قديمة ،
وربما كانت رواية سخيفة أيضاً ، فكذلك ترى أهل اليابان ، — حتى يومنا
هذا — ييكون كلما شهدوا هذه الرواية التي يتكرر تمثيلها بغير انقطاع^(٤٣) ،
ذلك لأن براعة التمثيل تعيد لهذه الرواية في كل مرة قوتها ومغزاها ؛ ولو قصد
إلى المسرح متعرج متعجل عملي المقاييس ، فإنه قد يجد في أمثال هذه الأغاني
التي صبت في قالب تمثيلي ، تسلية أكثر مما يجد فيها عظمة تأخذ عليه نفسه ،
لكن اسمع ما يقوله فيها شاعر ياباني : « كم في المسرحية الغنائية من عناصر

المأساة وعناصر الجمال ، ولطالما طاف برأسى خاطر ، هو أننا نوذى خدمة جليلة لا شك فيها ، إذا نحن أحسنّا تقديم مسرحيتنا الغنائية فى الغرب ، ولو فعلنا لتتج عن ذلك احتجاج شديد ضد المسرح الغربى ، إن ذلك لو تم كان بمثابة الإيحاء باتجاه جديد^(٤٤) - ومع ذلك فاليابان نفسها لم تنتج من هذا المضرب المسرحى شيئاً منذ القرن السابع عشر على الرغم من أنها تقوم بتمثيلها اليوم وتقبل عليها إقبالا شديداً .

إن تاريخ المسرحية فى معظم البلاد عبارة عن تحول تدريجى من سيادة الحقوة إلى سيادة دور يقوم به فرد من الأفراد - وعند هذه النقطة تنهى مراحل التطور فى الكثرة الغالبة من الحالات التى يتم فيها هذا الانتقال ، ولما تقدم الفن المسرحى فى اليابان من حيث تقاليده وروعه ، خلق شخصيات محببة إلى الناس صارت هى القوة السائدة فى المسرحية ، وأخيراً قل شأن التمثيل الصامت والموضوعات الدينية ، وباتت المسرحية حرباً بين أفراد تملوهم قوة الحياة وقوة الخيال ، وهكذا ظهر المسرح الشعبى فى اليابان الذى يطلق عليه « كابوكى شيباى » وأول مسرح من هذا القبيل الشعبى ظهر حول عام ١٦٠٠ أنشأته راهبة ملت جدران الدير ، فأقامت مسرحاً فى أوساكا وجعلت ترتزق بالرقص على ذلك المسرح^(٤٥) ، وكان ظهور المرأة على المسرح - كما هى الحال فى إنجلترا وفرنسا بمثابة الثورة وأقتراف إثم محرم ، ولما كانت الطبقات العليا قد اجتنبت هذه المحرمات (اللهم إلا فى خفاء يؤمنها من الخطر) فقد أوشك الممثلون أن يصبحوا طبقة منبوذة ، ليس لهم حافز اجتماعى يدفعهم إلى صيانة مهنتهم من الدعارة والفساد ؛ واضطر الرجال أن يقوموا بأدوار النساء ، وذهبوا فى إتقان تقليد النساء إلى حد لم يستطيعوا عنده أن يتخدعوا النظارة فحسب ، بل خدموا أنفسهم كذلك حتى لقد ظل كثير من هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون أدوار النساء ، ظلوا نساء خارج المسرح^(٤٦) وكان من عادة الممثلين أن يصبغوا وجوههم بألوان زاهية ، وربما يرجع ذلك

إلى خفوت الأضواء على المسرح ؛ كذلك كانوا يلبسون أردية ذات رسوم
فاخرة لكي يدلوا بها على عظمة أدوارهم ، ثم لكي يرفعوا من قدر تلك
الأدوار ؛ وغالباً ما كان يجلس خلف المسرح أو حوله أفراد أو جوقات ،
تلقى الكلام المراد إلقاؤه ، وكان هؤلاء أحياناً هم الذين ينطقون بالكلام
بينما يقصر الممثلون أنفسهم على الحركات المناسبة صامتين ؛ وأما النظارة فقد
كانت تجلس على الأرضية المفروشة بالبُسْط ، أو في مقصورات على
الجانبين^(٢٧) .

وأشهر الأسماء التي تصادفك في المسرحية الشعبية في اليابان هو « شيكاماتسو
مُنزايemon » (١٦٥٣ - ١٧٢٤) الذي يقرنه مواطنوه بشيكسبير وأما النقاد
الإنجليز ، فترامهم يمجّتون هذه المقارنة ، فيتهمون « شيكاماتسو » بالعنف
والإسراف والمبالغة في قوة اللفظ وبعد حيكاته عن الواقع ، إلا أنهم يعترفون
له « بشيء من القوة والفخامة البدائيتين^(٢٨) » ، والظاهر أن التشابه تام ،
فتلك المسرحيات الأجنبية بالنسبة لنا ، تبدو لنا مجرد مسرحيات غنائية
لأنه إما أن يكون معناها أو تكون دقائقها اللغوية خافية علينا ، وقد يكون
هذا نفسه هو وقع شيكسبير على رجل لا يستطيع أن يقدر جمال لغته أو يتابعه
في أفكاره ، وربما كان « شيكاماتسو » قد غالى في جعل العشاق في مسرحياته
ينتحرون على المسرح ليكون انتحارهم بمثابة الذروة التي تعلو إليها حوادث
القصة على نحو ما نرى في رواية « روميو وجوليت » لكن قد يكون له في
ذلك هذا العذر ، وهو أن الانتحار في الحياة اليابانية أو شك أن يكون من
الشيوع بمثل ما كان على المسرح .

إن المؤرخ الأجنبي عن البلاد ، لا يسعه في هذه الأمور إلا أن يسجل ،
لا أن يصدر حكمه ، فالتمثيل الياباني في عيني مشاهد عابر يبدو أقل في درجة
الرق والنضوج من التمثيل الأوربي ، ولكنه أكثر منه قوة ورفعاً لأفئدة

المشاهدين ؛ إن المسرحيات اليابانية قد تكون أكثر تمشياً في سذاجتها مع سواد الشعب ، لكنها أقل تعرضاً لعوامل الضعف التي تنشأ عن الصبغة العقلية السطحية ، من زميلاتها في فرنسا وإنجلترا وأمريكا اليوم ؛ والعكس صحيح ، وهو أن الشعر الياباني يبدو لنا خفيفاً ميتاً ، مبالغاً في رفته الأرستقراطية نحن الذين تعودت أذواقنا المقطوعات الغنائية التي تكاد تبلغ في طولها طول الملاحم (مثل قصيدة Maud) كما تعودت أذواقنا الملاحم التي يبلغ الملل من قراءتها حداً لا أشك معه في أن هومر نفسه إذا اضطر أن يقرأ الإلياذة مجمعة لترنح رأسه من نعاس ؛ وأما القصة اليابانية فالظاهر أنها عاطفية تثير حب التطلع في نفس القارئ ، ومع ذلك فيخيل إلينا أن آيتين من آيات القصة الإنجليزية - هما قصة « توم جونز » وقصة « أوراق يَكُوك » - يقابلان تمام التقابل قصتي « جنجى مونوجانارى » و « هيزا كورييج » في الأدب الياباني ؛ ويجوز أن تكون « السيدة موراساكي » أنبغ من « فيلدنج » العظيم نفسه في دقتها ورشاقها وسعة فهمها ؛ إن كل ما هو بعيد عن أنفسنا غامض علينا ، يكون مملولاً سخيفاً بالنسبة لنا ، وتستظل الأشياء في اليابان غامضة علينا حتى نستطيع أن ننسى نسياناً تاماً تراثنا الغربي ، لتتشرب تراث اليابان تشرباً كاملاً .

الفصل الخامس

فن الدقائق الصغيرة

تقليد مبدع - الموسيقى والرقص - « إنرو » و « نكسوكى » -
هيدارى چنچارو - لاكيه

جاءت القوالب الخارجية للفن اليابانى من الصين ، مثلها فى ذلك مثل كل ظاهرة بادية من ظواهر الحياة اليابانية ؛ أما القوة والروح الداخليان ، فمثلهما مثل كل ما هو حيوى من أمور اليابان ، فى صدورهما عن الشعب نفسه ؛ نعم إن الموجة الفكرية والهجرة اللتين جاءتا إلى اليابان بالبوذية فى القرن السابع ، قد جاءتاها كذلك من الصين وكوريا بصور الفن وبالذواغ النفسية المرتبطة بتلك العقيدة ، التى ليست أصل فى الصين وكوريا منها فى اليابان ، بل إنه لمن الحق أيضاً أن العناصر الثقافية لم تدخل إلى اليابان من الصين والهند وحدهما ، بل جاءتها كذلك من آشور واليونان - فالملامح التى تراها فى بوذا كما كورا مثلاً أقرب إلى الملامح « اليونانية البكتيرية » منها إلى الملامح اليابانية ؛ لكن هذه الحوافز وإن تكن قد جاءت إلى اليابان من الخارج ، إلا أنها استخدمت هناك فى إبداع ما هو جديد ؛ فسرعان ما تعلم شعب اليابان أن يفرق بين الجمال والقبح ؛ وكثيراً ما كان أغنياء تلك البلاد يوثرون تحف الفن على الأرض أو الذهب (*) ، وكان رجال الفن فيها يعملون بإخلاص لفنهم أنسابهم نفوسهم ، وهؤلاء الفنانون ، على الرغم من أنهم كانوا يجتازون

(*) قام قواد الجيش أيام « هيديوشى » بحملات حرية مظفرة ، والظاهر أنهم اكتفوا فى مكاناتهم على ذلك الظفر - أحياناً - لا بالضيق ولا بالمال ، بل بالتحف النادرة من الفخار والخزف (٤٩) .

دوراً طويلاً عنيقاً من التدريب الفنى ، قلَّ أن تقاضوا على فنه أجراً أكثر مما كان يتقاضاه الصانع من أجور ؛ وإن شئت لهم الأيام مرة أن يجيئهم شيء من ثراء ، راحوا يبددونهُ في إسراف مستهتر ، ثم لم يلبثوا بعدئذ أن يعودوا إلى فقرهم الطبيعى الذى ترتاح إليه نفوسهم^(٥٠) ، أما من حيث النشاط والنوق والمهارة ، فلم يكن يدانيهم إلا أرباب الفن من أهل مصر القديمة واليونان والصين فى عصورها الوسطى .

إن حياة الشعب نفسها كانت تتخللها علائم الفن - تراها فى نظافة بيوتهم وجمال ملابسهم ، وظرف حلهم ، وإقبالهم إقبالاً فطرياً على الغناء والرقص ؛ ذلك لأن الموسيقى - كالحياة - جاءت إلى اليابان من الآلهة نفسها ؛ ألم تُغنَّ « إيزانامى » فى جوقات جمعية عند خلق الأرض ؟ ونقرأ عنهم أن الإمبراطور « إنكيو » عزف على آلة موسيقية بعد ذلك بألف عام ، وقامت الإمبراطورة ترقص لعزفه ، وكان ذلك فى مادبه إمبراطورية سنة ٤١٩ ، أقيمت احتفالاً بافتتاح قصر جديد ؛ ولما مات « إنكيو » أرسل أحد ملوك كوريا ثمانين موسيقاراً لعزفوا فى جنازته ، فعلم هؤلاء العازفون أهل اليابان آلات موسيقية جديدة وأنغاماً جديدة - بعضها من كوريا ، وبعضها من الصين ، وبعض ثالث من الهند - ولما نُصب الـ « دايتسو » فى معبد « تودايجي » فى نارا (٧٥٢) عزفت موسيقى الأساتذة من الصين فى احتفال التنصيب ؛ ولا يزال « بيت المال » الإمبراطورى فى نارا يعرض علينا الآلات التى استخدمت فى تلك الأيام السوالف ، وكان الغناء والإلقاء ، وموسيقى القصر وموسيقى الرقص فى الأديرة ، هى الضروب الرفيعة الموقرة من الموسيقى ، أما الأنغام الشعبية فكانوا يعزفونها على آلة يسمونها « بيوا » « أى قيثارة » أو على آلة يطلقون عليها « ساميزانه » و (وهى آلة ذات ثلاثة أوتار)^(٥١) ، ولم يكن لليابانيين نوايغ فى التأليف الموسيقى ، ولا كان لهم كتب فى الموسيقى ، وتأليفهم الموسيقية الساذجة

التي كانوا يعزفونها في خمسة أنغام على السلم الهارموني الصغير ، لم يكن فيها اتساق في النغم ، ولا كان عندهم تمييز بين ما هو صغير وما هو كبير من مفاتيح الموسيقى ، ومع ذلك فكل ياباني تقريباً كان يستطيع العزف على آلة من الآلات العشرين التي جاءتهم من القارة الآسيوية ؛ ويقول اليابانيون إن آية واحدة من هذه الآلات لو أتقن العزف عليها ، استطاعت أن ترقص الغبار العالق بسقف المكان^(٥٢) والرقص نفسه شاع بينهم « شيوغا » لانظير له في أي بلد آخر^(٥٣) - ولم يكونوا يرقصون على سبيل إتمام مقتضيات الغرام بين عشيقين ، بمقدار ما كانوا يرقصون تنسكا في العبادة أو في الحفلات الجمعية ؛ فكان يحدث أحياناً أن يخرج أهل قرية بأسرهم ، في أبهى حللهم ، ليحتفلوا بإحدى المناسبات السعيدة احتفالاً راقصاً يشترك فيه الناس جميعاً ؛ وكانت الرقصات المحترفات يجتذبن حشوداً من الجماهير بمهارتهن في الرقص ؛ وكنت تجد الرجال والنساء على السواء - حتى في أرفع الطبقات - ينفقون من وقتهم زمناً طويلاً في هذا الفن ؛ فتقول « السيدة موراساكي » في قصتها عن « جنجي » إنه حين رقص رقصة « موجات البحر الأزرق » مع صديقه « تونو - شوچو » تحركت العواطف في صدور المشاهدين جميعاً ؟ « فلم يشهد أولئك المشاهدون قط في حياتهم أقداماً تطأ الأرض بهذه الرشاقة كلها ، ولا شاهدوا رؤوساً قامت على أعناقها هذا الجلال كله ... كانت هذه الرقصة من عمق التأثير في النفوس ومن جمال الحركات ، بحيث أغرورت عينا الإمبراطور في ختامها ، وأجهش الأمراء والسادة كلهم بالبكاء »^(٥٤) وقد كان كل من تسعفه ظروفه المالية ، يزين نفسه زينة ، لا يكتفي فيها بالوشى الحميل والدمقس المصور بالرسوم ، بل يضيف إلى ذلك تحفاً رقيقة هي من الخصائص المميزة لليابان القديمة ، بل توشك أن تكون تعريفاً يحدد معناها ؛ فكان النساء ينكمشن ليغزلن الرجال من وراء مرواح فتاة الجمال ، بينما الرجال يسبرون في خيلاء بما جأوا من سيوف نقشت نقشاً نفيساً ، وما علقوا في

مناطقهم من صناديق (يسمون الواحد منها « إنرُو ») تدلت من أوساطهم بخيط سميك ، وكان الصندوق منها يتألف عادة من عيون نقشت في العاج أو الخشب نقشاً دقيقاً ، يضعون فيها التبغ والنقود وأحوات الكتابة وغير ذلك مما يلزم استعماله أحياناً ، ولكي يتمتع سقوط الخيط منزلقاً تحت المنطقة ، كانوا يربطونه في الجانب الآخر من المنطقة بوصلة صغيرة يسمونها « نتسوكا » (وهي كلمة مكونة من جزئين : « نى » ومعناها طرف ، و « تسوكا » ومعناها يربط) وكانت تلك الوصلة تعهد إلى فنان يرسم على سطحها المتغضن رسماً مسرفاً في الرقة والنفاسة ، رسماً لآلهة أو شياطين أو فلاسفة أو حور أو طيور أو زواحف أو سمك أو حشر أو زهر أو أوراق شجر أو مناظر من حياة الناس ، وها هنا وجدت روح الفكاهة الشيطانية التي يتفوق فيها الفن الياباني على سائر الفنون تفوقاً فسيحاً ، وجدت مبتسماً طلبقاً ، وإن يكن متواضعاً ، فلن يتكشف لك ما في هذه التحف الفنية من لطف بالغ ودلالة كبرى ، إلا بعد فحص دقيق لها ، غير أن لمحة سريعة تنظر بها إلى صورة مصغرة لامرأة يدينة أو كاهن سمين أو قرد خفيف الحركات أو حشرات لطيفة ، مما كانوا ينقشونه على مساحة لا تبلغ بوصة واحدة مكعبة من العاج أو الخشب ، لتكفيك للتأكد مما كان للشعب الياباني من خصال فنية فذة تنبض بحرارة العاطفة (٥) .

وكان أشهر من حفر الخشب من اليابانيين هو « هيدارى چنجارو » (هيدارى معناها مبتور اليد اليسرى) ، فتنبثنا الأساطير كيف فقد ذراعاً وكسب اسماً ، وذلك أن ظافراً في القتال طالب مولى « چنجارو » بحياة ابنته ، فنحت « چنجاروا » رأساً مبتوراً يمثل رأس مولاه تمثيلاً بلغ من الصدق حداً جعل ذلك الظافر يأمر بتر الذراع اليسرى لهذا الفنان عقاباً له على قتل

(٥) مؤلف هذا الكتاب مدين لتستر « أدولف كروش » في شيكاغو بالإذن له بفحص مجموعته الجميلة من هذه التحف : « نتسوكا » و « الإنرُو » .

ابنة مولاه (٥٥) ؛ « چنجارو » هو الذى نحت يلزميله الفنية والقطة النائمة التى لراها فى ضريح « آياسو » فى نيكو ، وهو الذى نحت كذلك « باب السفير الإمبراطورى » فى معبد « نيشى - هنجوان » فى كيوتو ؛ وقد قص الفنان على الجانب الداخلى من ذلك الباب قصة الحكم الصينى الذى طهر أذنه مما أصابها من دنس باستماعها لاقتراح عرض عليه بقبول عرش بلاده ، وكيف تجمع قطع الماشية فى نجهم ، يقاتل ذلك الحكيم لأنه أصاب ماء النهر بالنجاسة حين أراد تطهير أذنه الدنسة (٥٦) ؛ على أن « چنجارو » لم يكسب شهرته هذه إلا أنه أبرز فنان فى وضوح شخصيته ، من بين طائفة الفنانين الذى ذهب الزمان بأسمائهم ، والذين زينوا ألوف المباني بالخشب المنقوش أو المدهون نقشاً أو دهناً جميلاً ؛ ولقد لقيت شجرة « اللاكيه » فى جزر اليابان منزلة تتناسب مع شغف أولئك الناس بالفنون ، فكانوا يروونها فى عناية عظيمة ؛ وكان رجال الفن أحياناً يكسون نقوشهم التى نحتوها فى الخشب بطبقات من « اللاكيه » وأحياناً أخرى يسرفون فى فرض العناء على أنفسهم بأن يصبوا تمثالاً من الطين ، ثم يجعلونه أجوف ، ثم يضعون فى جوفه عدة طبقات من « اللاكيه » كل طبقة تكون أسمك من سابقتها (٥٧) وهكذا رفع الفنان اليابانى مادة الخشب إلى منزلة المرمر ، وملأ الأضرحة والمقابر والقصور بأجمل ما تعرفه فى القارة الآسيوية من الزخارف الخشبية .

الفصل السادس

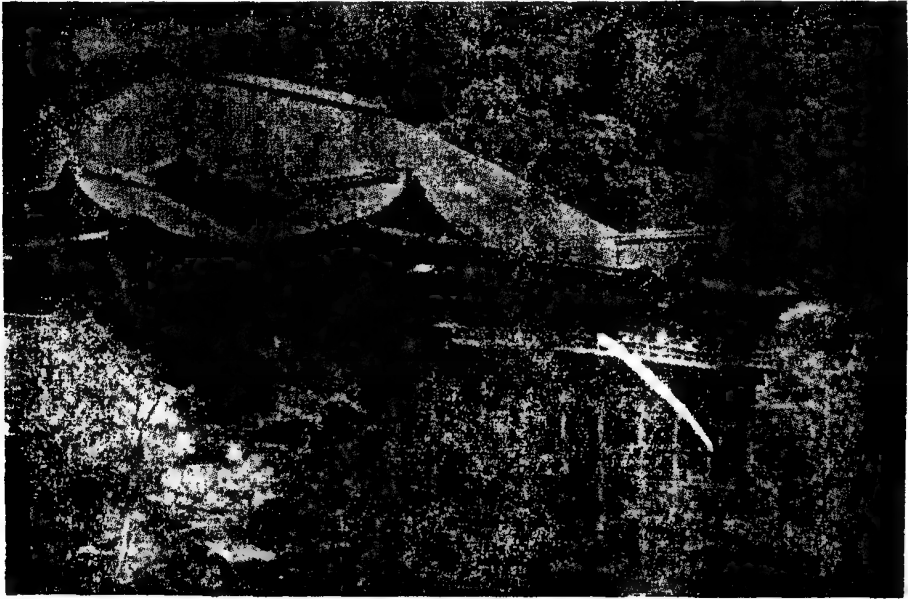
فن العمارة

المعابد - القصور - ضريح - أياسو - المنازل

وفي عام ٥٩٤ أمرت الإمبراطورة «سويكو» أن تقام المعابد البوذية في طول البلاد وعرضها ، إما اعتقاداً منها بما في الدعوة البوذية من حق ، أو التماساً لما عسى أن يترتب عليها من نفع ؛ وعهد بتنفيذ هذا الأمر إلى الأمير «شوتوكو» فاستدعى من كوريا كهنة ومعماريين وناحيتي الخشب وصانعي البرونز وصانعي النماذج من الطين وبنائين ومُذَهِّبِينَ وصانعي القرميد ونساجين وغير هؤلاء من مهرة الصناعات^(٥٨) وقد كان في استدعاء هذه الحملة الثقافية بداية تقريبية للفن في اليابان ؛ ذلك لأن «شنتو» لم يكن يرضى عن زخرفة البناء ، ولم يكن يسمع بنشويه صور الآلهة في تماثيل منحوتة ؛ أما مذ جاءت تلك البعثة الثقافية ، فقد امتلأت أرجاء البلاد بالأضرحة والتماثيل البوذية ، وكانت المعابد في جوهرها شبيهة بمعابد الصين . غير أنها كانت أغنى من معابد الصين زخرفاً وأرق نحتاً ؛ وترى في معابد اليابان ماتراة في معابد الصين ، من بوابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذي يؤدي إلى الحرم المقدس ، وتزدان الجدران الخشبية بناصع الألوان ، وترتكز السقوف القرميدية - التي تسطع في ضوء الشمس - على عمد ضخمة ، ويفصل الضريح الأوسط من الأشجار المحيطة به أبنية صغرى كسلسلة من الأبراج مثلاً أو معبد من الطراز المعروف باسم «باجودا» وأعظم ما أبدعه أولئك الفنانون الأجانب هو مجموعة المعابد التي في «هوريوجي» والتي أشرف على بنائها الأمير «شوتوكو» ، ، وهي قائمة على مقربة من «نارا» وتم بناؤها عام ٦٦٦ ؛

ولأنه لما يذكر حسنة من حسنات الخشب باعتباره أديم مواد البناء بقاء ، أن أحد هذه الأبنية الخشبية قد ظل قائماً رغم ما تعاوره من زلازل لا تحصى عدداً فكان أطول عمراً من مائة ألف معبد من المعابد التي شيدت بالحجر ، وكذلك مما يذكر على سبيل الفخر للبنايين الذين أقاموا تلك المعابد أن اليابان لم تشهد فيما بعد بناء واحداً يفوق هذا الضريح العريق في القدم من حيث جلال البساطة ، وربما كانت المعابد المقامة في « نارا » نفسها موازية في جمالها لهذا الضريح ، وهي أحدث منه بقليل ، وخصوصاً « القاعة الذهبية » التي في معبد « توديجي » والتي بلغ التناسب في أجزائها حد الكمال . . ويقول « رالف آدمز كرام » إن « نارا » تحتوى على أنفس آيات الفن المعارى في آسيا » (٥٩) .

وبلغت العمارة في اليابان أوجها الثاني في عهد حكومة « أشيكاغا » العسكرية ، فقد صمم « يوشيمتسو » أن يجعل من كبتو أجل عاصمة على وجه



معبد كيوميزو

الأرض ، فشيد للآلهة معبداً من طراز « يا جودا » بلغ ارتفاعه ٣٦٠ قدماً ،
وشيد لأمه « قصر التاكاكورا » الذى بلغت تكاليف باب واحد من أبوابه
عشرين ألف قطعة من الذهب (ما يساوى مائة وخمسين ألف ريال) ثم شيد
لنفسه « قصر الزهرة » الذى بلغت تكاليفه ما يساوى خمسة ملايين من الريالات ،
وكذلك أقام لمجد الشعب كله « البهو الذهبى » فى « كينكا كوجى » (٦٠) ،
وأراد « هيدىوشى » أيضاً أن ينافس « قبلاخان » فبنى فى « مرموياما » قصر
النعيم ولم يكد يعمد على بنائه بضع سنين ، حتى شاءت أهواؤه المتقلبة أن
يهدمه ، ونستطيع أن نحكم بما كان لذلك القصر من فخامة ، من « بوابة اليوم
كله » التى أخذت منه ليزينوا بها معبد « نيشى بنجوا » وإنما أطلق على
البوابة هذا الاسم لأن المعجبين بها يقوون إنك قد تظل يوماً كاملاً تدقق
النظر فى نقشها دون أن تأتى على كل ما فيها من روعة ، وكان « كانو بيتوكو »



بوابة « يو - مى - مون »

لـ « هيدوشى » بمثابة « استينوس » أو « فيدياس » ، لكنه زخرف له مبانيه بما هو أقرب إلى فخامة البندقية منه إلى الاعتدال اليونانى ، فما شهدت اليابان قط ، بل ما شهدت آسيا قط قبل ذلك مثل هذا الزخرف الفاخر ، وكذلك حدث فى عهد « هيدوشى » أن بدى فى « حصن أوساكا » المنجهم ، حتى تشكلت صورة البناء ، وأريد بذلك الحصن أن يشرف على موقع هو فى اليابان بمثابة « بتسبرج » ، وأن يكون مقبرة لولده :

وأما أياسو ، فقد كان أميل إلى الفلسفة والأدب منه إلى الفنون ، لكن حفيده « أيمتسو » - الذى اكتفى بكوخ من الخشب يتخذ منه قصرأ لنفسه - راح ينفق بسخاء من ثروة اليابان وفنها ، لينى حول رفات « أياسو » فى « نكو » أجمل بناء تذكارى شيد من أجل فرد واحد فى أرجاء الشرق الأقصى ، فى هذه البقعة التى تبعد عن طوكيو تسعين ميلا ، وعلى قمة تل هادى* تبلغها بطريق مظلل مزدان بالقباب الفخمة ، فى هذه البقعة بنى مهندسو العمارة الذين استخدمهم الحاكم العسكرى ، سلسلة من المداخل الفسيحة المدرجة ، بنوا تلك المداخل بادى* ذى بدء ، ثم عقبوا عليها ببوابة مزخرفة لكنها رائعة ، وهى المعروفة باسم « يو - مى - مون » ، ثم أقاموا على مجرى مائى جسراً مقدساً حرام لمسه ، ثم سلسلة من المقابر والمعابد أقاموها بالخشب المبطن « باللاكيه » وهى تمتاز بجمال الأنوثة وضعفها ، فالتقوش فاخرة إلى حد الإسراف والبناء نفسه ضعيف ، وترى لون الطلاء الأحمر فاقعاً حولك حينما أدركت البصر ، كأنه مسحوق الزينة الأحمر على شفاه امرأة بالغت فيه ، تراه فاقعاً وسط أخضر الأشجار الباهتة ، ومع ذلك فلنا أن نقول إن بلداً يزدهر بالازهار كل ربيع ، قد يكون أحوج إلى ألوان ساطعة للتعبير عن مشاعره ، من بلد أقل اضطراباً فى عاطفته يقتنعه ويرضيه ما هو أقل من ذلك سطوعاً .

وليس فى وسعنا أن نقول إن هذه العمارة جبارة ، لأن شيطان الرلازل قد



نردۀ و نکرکد

شاء لليابان أن تبنى على نطاق متواضع وألا تترك الحجارة بعضها فوق بعض حتى تعلو إلى السماء ، بحيث تنقوض حطاماً حين تعبس الأرض عبوساً يغضن جلدها ؛ ومن ثم تراهم يبنون بيوتهم من الخشب ، وندر أن يرتفع البيت عن طابق واحد أو طابقين ؛ ولم يجعل أهل المدن سقفهم من القرميد - إذا استطاعوا إلى نفقاته سبيلاً - إلا بعد أن عانوا من الحرائق المتكررة ، وبعد أن أمرت الحكومة بذلك أمراً جعلت تتشدد في تنفيذه ، عندئذ فقط اضطر أهل المدن أن يغطوا بالقرميد أكوأخهم أو قصورهم الخشبية

ولما تعذر على أبناء العلية أن يشمخوا بقصورهم إلى السحاب ، راحوا ينشرونها على أرض فسيحة ، على الرغم من الأمر الإمبراطورى الذى يحدد مساحة الدار الواحدة بمائتين وأربعين ياردة مربعة ؛ ويندر أن يكون القصر بناء واحداً ، بل كان القصر فى العادة يتألف من بناء رئيسى متصل بوساطة مماش مسقوفة بأبنية فرعية تعد لختلف فروع الأسرة ؛ ولم يكن من عاداتهم أن يخصصوا غرفة للطعام وغرفة للجلوس وغرفة للنوم ، فالغرفة الواحدة تستخدم لكل الأغراض ؛ فإذا شاءوا طعاماً فما هى إلا لحظة واحدة حتى ترى المائدة قد مدت على أرضية الغرفة المغطاة بالحصير ، وإن أرادوا نوماً ، فما عليهم إلا أن يمدوا فراش النوم المطوية ، فيخرجوها من مخبئها وينشروها على الأرض مدة الليل ؛ والجدران قوامها أجزاء تتداخل ، أو تزال من مواضعها ، وبذلك يمكنهم فصل الحجرات بعضها عن بعض أو فتحها بعض على بعض ، بل إن الحائط الخارجى نفسه - بما فيه من شبايك ونوافذ ، يمكن طيه بسهولة ليتمكنوا الأشعة الشمس من الدخول كاملة ، ولنسيم المساء البارد من التغلغل فى ديارها ؛ وهم يضمون فى منازلهم أستاراً جميلة من فلفلات الخيزران ، فتكسبهم تلك الأستار ظلاً وسرّاً فى آن معاً ؛ والنوافذ هناك من علامات الترف ، إذ ترى بيوت الفقراء ذات فتحات كثيرة تُترك على حالها فى الصيف ليدخل الضوء ، حتى إذا ما جاء الشتاء سدوها بصنف من الورق

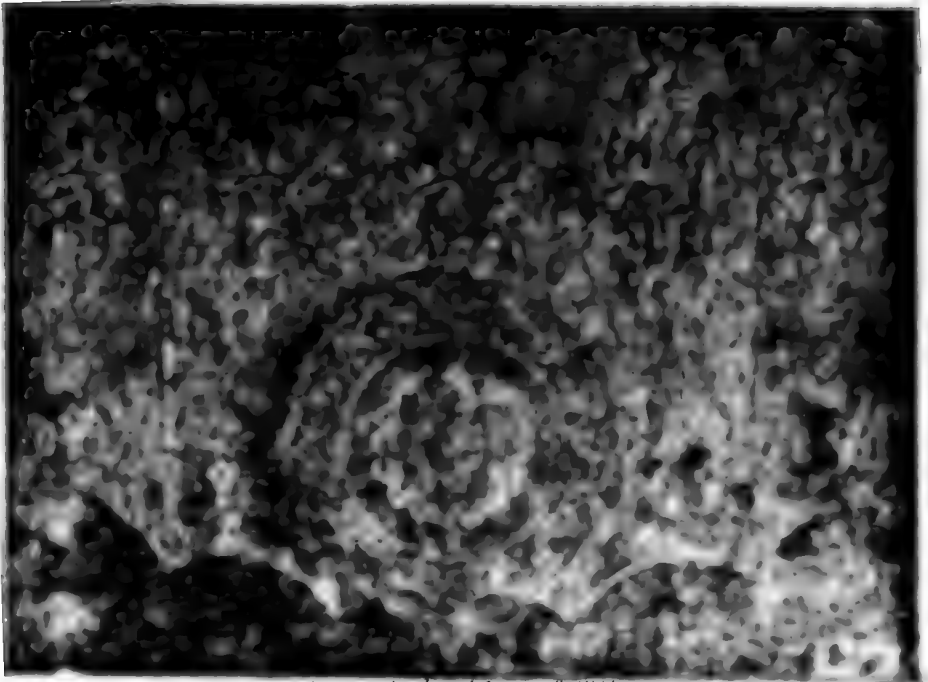
المشمع ليتقوا برد الشتاء ، إن نظرة إلى فن العمارة في اليابان تدلك على أن تلك العمارة ولدت في بلاد حارة ، ثم نقلت في غير حذر إلى جزائر تمتد بأعناقها شمالاً حتى تصل إلى كامشتكا التي ترتعش من شدة البرد وهذه المنازل البسيطة الرقيقة إذا ما شهدتها في المدن الجنوبية ألفت لها أسلوباً معمارياً . وجمالاً خاصاً يميزها ، وهي هناك مساكن ملائمة لشعب كان يوماً من أبناء الشمس الذين تملوهم نشوة المرح .

افصل السابع

المعادن والتماثيل

السيوف - المرايا - ثالث موريجى - التماثيل الكبيرة - الدين والنحت

كان سيف الرجل من طائفة « السيفين » أصلب عوداً من مسكنه ؛ لأن صناع المعادن في اليابان بذلوا جهدهم كله في صناعة أسياف تفوق أسياف دمشق وطيطة^(٦١) فقد كانوا يصنعونها من المضاء بحيث تكفى ضربة واحدة منها لشق الرجل من كتفه إلى فخذه ؛ وكذلك كانوا يزخرفونها بالمقابض والمدليات التي يسرفون في تزيينها ، أو في ترصيعها بالجواهر ، إشرافاً لم يجعلها دائماً صالحة للنقل ؛ ومن صناع المعادن من كانوا يختصون بصناعة المرايا من



الهالة البرونزية في « أميدا » بمدينة « هوريوجى »

البرونز ، يصقلونها صقلا آثار خيال أصحاب الأساطير بحيث راحوا يروون أساطيرهم إعجاباً بما بلغت تلك المرايا من كمال ؛ من ذلك مثلاً أن فلاحاً اشترى امرأة لأول مرة ، ونظر إليها فظن أنه يرى فيها وجه أبيه الميت ، فأخفاها على أنها كنز ثمين ؛ لكنه كان يتسلل إليها فارتابت زوجته في أمره ، وأخرجت المرأة يوماً من مكنها ، فإكان أشد فزعها حين رأت امرأة في مثل سنها ، ورجحت أن تكون تلك المرأة خلية زوجها^(٦٢) ، ومن هؤلاء الصناع من افتنَّ في صناعة الأجراس الضخمة ، مثل ذلك الجرس العظيم في نارا (٧٣٢ ميلادية) الذي تبلغ زنته تسعة وأربعين طناً ، وكانوا يستخرجون من تلك الأجراس أنغامها الحلوة — أحلى من الأصوات التي تنبعث من مصفقاتنا المعدنية في الغرب — بطرقها بلسان من خارجها ، يهزونه بواسطة عمود خشبي متأرجح .



وكان النحاتون أميل إلى استخدام الخشب أو المعدن منهم إلى استخدام الحجر ، لفقر بلادهم في الجرانيت والمرمر ؛ ومع ذلك ، فعلى الرغم من صعوبات المادة كلها ؛ استطاعوا أن يفوقوا معلمهم من أهل الصين وكوريا ، في هذا الفن الذي هو أوضح فن في تحديد معالمه — فسائر الفنون كلها تحاول في خفاء أن تحاكي ما يفعله النحات صابراً حين يزيل ما لا يجوز بقاؤه من مادته ، وأقدم آية في فن النحت الياباني تقريباً وربما كانت كذلك أعظم

« تمثال أميدا - بوذا » في هوريوجي
آيات اليابان في ذلك الفن - « ثالث هوريوجي » البرونزي -

وقوامه بوذا جالساً على برعم من براعم اللوتس بين بوديين منتظرين ، أمام ستار وهالة من البرونز ، لا يفوقهما جمالا إلا الوشي الحجري الذي نراه على ستار «أورنجيزب» في «تاج محل» ؛ ولسنا ندرى من ذا أبدعت يده هذه المعابد فأقامها ، وتلك التماثيل ففتحها ؛ ولنا أن نقول إنها من إرشاد معلمين كوريين ، أو أنها اقتفت نماذج من الصين ؛ أو أنها تعزى إلى حوافر من الهند ، بل لنا أن نقول إنها متأثرة بموثرات يونانية جاءت من أيونيا البعيدة عبر ألف من السنين ؛ لكن الذى لا نشك فيه هو أن هذا الثالوث آية من أبدع آيات الفن في تاريخه كله (*) .

ويجوز أن يكون قصر قامة اليابانيين ، بحيث توشك أجسامهم أن تنوء بحمل مطامحهم وقدراتهم الروحية ، هو الذى جعلهم يلتمسون المتعة في إقامة التماثيل الضخمة ؛ وقد وفقوا في هذا الفن المحفوف بمواضع الزلل ، أكثر مما وفق المصريون أنفسهم ؛ فلما فشا الجدرى في اليابان سنة ٧٤٧ ، كلف الإمبراطور «شومو» «كيميارو» أن يصوغ تماثلاً ضخماً لبوذا استرضاء للآلهة ؛ فاستخدم «كيميارو» لهذه الغاية أربعائة وسبعة وثلاثين طناً من البرونز ، ومائتين وثمانية وثمانين رطلاً من الذهب ، ومائة وخمسة وستين رطلاً من الزئبق ، وسبعة أطنان من الشمع النباقي ، وعدة أطنان من الفحم ، وقد تطلب هذا العمل عامين ، واقتضى سبع محاولات ؛ فصب الرأس في قالب واحد ، أما البدن فكان مؤلفاً من رقائق معدنية كثيرة لصق بعضها ببعض ،

(*) قد يكون لـ «شوتوكا تايشي» العظيم ، الذى كان من رجال السياسة والفن على السواء ، صلة بهذا الأثر الفني الحليل . لأننا نعلم أنه أمسك بالأزميل ونحت تماثيل كثيرة من الخشب (٦٣) ؛ كذلك كان «كوبو دايشي» (حوالى ٨٢٦) نحّاتاً ومصوراً معاً ، وعالمًا وقديسًا في آن واحد ؛ ولقد صوره لنا «هوكوساي» ممسكاً بمخمس فراجين دفعة واحدة ، اثنتين يديه واثنتين بقدميه وخاصة بفمه (٦٤) لكي يدلنا بذلك على تنوع براعته ؛ ورسم «أوفكى» (١١٨٠ - ١٢٢٠) تماثيل نصفية دقيقة التعبير عن شخصياتها ، رسمها لنفسه ولكتير من الكهنة ، ونحت أشكالاً جميلة مفزعة ليوم الحساب في الجحيم ، ولطولاء الآلهة النضاب الذين كان عليهم أن يطردوا بوجوههم الفبيحة كل الأرواح الشريرة ، ولقد تعاون معه أبوه «كوكى» وابنه «جوكى» وتلميذه «چوكاكو» لإعلاء اليابان في فن النحت في الخشب .



تمثال لبوذا في اليابان

ثم غطيت بغشاء سميك من الذهب ؛ وإن الأجني عن اليابان ليعجب لتمثال
بوذا « وايبوستو » القائم في « كاماكورا » ، أكثر مما يعجب لذلك التمثال
الكثير العابس في « نارا » وتمثال « وايبوستو » هذا مصبوب من البرونز
تم صنعه سنة ١٢٥٢ على يد « أونو جرينمون » ولعل ما يجعل حجم هذا
التمثال مناسباً للغاية منه ، كونه جالساً على مرتفع في الفضاء المكشوف ،
محوطاً بمنظر جميل من الشجر ، فضلاً عن أن الفنان هنا قد عبر ببساطة تدعو
إلى العجب ، عن روح بوذا في تأمله وسكينته ؛ وكان هذا التمثال بادئ
الأمر قائماً في معبد - كما هي الحال اليوم في التمثال القائم في « نارا » - لكن
حدث في سنة ١٤٩٥ أن اجتاحت المكان موجة من البحر ، فاكتمست المعبد
والمدينة جميعاً ، تاركة فيلسوفنا البرونزي هادئاً وسط هذا الخراب الشامل ،
وما ملأ الأرض حوله من عذاب وموت ، كذلك شيد « هيديوشي »
تمثالاً ضخماً في كيوتو ، ولبت خمسون ألف رجل يعملون مدى خمسة أعوام
في إقامة هذا التمثال لبوذا ؛ بل كان الحاكم العظيم نفسه يتلفع أحياناً بثوب
عامل بسيط ، ويعاون العاملين في إقامة التمثال معاونة كبرى ؛ لكنه لم يكد
يتم بناؤه ، حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشياً ،
ونثرت حطام جزئه الداخلي الذي كان مفروضاً أن يكون حرماً وموثلاً ،
نثرها حول رأسه ؛ ويروى في اليابان أن « هيديوشي » رمى الصنم المحطم
بسم قائلاً في ازدراء : « لقد أقمته هاهنا بياهم النفقات ، فلم تستطع
حتى حماية معبدك » (٦٥) .

في هذا المدى الذي يتفاوت فيه الحجم : من أمثال هذه التماثيل الضخمة
إلى المدليات (التسوكا) الصغيرة ، تناول النحت الياباني كل ضروب الأشكال
في شتى ضروب الأحجام : فأحياناً ترى سادة هذا الفن - مثل « تاكامور »
في يومنا هذا - ينفقون أعواماً من العمل المتصل في صناعة تماثيل لا تكاد

تبلغ قدماً واحدة في طولها ؛ وكان يتمتعهم أن يصوروا بمائيلهم تلك كهولا في
الثمانين التّوت أبدانهم ؛ أو شرهين يمرحون في الشره ، أو كهنة متفلسفين ؛



تمثال بوذا العظيم في كاما كورا

ولأنه لمن الخير أن يرى روح الفكاهة في عملهم قد شجعتهم على المضي في فنهم ،
لأن معظم الكسب الذي كانت تدره صناعتهم ، كان يستولى عليه مستخدموهم
الدهاة ؛ وكانوا في تمائيلهم الكبيرة مقيدين بتقاليد خاصة بموضوع التمثال ،

أو بطريقة أدائه ، مما يفرضه عليهم الكهنة ؛ فالكهنة إنما أرادوا من هؤلاء النحاتين أن يصوروا لهم آلهة لانساء فاجرات ، أرادوا أن يوحوا إلى الناس بالتقوى ، أو أن يحيطوا فضائلهم بعوامل الخوف لا أن يستثيروا في الناس إحساسهم بالغبطة والجمال ، ولما كان النحاتون مرتبطين يداً وروحاً بالدين فقد تدهور فن النحت حين بردت حرارة الإيمان وذهبت قوته ؛ وكما حدث في مصر من قبل ، رأينا أنه لما غاض معين التقوى ، بقيت صلابة التقاليد في الفن دليلاً على برودة الموت .

الفصل الثامن

الخزف

الدافع من الصين - خزافو هيزن - الخزف والشاي -
كيف استحضّر « جوتو سايجيرو » فن الخزف الرقيق من
هيزن إلى كاجا - القرن التاسع عشر

إنه ليس من العدل التأم بالنسبة إلى اليابان ، أن نتحدث عن استعجالاتها
لمدينتها من كوريا والصين ، إلا بالمعنى الذى نقصده من مثل هذا الكلام حين
نقول عن شمالى غربى أوربا إنه أخذ مدينته عن اليونان وزوما ؛ هذا إلى أنه
يجوز لنا أن نعد شعوب الشرق الأقصى كلها وحدة بشرية وثقافية ، وكل جزء
من أجزاء هذه الوحدة - شأنها فى ذلك شأن أقاليم القطر الواحد - قد أنتج
فنه وثقافته فى مكانه الخاص وزمانه الخاص ، بحيث جاءت تلك الثقافة
وذلك الفن يشبهان ويعتمدان على ما أنتجته بقية الأجزاء من ثقافة وفن ؛
وعلى هذا نرى الخزف اليابانى جزءاً من الفن الخزفى فى الشرق الأقصى ،
ووجهاً من وجوهه ؛ وهو فى أساسه شبيه بالخزف الصينى ، إلا أنه مطبوع
بطابع يميزه من الرقة والرشاقة اللتين تميزان الفن اليابانى كله ؛ وقد كان الخزف
اليابانى - حتى قدوم الصنّاع الكوريين فى القرن السابع - مجرد صناعة
خالية من لمسة الفن ، أعنى أنه كان لا يعدو أن تصب المادة صلباً على نحو
غليظ لتكون آنية للاستعمال اليومى ؛ والأرجح أنه لم يكن فى الشرق الأقصى
قبل القرن الثامن خزف مصقول ، وأكثر من هذا ترجيحاً أنه لم يكن به نوع
الخزف المسمى « بورسلان »^(٦٦) ثم أصبحت الصناعة فناً ، وكان أكبر العوامل
على هذا التطور دخول الشاي فى القرن الثالث عشر ؛ فقد صحب الشاي عند
دخوله البلاد أقذاح صينية لشربه من طراز « صنج » فأثارت الإعجاب عند
أهل اليابان ؛ حتى غامر خزاف يابانى سنة ١٢٢٣ ، وهو « كاتوشير وزيمون »

و افر إلى الصين ، ودرس هناك فن الخزف مدى ستة أعوام ، وعاد بعدها ليقيم مصنعاً له في سيتو ، وتفوق بضاعته على كل ما سبقه في بلاده من هذه الصناعة ، حتى أصبحت « منتجات سيتو » علماً على كل صناعة خزفية في اليابان كلها ، وذلك شبيه بما حدث في اللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر ، حين أطلقت كلمة « منتجات صينية » على الخزف البورسلاني ، وقد كتب الحاكم العسكري « يوريتومو » الثراء لذلك الخزاف « شيروزيمون » حين ابتدع بدءاً جديداً ، وهو أن يكافئ الخدمات الصغرى بهدايا من أباريق الشاي التي « صنعها شيروزيمون » هذا بعد أن يملأها بهذه الأعجوبة الجلديدة ، وهي مسحوق الشاي ، وما بقي لنا اليوم من آثار هذه المنتجات — ويطلق عليها اسم « توشيرو — ياكى » (*) — يكاد يغلو عن أي ثمن مهما علا ، وترى تلك الآثار باقية ملفوفة في الحرير الموشى الثمين ، ومصونة في صناديق من خشب « اللاكيه » الجميل ، وإذا حدثك محدث عن أصحابها ، حدثك عنهم بأنفاس متقطعة على أنهم سادة خبراء الفن (٦٧) .

وبعد ذلك بثلاثمائة عام ، أغرت الصين يابانياً آخر بالرحلة إليها ، وهو « شونزوِي » ليدرس مخازنها المشهورة ، ولما عاد إلى بلاده ، أنشأ مصنعاً في « أريتا » في إقليم « هيزن » ، وكان مما قام في وجهه من صعاب ، أنه لم يجد في تربة بلاده المواد المعدنية التي تعين على صناعة الخزف الرقيق ، كالتى توجد في تربة الصين ؛ وقد قيل عن منتجاته إن عنصراً من أهم عناصرها مستمد من عظام صنّاعه ، ومهما يكن من أمر ، فمنتجات « شونزوِي » ذات اللون الأزرق الإسلامى (كذا ؟) قد بلغت من الروعة حداً أغرى خزافى الصين في القرن الثامن عشر أن يبدلوا وسعهم في تقليدها وتصديرها مَزَوَّدة باسمه ، والعينات الباقية من صناعته ، تقدر اليوم بما يقدر به أندر الصور

(٥) « توشيرو » اسم آخر كان يطلق على « شيروزيمون » و « ياكى » معناها منتجات .

الفنية التي رسمتها ريشة الصفوة من أعلام الفن في اليابان^(٦٨) ، وحدث حوالى سنة ١٩٠٥ ، أن كشف رجل من كوريا - هو « ريزامبي » - في «إزومي - ياما» الواقعة في إقليم «أريتا» عن رواسب غريزة من حجر البورسلان ، فأصبحت «هيزن» منذ ذلك الحين مركزاً لصناعة الخزف في اليابان ، وكذلك كان «كاكيمون» المشهورة ممن قاموا بهذه الصناعة في «أريتا» إذ تعلم فن الطلاء بالمينا من ربان سفينة صينية ، وبعدئذ احترف هذه الصناعة حتى كاد اسمه يصبح كلمة معناها البورسلان الذى طلى بالمينا طلاء رقيق الزخارف ، وراح التجار الهولنديون يرسلون إلى أوروبا مقادير هائلة من مصنوعات هيزن ، كانوا يعبثونها في السفن من ميناء «أريتا» عند «عمارى» ، فأرسلوا من ذلك ٤٤٣٩٤٣ قطعة إلى هولندا وحدها عام ١٦٦٤ ، فأثارت «المنتجات العمارية» الباهرة هزة في أوروبا ، وأوحت إلى «إمبرجت دى قيصر» أن يفتتح عهداً ذهبياً من صناعة الخزف الهولندية بمصانعه في «دلفت» .

هذا إلى أن ظهور الاحتفال بشرب الشاي ، قد حفز على تطور جديد في اليابان ، وذلك أنه في عام ١٥٧٨ كلّف «نوبوجانا» - بإشارة من «ركيئو» سيد الشاي - أسرة كورية من المشتغلين بصناعة الخزف في كيوتو ، أن تصنع له مقداراً كبيراً من أقداح الشاي وغيرها من الأدوات المستعملة في عمله وشربه ، ومضت أعوام قلائل بعد ذلك ، ثم أهدى «هيديوشى» تلك الأسرة خاتماً ذهبياً وجعل مصنوعاتهما وتعزف باسم «راكو - ياكى» شرطاً يكاد يكون لازماً لتقام الاحتفال بشرب الشاي ، وعاد قادة جيش هيديوشى من حملتهم الفاشلة على كوريا ، عادوا ومعهم عدد كبير من الأسرى ، كان بينهم كثير من رجال الفن ، اختيروا قصداً ، وهو اختيار لاناألغه في رجال الحروب ، وفي سنة ١٥٩٦ أحضر «شيازويو شيهيرو» إلى «سانسوما» مائة من مهرة الكوريين ، بينهم سبعة عشر خزاناً ، فكان لهؤلاء الرجال وأخلافهم الفضل

في نشر سمعة « سانسوما » في أرجاء العالم كله مقرونة بتلك المصنوعات الخزفية المصقولة. الزاهرة الألواح ، والتي نطلق عليها اليوم اسم مدينة إيطالية ، إذ نسميها « فاينس » وكان علم أعلام هذا الفرع من فن الخزف هو خزف كيوتو ، واسمه « نينسي » ، ولم يكتف هذا الرجل بابتكاره لطلى خزف « فاينس » بالميناء ، بل أضاف إلى ذلك رشاقة في مصنوعاته واعتدالا سليم الدوق يعلو بقيمتها ، مما جعلها نفيسة في أعين هواة هذا الفن منذ ذلك اليوم ، حتى إن اسمه ليزور أكثر مما يزور أى اسم آخر من رجال الفن في اليابان (٦٩) ، وقد كان من أثر صناعته ، أن أقبل الناس على خزف « فاينس » المزخرف ، إقبالا بلغ في العاصمة حد الجنون ، وفي بعض الأحياء في كيوتو كنت ترى منزلا من كل منزلين قد انقلب تحفة خزفية (٧٠) وهناك خزاف آخر ، لا يفوق شهرة إلا « نينسي » ، وهو « كينزان » الذي كان شقيقاً أكبر للمصور « كهرين » ،

وهناك قصة تروى عن كيفية إحضار « جوتوسايجيرو » لفن البورسلان من « هيزن » إلى « كاجا » ، ومن تلك القصة نتبين طرقاً من أعاجيب الخيال التي كثيراً ما نراها كامنة وراء فن الخزف في نشأته وتطوره ، وذلك أن طبقة من رواسب الحجر الخزفي الجميل قد استُكشفت قريباً من قرية « كوتاني » ، فصمم الحاكم الإقطاعي في ذلك الإقليم على إنشاء صناعة البورسلان في إقليمه ، وأرسل جوتو إلى هيزن للدراسة طرائق صناعته في الأفران وزخرفته بالرسوم ، لكن جوتو لم يجد طريقه ميسراً إذ وجد القائمين على صناعة الخزف يكتمون أسرار صناعتهم كتماناً شديداً ، وأخيراً تنكر خادماً ، وقبل عملاً وضيعاً في منزل خزاف وبعد أن قضى في خدمته ثلاثة أعوام ، أذن له سيده بالدخول في مصنع الخزف ، وهناك لبث جوتو يعمل أربعة أعوام أخرى ، وبعدئذ هجر الزوجة التي كان تزوج بها في هيزن والأطفال الذين أنجبهم له تلك الزوجة ، وفر إلى كاجا ، حيث أحاط مولاه علماً كاملاً بالطرائق التي تعلمها ، ومنذ ذلك الحين (١٦٦٤) أصبح خزافو « كوتاني » أعلاماً في هذا

الفن ، وباتت « كوتانى » — ياكاً « (أى مصنوعات كوتانى) تنافس خيرة منتجات اليابان فى هذا الباب (٧١) .

واحتفظت مصانع « هيزن » لمنتجات الخزف بزعامتها إبان القرن الثامن عشر كله ؛ وكان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى العناية الكريمة التى أولاها الحاكم الإقطاعى « هيرادو » عمال مصانعه ، ولبثت مصنوعات الخزف الأزرق المسماة « منشاواكى » التى كانت تنتمى لـ « هيرادو » ، لبثت قرناً كاملاً (١٧٥٠ — ١٨٤٣) فى طليعة البورسلان اليابانى ، ثم تَقَلَّ « زنجورو هوزن » الزعامة فى القرن التاسع عشر إلى كيوتو ، بتقليد بارع لمصنوعات « منشاواكى » ، كثيراً ما يز فيه النموذج المحتذى ، بحيث كان يستحيل أحياناً أن تفرق بين الأصل والتقليد ، وفى الربع الأخير من ذلك القرن ، هذبت اليابان من صناعة الطلى بالمينا ، فطوّرتها من الحالة البدائية التى كانت عليها منذ قدومها من الصين وتزعمت العالم كله فى هذا الميدان من ميادين الصناعة الخزفية (٧٢) وتدهورت فروع أخرى من تلك الصناعة فى الفترة عينها ، لأن ازدياد الطلب فى أوروبا للخزف اليابانى ، أدى إلى نمط فيه إسراف فى الزخرف ، لا يسيغه الذوق اليابانى فكان من أثر هذا الطلب للخزف اليابانى من خارج البلاد ، أثر فى تعويد العمال عادات جديدة فى صناعتهم تأثرت بها مهارتهم ، وضعفت تقاليد ذلك الفن ، وجاءت الصناعة الآلية فكانت هاهنا — كما كانت فى كل مكان آخر — وبالا ؛ فحل الإنتاج الكبير محل الجودة ، كما حل الاستهلاك الكبير محل الذوق الذى يميز الطيب من الخبيث ، ومن يدرى ؟ فلعله بعد أن يفرغ الاختراع الآلى فى الصناعة من شوطه الحصيب ، وبعد أن تنتشر فى الناس نعمة الفراغ وطريقة استعماله استعمالاً فيه خلق وإبداع ، يفضل ما يطرأ على المجتمع من تنظيم وخبرة ، ينتحول هذه النعمة إلى نعمة ، بحيث تنشر الصناعة فى أكثرية الناس ألوان الترف ، فقد يعود العامل فيصبح فناناً كما كان — بعد أن يستكمل ساعات عمله القليلة أمام الآلة — وقد يحول الإنتاج الآلى إلى عمل يعبر فيه عن شخصيته وفنه إذا ما أحبه حباً صادراً من صميم نفسه وفرديته .

الفصل التاسع

التصوير

مشكلات الموضوع . الطريقة والمادة - القوائم الفنية والمثل العليا - الأصول الكورية والوحى البوذى - مدرسة توسا - العودة إلى الصين - شيو - مدرسة كانو - كوينسو - وكورين - المدرسة الواقعية

لئن كانت سائر الموضوعات التى مسسناها بالحديث على هذه الصفحات مما لا ينبغي فيه الحديث لغير المتخصصين ، فذلك أصدق بالنسبة للتصوير اليابانى ؛ وإذا نحن اشتغلناه هاهنا بكلامنا جنباً إلى جنب مع غيره من الموضوعات التى تمس خفايا النفس ، حيث تخشى الملائكة أن تدوس بأقدامها فى غير احتفال ، فإنما نشتمله بالكلام آمين أن يستطيع القارئ خلال هذه الغلالة التى نقدمها له من نسيج الأخطاء ، أن يلمح قبساً يهديه إلى لب الحضارة اليابانية فى تمام خصائصها وجودة عنصرها ، فأيات التصوير اليابانى نتاج فترة من الزمن طولها ألف ومائتا عام ، تنقسمها كثرة متشابكة الخيوط من مختلف المدارس ؛ وقد طرأ على تلك الآيات الفساد أو الضياع على مر الزمن وتكاد كلها تكون خبيثة بين المجموعات الخاصة فى اليابان(*) .

وأما الآيات القليلة المعروضة لأعين الباحثين من الأجانب ، فمختلفة فى قلبها وطريقتها وأسلوبها ومادتها ، عن الصور الغربية اختلافاً يستحيل معه إصدار حكم سليم عليها من عقل غربى .

فالصور اليابانية - قبل كل شيء تشبه نماذجها فى الصين من حيث

(*) أظن أن خير مجموعات «مدرسة كانو» - وهى جموعة مستر بيبوى طوكيو ، قد أصابها زلزال سنة ١٩٢٣ بما يقرب من التلف الكامل . (١٠ ج - ٥ - مجلد ١)

لإنها رُسمت أول ما رسمت بنفس الفرجون الذى كان يستخدم للكتابة ؛ والكلمة التى معناها كتابة ، والأخرى التى معناها تصوير ، هما فى الأصل كلمة واحدة — كما هى الحال أيضاً عند اليونان ، فالتصوير كان عبارة عن فن خطي ؛ وهذه الحقيقة الأساسية قد تفرع عنها نصف خصائص التصوير فى الشرق الأقصى ، بادئاً من المادة المستعملة فى التصوير ، ومنتهياً إلى إخضاع اللون للتخطيط ، فالمواد المستعملة بسيطة : مداد أو ألوان مائية ، وفرجون وورق نشاف أو حرير نشاف ، وأما العمل نفسه فمفسر : فالفنان لا يعمل وهو واقف ، بل يعمل جاثياً على ركبتيه ، منحنيّاً على قطعة الحرير أو قطعة الورق المنشورة على الأرض ؛ ولا بد له من ضبط يده فى التخطيط بالفرجون ، حتى يستطيع أن يخط إحدى وسبعين درجة أو أسلوباً من درجات التخطيط أو أساليبه (٧٣) ؛ وكانت الرسوم ترسم على الجدران فى القرون الأولى ، أيام أن كانت البوذية مسيطرة على الفن فى اليابان ، على نحو ما كانت ترسم الصور الجدارية فى « أجانا » أو « تركستان » ؛ غير أن كل ما بقى لدينا تقريباً من أعمال فنية واسعة الشهرة إما أن تكون من نوع الـ « ماكيمونو » (أى اللغائف) أو نوع الـ « كاكيمونو » (أى التعاليق) أو من نوع الستائر ولم تكن هذه الصورة ترسم لتعرض فى متاحف الفن عرضاً يخلو من استساغة المشاهدين لفنها — إذ ليس فى اليابان متاحف للفن — إنما كانت ترسم لتكون متعة لناظرى مقتنيها وأنظار أصدقائه ؛ أو كانت تُرسم لتكون جزءاً من زينة زخرفية فى معبد أو قصر أو منزل ؛ وكان من النادر جداً أن تصور تلك الرسوم أشخاصاً معينين ، إذ كان معظمها يصور لحجات من الطبيعة ، أو مشاهد من النشاط العسكرى ، أو قبسات فكهة أو تهكمية تصور ما يشاهده الفنان من طرائق العيش عند الحيوان أو بنى الإنسان نساء ورجالا .

كانت صورهم أقرب إلى أن تكون قصائد تعبر عن وجدان الفنان ، منها إلى أن تكون رسماً لأشياء ؛ كما كانت أدنى شياً بالفلسفة منها بالتصوير

الفوتوغرافى ؛ فلم يحاول الفنان اليابانى أن يلتزم الواقع فى تصويره ، وقلمأ أراد أن يقلد برسمه الصورة الخارجية للشيء المرسوم ، فقد نفّض يديه ، فى ازدراء من ظلال الأشياء ، على اعتبار أنها لا تتصل بجواهر الأشياء ، موثراً لنفسه أن يصور « فى الهواء الطلق » بمعنى أنه لا يتقيد بتجسيم الشيء بوساطة تأثير النور والظل ، وهو يتسم ساخراً بالغريبيين فى إصرارهم على أن يخضعوا الأشياء البعيدة لقواعد النظر فى رؤيته للأشياء على أبعاد ، بحيث تصغر تبعاً لذلك أو تكبر ، يقول « هوكاساى » - فى تسامح فلسفى - « إن التصوير اليابانى يمثل القلب واللون بغض النظر عن التجسيم . أما طرائق الأوربيين فتهدف إلى التجسيم والإيهام » (٧٤) أراد الفنان اليابانى أن ينقل شعوراً أكثر مما ينقل شيئاً ، أراد أن يوحى أكثر مما يعرض الشيء بأكمله كما هو ، ففى رأيه لا يلزم أن تبين عناصر المنظر المرسوم أكثر من عدد قليل ، فالأمر هنا فى التصوير كالأمر فى الشعر اليابانى الذى لا يسمح بالزيادة فى القول عن مجرد القدر الذى يكفى لإثارة وجدان التقدير الفنى فى السامع بحيث يعمل خياله إعمالاً يكمل به النتيجة الجمالية المراد بلوغها ، وكان المصور شاعراً ، يقدر إيقاع التخطيط ، ويقدر موسيقى القوالب ، أكثر جداً مما يقدر أشكال الأشياء وطرائق بنائها التى تختار اختياراً كما اتفق ، وهو كالشاعر يعتقد أنه لو أخلص لمشاعره ، فحسبه هذا القدر من الواقعية .

ويحتمل أن تكون كوريا هى التى جاءت بفن التصوير للإمبراطورية القلقة التى تم لها عندئذ غزوها ، وأغلب الظن أن بعض رجال الفن من كوريا هم الذين رسموا الصور الجدارية ذات الانسياب فى خطوطها والازدهار فى ألوانها التى تراها فى « معبد هوريوجى » ، لأنك لا تجد شيئاً فى تاريخ اليابان فيما قبل القرن السابع ، تفسر به مثل هذا الإنتاج القومى المفاجئ الذى بلغ فيه كمال الفن روعة لا يعيها خطأ ، ثم جاءها الحافز الثانى من الصين

مباشرة ، حين ذهب إليها الكاهنان اليابانيان « كوبودايشي » و « دنجيودايشي »
ليدرس فيها فن التصوير ، فلما عاد « كوبودايشي » (سنة ٨٠٦) إلى اليابان ،
كرس نفسه للتصوير وللنحت وللأدب والعبادة في آن معاً ، وبعض الآيات
التي تعد من أقدم الآيات الفنية ، هي من نتاج فرجونه المتعدد المواهب ،
وكانت البوذية أيضاً مصدر وحى للفنان في اليابان كما كانت مصدر وحى
له في الصين ، فمأرسة الحالة التأملية اليوزية المعروفة باسم « زن » قد اتجهت
ناحية الإبداع في ناحيتي اللون والشكل ، بقوة تكاد تقرب من القوة التي
اتجهت بها نحو الفلسفة والشعر ، وكثرت مناظر « أميدا بوذا » في الفن الياباني
كثرة مناظر البشري بمولد المسيح ومناظر صلبه على الجدران اللوحات التي
ترجع إلى عهد النهضة الأوروبية ، والكاهن « ييشين سوزو » (مات سنة ١٠١٧)
هو لليابان بمثابة « فرا انجليكو » و « إلى جريكو » لذلك العصر ، فتصويره
لصعود « أميدا » وهبوطه جعله أعظم مصور ديني في تاريخ اليابان ، وكان
عندئذ « كوسى نو - كانوكا » (حوالى ٩٥٠) قد بدأ في جعل التصوير الياباني
علماً للصبغة ، وهاهنا بدأت الطيور والزهور والحيوان تنافس الآلهة والأولياء
على لوحات التصوير .

غير أن فرجون « كوسى » كان ما يزال يتحرك على أساس القواعد
الصينية ويفكر بعقول أهل الفن في الصين ، ولم تبدأ اليابان في قرونها الخمسة
التي اعتزلت بنفسها فيها وأخذت خلالها تصور مناظرها هي ، وموضوعاتها
هي ، بطريقتها الخاصة ، إلا حين وقفت علاقات الاتصال بين اليابان والصين
في القرن التاسع ، ونشأت مدرسة قومية لفن التصوير حوالى سنة ١١٥٠ ،
تحت رعاية الدوائر الإمبراطورية والأرستقراطية في كيوتو ، وأعلنت تلك
المدرسة سخطها على ما يرد إلى البلاد من الخارج ، من حوافز وأساليب
في عالم الفن ، وأخذت على نفسها أن تزخرف منازل العاصمة الفاخرة ،
برسوم زهور اليابان ومناظرها الطبيعية ، وكان لهذه المدرسة عدة أسماء ،
كما كان لها عدة أعلام بارزين ، فيطلق عليها « ياماتو - ريو » أو الأسلوب

«الياباني و» «اجا-ريو» ومعناها كذلك الأسلوب الياباني ، و «كاسوجا» باسم مؤسسها المشهور ، وأخيراً يطلق عليها «مدرسة توسا» باسم أهم ممثل لها في القرن الثالث عشر ، وهو «توسا جون - نو - كومي» ، ومنذ ذلك الحين ، ظل اسم «توسا» يطلق على كل رجال الفن الذين ينتمون إلى تلك المدرسة ، وهي مدرسة جديدة بوصفها بالصفة القومية لأنك لا تجد في الفن الصيني ما يقابل مما أنتجته فراجين أتباع هذه المدرسة من حيث القوة والثبات والتنوع والفكاهة ، مما تراه في اللوحات التي تقص قصصاً عن الحب والحرب ؛ فحوالي سنة ١٠١٠ رسم «تاكايوشي» بالألوان رسوماً فخمة تصور حكاية «جنجي» وما فيها من غواية ، وسرّي «توبا سوجو» عن نفسه برسم صور تهكمية نابضة بالحياة ، يسخر فيها من أوغاد عصره وكهنته ، تحت ستار من القردة والضفادع ، ولما وجد «فوجيوارا تاكانوبو» قرب نهاية القرن الثاني عشر ، أن حسبه الشريف لا يغنيه شيئاً مذكوراً في إشباع حاجته من الطعام والشراب ، استدار للفرجون يكسب به عيشه ، ورسم صوراً عظيمة لـ «يورنيومو» وغيره ، لا تشبه في شيء قط ما أنتجته الصين حتى ذلك الحين ، وصور ابنه «فوجيوارا نوبوزاني» سناً وثلاثين صورة للشعراء ، محتملاً ما في ذلك العمل من صبر ، وفي القرن الثالث عشر ، رسم ابن «كاسوجا» وهو «كيون» - أو غيره . تلك اللوحات الحية التي تعد من أروع ما أنتجه العالم كله في فن التصوير .

لكن هذه المصادر القومية التي كانت تبعث الوحى ، راحت تجف شيئاً فشيئاً ، بحيث تتحول إلى أوضاع تقليدية في الأشكال والأساليب ، وعاد الفن الياباني من جديد فالتمس غذاءه عند المدارس الجديدة التي كانت ناهضة في الصين أيام «نهضة صنج» ، ولبت اليابانيون حيناً مدفوعين إلى تقليد الصين بغير ضابط ، واتفق الفنانون اليابانيون الذين لم يشهدوا «المملكة الوسطى»

قط ، أنفقوا أعمارهم في رسم أشخاص ومناظر من الصين ، فرسم « شو دنو » ست عشرة صورة لأولياء بوذيين ، هي الآن بين الكنوز المعروضة في « متحف فرير » للفن في واشنطن ، وأما « شويون » فقد شاءت له ظروفه أن يولد وأن ينشأ في الصين ، فلما جاء ليقضى حياته في اليابان ، استطاع أن يصور مناظر طبيعية صينية مستعينا في ذلك بذاكرته وبخياله معاً .

وكانت هذه الفترة الثانية من فترات التصوير الياباني ، هي الفترة التي أنجبت أعظم شخصية ظهرت في تاريخ التصوير كله ، وهو « سشيو » - الذي كان كاهناً من طائفة « زن » في « سوكونوجي » وهي مدرسة من المدارس الفنية الكثيرة التي أقامها « يوسيمتسو » الحاكم العسكري من أسرة « أشيكاجا » ؛ فقد استطاع « سشيو » هذا وهو لم يزل في يفاعته أن يدهش بني بلده برسومه ، وتروى عنه أسطورة لم تدر كيف تعبر عن إجلالها لفنه ، تروى أنه ربط ذات يوم إلى عمود لسوء سلوكه ، فرسم بأصابع قدميه جرداناً بلغ شبهها بالجرذان الحية حداً جعل الحياة تدب فيها فتأتى لتقرض الوثائق الذي شد به (٧٥) ، ولما اشتد به الشوق إلى الاتصال بسادة الفن في الصين حينئذ اتصالاً مباشراً ، حصل على أوراق اعتماد رسمية من رؤسائه الدينيين ومن الحاكم العسكري ، ثم عبر البحر ، لكن رجاءه خاب حين وجد التصوير الصيني في طريقه إلى التدهور ، ثم عزى نفسه بما وجدته في تلك المملكة العظيمة من تنوع في الحياة والثقافة ، وعاد إلى وطنه مملوءاً بالآلاف الأفكار الجديدة التي توحى إليه بما ينبغي أن يفعله ، وتروى الرواية أن رجال الفن ورجال الطبقة العليا من أهل الصين ، صحبوه إلى السفينة التي أعادته إلى بلاده ، وأمطروه بورقات بيض ملتصين منه أن يرسم فيها رسوماً تخطيطية بسيطة - إن لم يحد عليهم بأكثر من ذلك - ثم يرسلها إليهم ، ومن ثم - هكذا تقول هذه الرواية - سمي باسمه الرمزي « سشيو » الذي معناه « سفينة الثلج » (٧٦) لأن الورقات البيضاء

تساقطت عليه كما يتساقط الثلج) والظاهر أنه لما بلغ اليابان استقبله الناس هناك استقباهم لأمر ، ومنحه الحاكم العسكري « يوشياسا » منحاً كثيرة ، لكنه رفض هذه المنح كلها - لو أخذنا بما نقرؤه عن الأمر - وعاد فأوى إلى أبراشيته الريفية في « شوشو » وهناك راح ينثر الفن نثراً ، واحدة في إثر واحدة ، كأنما ينتج في كل لحظة نتاجاً نافهاً عابراً أوحب به ظروف اللحظة الراهنة ، حتى كاد يخلد بصوره كل جوانب الصين في مناظرها وحياتها ؛ فقلما رأت الصين مثل هذا التنوع كله في موضوعات التصوير عند الفنان الواحد - ولم تر اليابان مثل ذلك قط في تاريخها - كلا ولا رأت مثل هذه القوة في التصوير والتصوير معاً ، وفي ثبات الخطوط ، ولما بلغ الشيخوخة ، دقّ رجال الفن في اليابان طريقاً إلى بابه وكرموه فجعلوه - حتى قبل موته - فناناً في طليعة الركب ؛ وإن الصورة بريشة « سشيو » لتقدر اليوم عند هواة الصور من اليابانيين ، بمثل ما يقدر به هواة الأوروبيين صورة بريشة ليوناردو ؛ وتروى أسطورة من تلك الأساطير التي تحول الأفكار الغريبة إلى حكايات لطيفة ، أن رجلاً كان يملك صورة من رسم « سشيو » ثم اشتعلت النار بمنزله بحيث كان يستحيل عليه النجاة ، فقرر بطنه بقرأ بسيفه ودس في معدته قماش الصورة النفيسة - ووجدت الصورة بعدئذ سليمة من التلف داخل جثمانه الذي كانت النار قد أكلته إلى نصفه (٧٧) .

واستمر ازدياد التأثير الصيني في كثير من رجال الفن الذين كانوا في كنف أمراء الإقطاع من الأسرتين العسكريتين : « أشيكاجا » و « توكوجاوا » ؛ وكان لكل أمير في حاشيته مصوره الرسمي الذي ينط به أن يدرج ماثلاً الفنانين الناشئين الذين قد تدعو الحاجة المباغة إلى استخدامهم في زخرفة أحد القصور ؛ إذ كانت المعابد عندئذ تُنسى ، لأن الفن كان في طريق التحول إلى المجال الدنيوي كلما ازدادت البلاد ثراء ؛ ولما دنا القرن الخامس عشر من ختامه ، أنشأ « كانوماسانوبو » في كيوتو تحت رعاية « أشيكاجا » مدرسة

للفنانين العلمانيين ، أطلق عليها الجزء الأول من اسمه ، وجعلها تتجه بمجهدا كله نحو الاحتفاظ بكل شدة بالتقاليد الكلاسيكية الصينية في الفن الياباني ؛ وبلغ ابنه « كانو موتونوبو » في هذا الاتجاه مبلغاً جعله علماً لا يمتاز عليه إلا « سشيو » وحده ؛ وإن قصة لتروى عنه فتبين بياناً واضحاً كيف أن تركيز الانتباه والثبات على غاية واحدة هما اللذان يكونان العبقرية ؛ تقول عنه القصة إنه قد طُلب إليه أن يصور عدداً من طيور الكركى ، فشاهد مساء بعد مساء يمشى مشية الكركى ؛ واتضح أنه كان في كل ليلة يقلد الكركى الذى كان مصمماً على تصويره في اليوم التالى ؛ فيظهر أن الإنسان لا بد له من الذهاب إلى مخدعه والغاية المذشودة نصب عينيه ، حتى يستيقظ في الصباح مشهوراً ، وظهر حفيد لـ « موتونوبو » — هو « كانوييتوكو » فطوّر على يديه تحت رعاية هيدوشي ، نمطاً فنياً أبعد ما يكون عن الكلاسيكية المتزمتة التى اصطنعها أسلافه ، على الرغم من أنه كان فرعاً من أسرة « كانو » ، وجاء « تانيو » فنقل مركز المدرسة من كيوتو إلى بيدو ، وعمل في كنف أفراد أسرة « توكوجاوا » وعاون في زخرفة مقبرة « أياسو » في « نكو » وبالرغم من كل هذه المحاولات نحو مواءمة الفن لطروف العصر ، فقد استنفدت أسرة « كانو » دوافعها إلى الفن على مر الزمن ، وأدارت اليابان وجهها نحو أعلام آخرين يبدعون لها في تاريخ فنها شوطاً جديداً .

وهكذا ظهرت طائفة أخرى من رجال التصوير سنة ١٦٦٠ ، وأطلق عليها اسم علميها الزعيمين ، إذ سميت « مدرسة كويتسو — كورين » ، وكان من طبيعة التذبذب الذى يطرأ على الفلسفات وأنماط الفن ، أن تنظر هذه المدرسة الجديدة إلى الأوضاع والموضوعات الصينية التى عنى بها « سشيو » و « كانو » نظرتها إلى الشيء الرجعى الذى أبلاه الزمان ؛ وتلفت الفنانون الجدد يبحثون عن مناظر في بلادهم نفسها ، واستوحوا بلادهم الإلهام الفنى والموضوعات التى يديرون فيها فنهم ذاك ؛ وكان « كويتسو » رجلاً بلغ به



قردة وطيور رسمها مشيوني القرن الخامس عشر

تنوع المواهب حدّاً يذكرنا بما قاله «كارلايل» غيره من سواه من العظماء ، إذ قال إنه لا يعرف عظيماً واحداً لم يكن يستطيع أن يكون عظيماً في أى مجال شاء ؛ ذلك أن «كويتسو» هذا كان ممتازاً في الخط وممتازاً في التصوير ، وممتازاً في الرسم على المعادن و«اللاكيه» والخشب ؛ وهو شبيه بـ«وليم مورس» في قيامه بحركة إحيائية في سبيل الطباعة الجميلة ، وأشرف على قرية قام فيها صنّاعه بمختلف ألوان الفن تحت إرشاده^(٧٨) ولم ينافسه الزعامة في التصوير في عهد «توكوجاوا» إلا «كورين» ذلك المصور البارع للأشجار والأزهار ، الذى يحدّثنا عنه معاصروه فيقولون إنه كان يستطيع بجرة واحدة من فرجونه أن يطبع ورقة من أوراق السوسن على قماشة الحرير فتحيا^(٧٩) ولست تجد مصوراً سواه تمثلت فيه الروح اليابانية الخالصة كاملة كما تمثلت فيه ؛ أو أظهر الروح اليابانية كما أظهرها هو إظهاراً جملة بمثابة النمط لليابان كلها في سلامة ذوقه ودقة فنه^(*) .

وأخر مدارس التصوير اليابانية التى يسجلها التاريخ ، بمعنى كلمة التصوير الدقيق ، مدرسة أسسها «مارويامى أوكيو» فى كيوتو فى القرن الثامن عشر ؛ وكان «أوكيو» هذا رجلاً من الشعب ، حركت نوازع الفن فى نفسه معرفته اليسيرة بالتصوير الأوروبي ، فصمم أن يهجر الأسلوب القديم بما فيه من نزعة مثالية ونزعة تأثرية قد نفدت منهما عصارة الحياة ، وأن يحاول وصفاً واقعياً لمشاهدة بسيطة يختارها من الحياة اليومية الجارية ؛ وأغرم غراماً خاصاً برسم الحيوان ، واحتفظ بصنوف كثيرة من أنواع الحيوان تعيش حوله ليتخذ منها موضوعات لفنه ؛ وقد حدث مرة أن رسم خنزيراً متوحشاً وأطلع الصيادين

(*) ظفر متحف الفن المعروف باسم متروبوليتان فى نيويورك ، بصورة من صور «كورين» يقول عنها «ليدو» إنها : «من أعظم آيات نوعها التى سمح لها بالخروج من اليابان»^(٨٠) .

على صورته فخاب رجاءه حين ظن هؤلاء الصيادون أن الخنزير المرسوم
بصور خنزيراً ميتاً ، فابث يحاول ثم يحاول ، حتى رسم صورة لخنزير قال
عنها الصيادون إن الخنزير الذى تصوره ليس ميتاً ، ولكنه نعسان^(٨١) ، ولما



ستار متموج ، رسم كورين

كانت الطبقة العالية فى كيوتومفلسة ، اضطّر «أوكيو» أن يبيع صورهِ لأبناء
الطبقة الوسطى ، ولعل هذه الضرورة الاقتصادية هى التى ألزمته إلى حد
كبير أن يختار لفنه موضوعات شعبية ، لدرجة أنه جعل يصور بعض غانيات

كيوتو ، وصنع لذلك فنانون الجيل السابق لجيله ، ولكنه مضى في طريقه خارجاً على التقاليد ؛ وجاء « موري سوزان » فتقبل زعامة « أوكيو » في التزام الطبيعة في الفن ، وقصد إلى حيث تسكن الحيوانات فعاش بينها لكي يتاح له الإخلاص في تصويرها ، حتى أصبح أعظم مصوري ياباني في رسم القردة والفزلان ؛ فلما مات « أوكيو » (١٧٩٥) كان الواقعيون قد كسبوا السيادة التامة على فن التصوير ، واستطاعت مدرسة شعبية خالصة أن تستوقف الأنظار ، لا في اليابان وحدها ، بل في أرجاء العالم كله .

الفصل العاشر

الصور المحفورة

مدرسة « يوكوي » - « سوسو » - « أعلامها » - « هوكوسا » - « هيروشيغا »

إنها لأضحكة أخرى من أصحابك التاريخ أن يكون الفن الياباني أقرب إلى الغرب علماً وأعمق فيه تأثيراً ، عن طريق جانب من جوانبه ، هو أقل تلك الجوانب منزلة في اليابان نفسها ؛ فقد تحول فيما يقرب من منتصف القرن الثامن عشر ، فن الحفر الذي كان قد وفد على اليابان في ثانيا التعاليم البوذية وملحقاتها قبل ذاك بخمسمائة عام ، تحول فأصبح أداة لتوضيح الكتب وحياة الناس بالرسوم ، ذاك أن الموضوعات القديمة والطرائق القديمة كانت قد فقدت رونق الجدة فقدت بذلك اهتمام الناس بها ، إذ أترع هؤلاء الناس بصور القديسين البوذيين والفلاسفة الصينيين ، والحيوانات التي استغرقت في التأمل ، والزهور التي ترمز للطهر والبراءة ؛ ونهضت طبقات جديدة من الناس فاحتلت مكان الصدارة ، وافتقدت في الفن تصويراً لشئون حياتهم ، وراحت تخلق من رجال الفن من يُقبل راضياً على إشباع تلك الرغبات ؛ فلما كان التصوير يتطلب فراغاً ونفقات ، ولا ينتج إلا صورة واحدة في المرة الواحدة ، عمل الفنانون الجدد على إصطناع فن الحفر لتحقيق غاياتهم ، فحفروا الصور في الخشب ، وبذلك تمكنوا من إصدار عدد رخيص من الصورة الواحدة بمقدار ما يطالب سواد الشارين في السوق ، وكانت هذه الرسوم المحفورة تلون باليد أول الأمر حتى إذا جاء عام ١٧٤٠ صنعت ثلاثة « كليشيات » للصورة الواحدة : واحدة لا لون فيها ، وثانية لون جانب منها باللون الأحمر الوردى ، وثالثة لونت في بعض أجزائها باللون الأخضر ، ثم كانت الأوراق المراد طبعاها توضع على « الكليشيات » بالتناوب ، وأخيراً في

سنة ١٧٦٤ صنع « هارونوبو » أول كليشيهات متعددة الألوان ، فهد بذلك الطريق إلى تلك الرسوم الناصعة التي رسمها « هوكوساي » و « هيروشيغي » . والتي جاءت للأوروبيين الذين ملوا الثقافة القائمة وتحرقوا ظمأ لكل ما هو جديد . جاءت تلك الرسوم للأوروبيين حافزاً وموحياً ، وهكذا ولدت مدرسة « يوكيوني » التي جعلت موضوعها « صور الحياة العابرة » :



ثعالب ، رسم هيروشيغي

ولم يكن مصوروها أول من جعل الإنسان العارى من الألقاب موضوعاً للفن ، فقد سبق لـ « إواسا ماتاني » في أوائل القرن السابع عشر أن أدهش فئة « السيفين » بتصويره على ستار سداسي الجوانب رجالاً ونساء وأطفالاً في

أوضاع الحياة اليومية بغير تحفظ ؛ وقد وقع اختيار الحكومة اليابانية سنة ١٩٠٠ على هذا الستار « واسمه هيكوني-يويو » لعرضه في باريس ، وأمنت على سلامته أثناء الرحلة بثلاثين ألف ين (وهو ما يعادل خمسة عشر ألف ريال) (١٨٢) وفي سنة ١٦٦٠ صنع « هيشيكاوا مورونوبو » مصور الزخارف على الأقمشة في مدينة كيوتو ، أول رسوم بالكليشيات ، صنعها أول الأمر لتطبع في الكتب توضيحاً لمادتها ، ثم صنعها ليستخدمها في طبع رسوم وبيعها للشعب كما تباع البطاقات المصورة عندنا اليوم ؛ وحوالى سنة ١٦٨٧ ، انتقل « تورو كوجو موتو » مصور المناظر في مسارح «أوساكا» انتقل إلى « ييدو » وعلم مدرسة « يوكيوني » (التى كانت محصورة في العاصمة وحدها) كيف يمكنها أن تستفيد من الوجهة المالية ، إذا هى اتجهت نحو تصوير الرسوم المحفورة لمشاهير الممثلين في ذلك العصر ، وبعدئذ انتقل الفنانون الجدد من المسرح إلى مواخير الدعارة في « يوشيوارا » فخلعوا بفنهم مسحة من الخلود على على كثيرات من ربات الجمال الزائل وهكذا دخلت الأنداء العارية والأطراف المتلألئة - بعد أن خلعت عذارها - حرم فن التصوير الياباني الذي كان لا يدخله من قبل إلا موضوعات الدين والفلسفة .

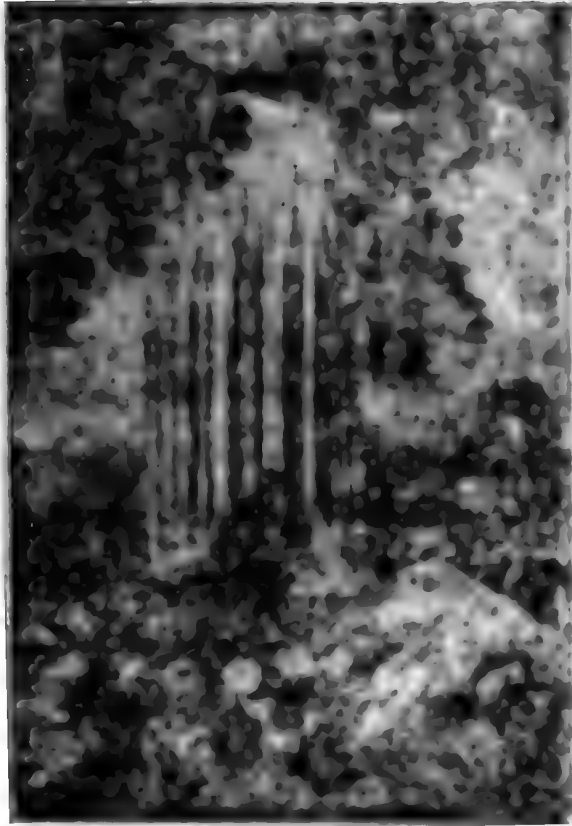
وظهر أعلام هذا الفن الذي تقدم وتطور ، حول منتصف القرن الثامن عشر ؛ فقد صنع « هارونوبو » رسوماً تحتوى على اثني عشر لوناً ، بل خمسة عشر لوناً ، مستخدماً في ذلك كليشيات بعدد الألوان ، ولما أحس لذعة الضمير لرداءة ما صوره في سابق عهده للمسرح ، راح يعوض عن ذلك برسوم تتجلى فيها الرقة اليابانية ، يعرض فيها ألوان الشباب المرح في عالمه الشيق . وبلغ « كيوناغا » أوج الفن في هذه المدرسة وجعل يستخدم اللون والخطوط متدخلاً بعضه في بعض ، في رسمه لسيدات من الطبقة العالية مستقيبات القامة ، دون أن تؤثر تلك الاستقامة في مرونة البدن ؛ وأما « شاراكو » فالظاهر أنه لم

ينفق أكثر من عامين في حياته لتصميم الرسوم المحفورة ، لكنه في هذا الأمد القصير استطاع أن يرقى إلى طليعة العاملين في هذا الفن ، بفضل صوره عن « الأولياء (الرونين) الأربعة والسبعين » ، ورسومه التي أفحشت في سحرها بـ « نجوم » المسرح الهاويات من سماءها ؛ وصور « أوتامارو » الذي عرف بالخصوبة في نبوغه وتنوع قدرته ، كل ضروب الأحياء من الحشرات إلى الفاجرات ، فقد قضى نصف حياته العاملة في الـ « يوشيوارا » وأرهم نفسه متعةً وعملاً ، وزج في السجن عاماً (١٨٠٤) لرسمه « هيدوشى » محاطاً بأربع غائيات من خليلاته (٨٣) ؛ وكأنما مل « أوتامارو » تصويره لغمار الناس في أوضاع الحياة العادية ، فأخذ يصور سيداته الرقيقات المهذبات في رشاقة تكاد تقول عنها إنها رشاقة روحانية ، صورهن برءوس مائلة قليلاً ، وعيون مستطيلة منحرفة ، ووجوه طويلة ، وقدود عجيبة لفتها ثياب مناسبه كثيرة الطبقات ؛ ثم فسد في الذوق فأفسد هذا النمط الفنى بحيث جعله متكلفاً ممقوتاً ، فانحدرت مدرسة « يوكيوني » إلى ما يدنو من الفساد والتدهور ، لولا أن قام بها زعيمها المشهوران قدما من حياتها نصف قرن آخر

أما أحدهما فهو « هوكوساى » الذى نعت نفسه « بالرجل الكهل الذى جُنَّ بالتصوير » ، وقد امتد به العمر إلى ما يقرب من تسعين عاماً ، ومع ذلك كتب يرثى لبطء سيره نحو الكمال وقصر أمد الحياة ، فقال :

« لقد تولانى جنون عجيب منذ السادسة من عمرى برسم كل ما يصادفنى من الأشياء كائناتاً ما كان ، فلما بلغت الخمسين كنت قد نشرت عدداً من آثارى مختلفة أنواعها ، لكن لم أطمئن إلى أى منها اطمئناناً تاماً ، ولم يبدأ عملى الحق إلا حين بلغت السبعين ، وهأنذا الآن فى الخامسة والسبعين ، وقد استيقظ فى نفسى حب الطبيعة بعناتها الصحيح ، ولذا ترانى آمل أن أظفر عند الثمانين بقوة من إدراك البصيرة يظل ينمو معى حتى أبلغ التسعين ، فإذا ما بلغت

المائة كان لى - فى أغلب الظن - أن أقرر تقرير الواقع بأن إدراك بصيرتى قد أصبح إدراكاً فنياً خالصاً ؛ ولو وهبى الله أن أعيش حتى العاشرة بعد المائة كان رجائى عندئذ أن يشعّ من كل خط أسطره بل من كل نقطة أخطها فهم "جوهري صحيح بالطبيعة". وإنى لأطلب من أولئك الذين سيتمد بهم العمر



مناظر يورو ، رسم هوكوساى

ما يمتد بى أن يروا إن كنت ممن يفنون بما يعدون أولم أكن ، لقد كتبت هذا وأنا فى سن الخامسة والسبعين ، أنا الذى كان اسمه « هوكوساى » وأصبح الآن يدعى « الرجل الكهل الذى جُنَّ بالتصوير »^(٨٤).

وكان شأنه شأن سائر رجال الفن من مدرسة « يوكيوى » من حيث إنه

نشأ من طبقة العمال ، فهو ابن^١ لصانع كان يصنع المرايا ، وألحقوه بفنان يدعى « شنسو » ليأخذ عنه الفن ، لكنه لم يلبث أن طرد لإصائله وعاد إلى أسرته ليعيش فقيراً شقياً مدى حياته الطويلة ، ولم يستطع أن يعيش بتصويره ، فراح يجول في المدينة بائعاً للطعام وكراسات التقويم ، وحدث أن احترقت داره ، فلم يزد على إنشائه هذه العبارة من الشعر :

لقد احترقت الدار .

فما كان أجل الزهور وهى تهوى^(٨٥) ! .

وجاءه الموت وهو في التاسعة والثمانين ، واستسلم له كارهاً وهو يقول : « لو وهبتي الآلهة عشرة أعوام أخرى فقط لأمكننى أن أكون فناناً عظيماً بحق^(٨٦) » .

وخلف وراءه خمسمائة مجلد تحتوى على ثلاثين ألف صورة كلها مغمور بروح الفن اللاشعورى حين يتناول الطبيعة في شتى صورها ؛ فقد رسم - محباً لما رسم مكرراً له في أوضاع مختلفة - رسم الجبال والصخور والأنهار والجسور ومساقط الماء والبحر ، وحدث بعد أن فرغ من نشره لكتاب « ست وثلاثين صورة من مناظر فيوجى » أن قفل راجعاً ليجلس عند سفح الجبل المقدس من جديد ، : كما فعل الكاهن البوذى المفتون الذى تروى عنه الأساطير^(*) ، وهناك رسم « مائة منظر من فيوجى » ، ونشر سلسلة أسماها « أخيلة الشعراء » عاد فيها إلى الموضوعات الرفيعة التى كان يتناولها الفن اليابانى من قبل ، وكان من بين هذه المجموعة منظر يصور « لى بو » العظيم بجانب الوادى الصخرى ومستقط الماء يطلق عليهما « لو » .

وفى سنة ١٨١٢ . نشر الجزء الأول من مجموعة قوامها خمسة عشر جزءاً ،

(٥) الكاهن الذى يروى عنه أنه أبعد من اليابان نفياً ، فجعل يعبر البحر بموكبه كل يوم لينظر إلى « الجبل المقدس » .

أسماءها « مانجو » - وهى سلسلة من صور واقعية تشتمل على الأخص تفصيلات الحياة اليومية الحارية تلذع بما فيها من فكاهة ، وتفحش بما تحتوى عليه من تشهير مُقنَّع ، وقد كان يثر هذه الصور نثراً دون عناية أو مجهود ، فيخرج منها اثنى عشرة كل يوم حتى صور بها كل ركن من أركان الحياة الشعبية فى اليابان ، ولم تكن الأمة قد شهدت قط من قبل مثل هذه الخصوبة ولا مثل هذا التصور العقلى السريع النافذ ، ولا القدرة على التنفيذ بكل هذه الحيوية الجارحة ، وكما أن رجال النقد فى أمريكا قد قللوا فى حسابهم من شأن « وِثمان » فكذلك قلل رجال النقد ودوائر الفن فى اليابان من شأن « هوكوساى » فلم يروا إلا فورة فرجونه وسوقية عقله التى تبدى آنأ بعد آن ، لكن جيرانه لما مات - جيرانه الذين لم يكونوا يعلمون أن « وِسلر » قد أخذه التواضع لحظة فوضعه فى أعلى منزلة من منال الفن التى لم يحتلها أحد سواه منذ « فلاسكويز » - أقول إنه لما مات دهش جيرانه حين رأوا كل تلك الجنازة الطويلة تنبعث من ذلك المنزل المتواضع .

وأخر شخصية برزت من مدرسة « يوكيوني » هو « هيروشيغى » (١٧٩٦ - ١٨٥٨) الذى يقل شهرة عن « هوكوساى » فى البلاد الغربية ، لكنه أكثر منه احتراماً فى الشرق ، وتنسب إليه مائة ألف صورة حفزية متميزة الخصائص ، وكلها يصور المناظر الطبيعية فى بلاده تصويراً فيه من الإخلاص ما ليس فى رسوم « هوكوساى » ، وفيه فنٌ أنزل « هيروشيغى » منزلة قد تجعله أعظم من صور المناظر الطبيعية من أهل اليابان ؛ فقد كان « هوكوساى » إذا وقف إزاء الطبيعة لا يرسم المنظر كما يبدو ، بل يرسم خيالاً شاطئاً يوحى إليه بالمنظر الذى يراه ، أما « هيروشيغى » فقد أحب الطبيعة نفسها بشتى صورها ، ورسمها بدرجة من الإخلاص تمكن الرحالة الذى يمر بالأجزاء التى رسمها أن يتبين الأشياء والسفوح التى أوحى إليه بصوره تلك ،

وفي وقت يقع حوالى سنة ١٨٣٠ أخذ طريقه فى السكة الرئيسية الى تمتد من طوكيو إلى كيوتو ، فكان فى رحلته شاعراً بأدق معنى الشاعرية حين لم يقصد تَوَّأ إلى غايته المقصودة ، بل سمح لنفسه أن تنشغل بالمناظر التى استثارته وهو فى الطريق ؛ فلما فرغت رحلته جمع انطباعاته بتلك المناظر فى مجموعة له مشهورة اسمها « المحطات الثلاثة والخمسون على الطريق العام » (١٨٣٤) ، وقد أجب رسم المطر والليل فى كل صورهما المشبعة بروح الغموض ، ولم يفقنه فى ذلك إلا « ويسلر » الذى جرى على غراره فى رسمه لمناظر المساء (٨٨) ، وكذلك أحب « هيروشيغى » « فيوجى » كما أحبا « هوكوساى » ورسم لجبالها « المناظر الستة والثلاثين » غير أنه أحب معها مسقط رأسه « طوكيو » ، ورسم « مائة منظر من مناظر ييدو » قبيل موته ، ولئن لم يعمّر ما عمّره « هوكوساى » إلا أنه أسلم شعلة الفن وهو مطمئن لما صنع :

إنى أترك فرجونى فى « أزوما »

وأتابع رحلتى « إلى الغرب المقدس »

لكى أشاهد المناظر المشهورة هناك (*) (٨٩)

(*) يوجد فى متحف بوسطن مجموعة رائعة من الرسوم الخفية التى رسمها هيروشيغى

الفصل الحادى عشر

فتح اليابان وحضارتها

مراجعة - موازنات - تقدير - غاتمة اليابان القديمة

كانت الرسوم الحفرية فى اليابان آخر مرحلة تقريباً من مراحل تلك المدنية اللطيفة الرقيقة التى اندك بناؤها تحت ضغط الصناعة الغربية ، كما أن تشاؤم العقل الغربى ومرارة نظراته إلى العالم اليوم ، قد يكونان آخر مظهر من مظاهر مدنية أراد لها القضاء أن تموت تحت وطأة الصناعة الشرقية ؛ ولما كانت اليابان فى عصورها الوسطى التى امتدت حتى عام ١٨٥٣ غير ذات أذى لنا ، كان فى استطاعتنا أن نقدر جمالها تقديرأ فيه العطف والرعاية ؛ وإنه لمن العسير علينا أن نرى فى اليابان بعد أن أقامت المصانع التى تنافس مصانعنا ، وأقيمت بها المدافع التى تهدد سلامنا ، من العسير علينا أن نرى فى مثل هذه اليابان ذلك السحر الذى يفتننا حين ننظر إلى مختارات ماضيها الجميلة ؛ وقد ننظر أحياناً نظرة عقلية هادئة ، فنذكر أن تلك اليابان القديمة شهدت كثيراً من العسف ، وأن الفلاحين كانوا يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وأن النساء كن إماء يُبْعَن وقت الشدة لمتعة من شاء أن يستمتع ، وأن الحياة كانت رخيصة وأنه فى النهاية لم يكن ثمت قانون يحمى الرجل من سواد الشعب إلا سيف « السيف » ؛ لكن الأمر فى أوروبا كان على هذه الحال نفسها : كان الرجال يصطنعون القسوة وكانت المرأة خاضعة للرجل ، وكان الفلاحون يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وكانت الحياة عسيرة والفكر الحر مجلبأ للخطر ، ولم يكن فى النهاية من قانون سوى إرادة سيد الإقطاع أو الملك .

وكما أننا قد نشعر بالحب لأوروبا القديمة التى شهدت كل هذا ، لأنها وسط

ما منحروها من فقر واستغلال وتعصب ، استطاع أهلها أن يبنوا الكنائس بناء يعنون فيه بنحت كل حجر من أحجاره نحتاً جميلاً ؛ وراحوا يضحون بأنفسهم ليكسبوا لخلفهم حق التفكير ؛ أوكانوا يقاتلون في سبيل العدالة حتى خلقوا بقتلهم تلك الحريات المدنية التي هي أنفُس جزء من تراثنا وأكثره تعرضاً للزوال ؛ فكَذلك كان وراء صليل سيوف السياقين (في اليابان) ما يستحق التمجيد من شجاعة لا تزال تثبت في اليابان قوة فوق ما يتناسب مع عدد أهلها أوكية تراثها ، وكذلك نستطيع أن نتبين وراء الرهبان الكسالى شاعرية البوذية ، وقدرتها التي لا تنفذ على الإيحاء بالشعر والفن ؛ ونستطيع كذلك أن نستشف وراء الصفة القوية التي تتم عن القسوة ، والواقعة الظاهرة التي يعامل بها القوى الضعيف ؛ نستطيع أن نستشف وراء هذا كله أرق ضروب الأخلاق ، وأبهج ألوان المحافل ، وإخلاصاً للجمال الطبيعة في كل صورها لا يدانيه إخلاص ، ثم نستطيع أن نرى وراء استعباد المرأة ، جمالها ورقتها ورشاقها التي لا تنافسها فيها امرأة أخرى ؛ ووسط مظاهر الاستبداد الذي يظل الأسرة ، ترن في أذاننا أصوات السعادة تنبعث من الأطفال وهم يلعبون في جنة الشرق .

إن شعر اليابان الذي يضبط فيه الشاعر نفسه ضبطاً يؤديه إلى الاقتضاب ، والذي تستحيل ترجمته ، لا يحرك اليوم مشاعرنا تحريكاً قوياً ؛ ومع ذلك فهذا الشعر نفسه - فضلاً عن الشعر الصيني - هو الذي أوحى لنا « بالشعر المرسل » و « التصوير الشعري » اللذين نعهدهما في شعرنا اليوم ؛ ولم تعرف اليابان إلا قليلاً من الفلاسفة ، وكذلك يندر جداً في مؤرخيها أن تجد روح الحياء الرفيع الذي يصادفك عند قوم لا يكتبون الكتب لتكون ملحقاً لقوتهم العسكرية أو السياسية ؛ لكن هذه أشياء تعدّ من الصغائر في حياة اليابان ، لأنها أنفقت جهدها كله في اتجاه حكيم ، وهو أن تخلق صور الجمال أكثر مما تتعقب الحق ، وكانت الأرض التي عاش عليها اليابانيون أشد غدراً من أن تقوم عليها عمارة

شائعة ، ومع ذلك فالدور التي كانت تبنيها تلك البلاد هي « أجمل ما خططه العالم من دور إذا نظرنا إليها من وجهة نظر جمالية » (٩٠) ولم ينافسها في العصور الحديثة بلد آخر في رشاقة تحفها الصغيرة وجمالها — كتياب النساء والمراوح والشمسيات، والفناجين ولعب الأطفال، والمدليات والعقد الحريرية المزخرفة، وروعة الطلاء « باللاكيه » والنحت الرائع في الخشب ، ولم يبلغ أى شعب حديث ما بلغه الشعب الياباني من ضبط الزخارف ورقتها ، أو من شيوع اللوق المرفف الأصيل ، نعم إن الخزف (البورسلان) الياباني لا ينزل في التقدير — حتى في نظر اليابانيين أنفسهم — منزلة الخزف الذي كان يصنع في « صنج » و « منج » (في الصين) لكنه إن كانت الصين وحدها قد بزتها في تلك الصناعة ، فإن عمل الخزاف الياباني ما يزال يعلو على مثيله من نتاج الأوروبيين المحدثين ؛ ولئن كان التصوير الياباني تعوزه قوة التصوير الصيني وعمقه ، ثم لئن كانت الرسوم الحفرية اليابانية قد تسوء حتى تبلغ أن تكون مجرد رسوم للإعلان ، وهي في أجود حالاتها لا تريد على كونها إثباتاً سريعاً لنوافه كانت قيمة أن تزول وشيكاً ، فأضيف إليها شيء مما يميز الفن الياباني من تمام الرشاقة وكمال التخطيط ، فإن التصوير الياباني — لا التصوير الصيني — وإن الرسوم الحفرية اليابانية لا ألوانها المائتة ، هي التي أحدثت الثورة في فن التصوير إبان القرن التاسع عشر ، وهي التي كانت حافزاً لإجراء مئات التجارب الفنية البديعة الطريفة ؛ ولما أعيد التبادل التجاري بعد سنة ١٨٦٠ بين أوروبا واليابان كانت تلك الرسوم الحفرية التي تدفقت إلى أوروبا في ذيل التجارة ، هي التي أثرت أعمق الأثر في « مونه » و « مانيه » و « ديجا » و « وسلر » فهؤلاء قد أقاموا إلى الأبد عن « الصلصة البنية اللون » التي لازمت التصوير الأوروبي كله تقريباً من « ليوناردو » إلى « ميليت » وملاؤا رقع التصوير في أوروبا بصور الشمس ، واستحثوا المصور الفنان أن يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى الفوتوغرافي ؛ يقول « وسلر » في اعتداد جعل

الناس جميعاً إلا معاصريه يكبرونه » لقد تمت بالفعل قصة الجبال ، لأنه تبدى منحوتاً في المرمر الذى تراه في البارثنون ، ولأنه مؤشئ على هيئة الطير في المروحات التى رسمها « هوكوساى » على سفح فيوجى ياما « (١٩) .

وإننا لرجو ألا يكون هذا القول صواباً ، لكنه كان هو الصواب فى رأى اليابان القديمة وإن لم تصرح به ؛ وماتت اليابان القديمة بعد « هوكوساى » بأربعة أعوام ، ذلك لأنها عاشت حياة وادعة رحية فى عزلتها البعيدة ، فنسيت أن الأمة لا بد أن تسير العالم إذا أرادت ألا يستعبدوها المستعبدون ، فبينما كانت اليابان فى شغل من نحتها للمدليات وزخرفتها للمروحات بالزهر ، كانت أوروبا تنشىء علماً لم يكده العلم الشرق عنه شيئاً ، وأخيراً تمكن ذلك العلم الذى قام بناؤه على مر الأعوام فى المعامل التى يبدو فى ظاهرها أنها فى عزلة بعيدة عن مصطخب الحياة الحارية ، تمكن آخر الأمر من تزويد أوروبا بالصناعات الآلية التى أتاحت لها أن تصنع لوازم العيش بثمن أرخص مما تصنعها به آسيا على أيدي مهرة صناعها الذين كانوا يصنعونها بأيديهم ، وإن تمكن تلك المصنوعات الآلية أقل جمالا من زميلاتها اليدوية ، فقد كان لا بد لتلك السلع الرخيصة - عاجلا أو آجلا - أن تكتسح أسواق آسيا ، فتزول الخراب الاقتصادية وتغير من الحياة السياسية ، فى بلاد كانت تفرح مطمئنة فى مرحلة الصناعة اليدوية ، وأسوأ من ذلك شراً أن العلم قد صنع المفرقات والمدمرات والمدافع ، التى تستطيع أن تكون أشد فتكاً من سيف أشجع « السيفين » فإذا تجدد شجاعة الفارس أمام فزع القنبلة التى لا يعرف اسم راميا ؟

ولن تجد فى التاريخ الحديث أروع ولا أعجب من الطريقة التى استيقظت بها اليابان من نعاسها استيقاظاً جازعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلم الدرس ، وأصلحت صنع ما تعلمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصناعة والحرب ، ثم هزمت كل منافسيها فى ميدان الحرب وميدان التجارة معاً وبانت خلال جيلين أكثر أمم العالم المعاصر تحنّزاً للعدوان .

الباب الحادى والثلاثون

اليابان الجديدة

الفصل الأول

الثورة السياسية

تدفور الحكم المسكرى - أمريكا تطرق الباب - عودة السلطة الإمبراطورية
تغريب يابان - التجديد السيامى - الدستور الجديد - القانون - الجيش
الحرب مع روسيا - نتائجها السياسية

يندر أن يأتى الموت إلى مدينة من خارجها ، بل لا بد للانحلال الداخلى أن
يفت فى نسيج المجتمع أولاً قبل أن يتاح للمؤثرات أو الهجمات الخارجية أن
تغير جوهر بنائها ، أو أن تقضى عليها قضاء أخيراً ؛ فقلما يكون للأسرة
الحاكمة تلك الحيوية الدعوب والمرونة السريعة التشكل ، اللتان يتطلبهما استمرار
السيادة ، فؤسس الأسرة المالكة يستنفد نصف القوة الكامنة فى أصلاب
أسرته ثم يترك لغير الممتازين من خلفه عبئاً لا يستطيع حمله إلا العباقره ؛
فأسرة «توكوجاوا» بعد «أياسو» حكمت البلاد حكماً لا بأس به ، لكننا
لو استثنينا منها «يوشيمونى» لما وجدنا بين أفرادها شخصيات بارزة تستوقف
النظر ؛ فما انقضت بعد موت «أياسو» ثمانية أجيال حتى راح أمراء الإقطاع
يزعزعون قوائم تلك الأسر العسكرية بثوراتهم التى ما فتئت تنهض حيناً بعد
حين ؛ فكانوا يسوفون فى دفع الضرائب أو يمتنعون عن دفعها ؛ وعجزت
خزانة «ييدو» - بالرغم من التدابير الاقتصادية العنيفة التى اتخذت - عن
تمويل الدفاع القومى أو صيانة الأمن فى البلاد^(١) . وقد مر على البلاد أكثر من

قرنين حيث ساد السلام فتطرت خشونة « السيفين » وضعف احتمال الشعب لكاره الحروب وتضحياتها ؛ وحلت في الناس نزعات أبيقورية (ترمى إلى التمتع) محل البساطة الرواقية التي كانت سائدة في عهد هيدوشي ؛ فلما أن دعيت البلاد فجأة لحماية سيادتها ، وجدت نفسها منزوعة السلاح بمعناه المادى والخلقى جميعاً ؛ وانحل العقل اليابانى بفعل اعتزالها الاتصال بالأجانب ، وأخذ الناس يسمعون بتطلع قلق عن ازدياد الثروة وتغير المدنية في أوربا وأمريكا ؛ وراح هؤلاء الناس يدرسون ما جاء بكتابى « مابوشى » و « موتو - أورى » وشاع بينهم في الخفاء أن الحكام العسكريين مغتصبون للحكم ، وقد فككوا باغتصابهم ذلك استمرار سيادة الإمبراطورية ، ولم يستطع الشعب أن يوفق بين الأصل الإلهى للإمبراطور ، وبين فقره المدقع الذى فرضته عليه أسرة « توكوجاوا » ؛ وجعل الدعاة إلى قلب نظام الحكم العسكرى القائم ، يخرجون من مكانهم في « يوشيوارا » وغيرها ويغمرون البلاد بنشراتهم التي تحرض الناس على ذلك الانقلاب ، وإرجاع الإمبراطور للحكم .

ونزلت النازلة على رأس هذه الحكومة المرتبكة الفقيرة ، حين شاع النبأ سنة ١٨٥٣ بأن أسطولاً أمريكياً قد تجاهل الأوامر اليابانية التي تحرم دخول خليج أوراجا ، ودخل ذلك الخليج ، وأن قائده يلح في مقابلة صاحب السلطة العليا في اليابان ، والحقيقة أن « الكومودور پرى » كان يقود أربع سفن حربية فيها خمسمائة وستون رجلاً ، وبدل أن يعرض هذه القوة المتواضعة عرضاً فيه معنى التهديد ، أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكرى « أيبوشى » يؤكد له أن الحكومة الأمريكية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موانىء يابانية في وجه التجارة الأمريكية ، واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة الأمريكين الذين قد تتحطم بهم سفائنهم على الشواطئ اليابانية ، ولم يلبث (پرى) أن اضطر إلى العودة إلى قاعدته في المياه الصينية بسبب (ثورة تاي - ينج) ؛ لكنه عاد إلى اليابان من جديد سنة ١٨٥٤ مسلحاً بقوة بحرية أكبر ، ومزوداً

بمختلف المادايا المغربية — عطور وساعات ومدافئ وشراب الوسكى . . .
يقدمها للإمبراطور والإمبراطورات وأمرء البيت المالك ؛ غير أن الحاكم
لعسكرى الحديد « أيسادا » تعمد ألا يرسل هذه الهدايا إلى أفراد الأسرة
المالكة ، ووافق على توقيعه لمعاهدة « كاناجاوا » التى اعترفت بكل ما طلبه
الأمريكان ؛ وهنا أثنى « پرى » على حسن لقاء أهل الجزر اليابانية ، وأعلن
مدفوعاً بقصر نظره أنه « لوجاء اليابانيون إلى الولايات المتحدة ، وجدوا المياه
الصالحة للملاحة فى البلاد مفتوحة أمامهم ، وأنه ستفتح لهم أبواب مناجم
الذهب نفسها فى كليفورنيا » (٢) وهكذا فتحت الموانئ اليابانية الكبرى للتجارة
الخارجية بمقتضى هذه المعاهدة وما تلاها من معاهدات ؛ وحددت الضرائب
الجمركية وفصلت مقاديرها وأنواعها ؛ ووافق اليابانيون على أن يحاكم
المنهمون من الأوربيين والأمريكيين فى اليابان أمام محاكمهم القنصلية ؛
واشترطت شروط اتفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية فى الإمبراطورية
اليابانية ، ووافقت الولايات المتحدة فى الوقت نفسه أن تباع لليابان كل
ما تحتاج إليه من أسلحة وسفن حربية ، وأن تعيرها الضباط والصناع لعل
هذه الأمة المسالمة مسالمة صيبانية أن تتعلم على أيديهم فنون القتال (٣) .

وعانى الشعب اليابانى أقسى عناء مما فرضته هذه المعاهدات عليه من
فروض الذل ، ولو أنه عاد فنظر إليها على أنها أدوات محايدة جاءت لتعمل على
تطوره ، وتقدير مصيره ؛ وود بعض اليابانيين أن يقاتل الأجانب مهما تكلف
فى سبيل ذلك ، وأن يطردهم ويعيد للبلاد نظامها الزراعى الإقطاعى الذى
يكفيها مؤونة الاعتماد على غيرها ؛ لكن بعضهم الآخر كان من رأيه أن
تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم ؛ فالوسيلة الوحيدة التى تستطيع
بها اليابان أن تتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادى الذى يشبه
ما كانت أوروبا تفرضه عندئذ على الصين ؛ هى أن تتعلم اليابان بأسرع طريقة
ممكنة أساليب الصناعة الغربية ، وفن الحرب الحديثة ؛ وهنا نهض الزعماء

الداعون إلى تغريب البلاد، واستعملوا اللباقة البالغة في استخدام سادة الإقطاع أعواناً لهم في قلب الحكم العسكري، وإعادة الإمبراطور، وبعدئذ استخدموا السلطة الإمبراطورية في قلب نظام الإقطاع وإدخال الصناعة الغربية في البلاد، وهكذا حدث سنة ١٨٦٧ أن حمل أمرا الإقطاع «كيكى» — آخر الحكام العسكريين — على النزول عن سلطته، وقد قال «كيكى»: «إن معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة، وإنى لأعترف خجلاً بأن الأمور في وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أنصف به أنا من نقص وعجز، وهاموذا اتصالنا بالأجانب يزداد يوماً بعد يوم؛ فإلم تتول إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة، انهار بناء الدولة انهياراً من أساسه»^(٤)؛ وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور «ميچی» في اقتضاب قائلاً: «قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكى من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطوري، وفي اليوم الأول من يناير سنة ١٨٦٨ بدأ العهد الجديد «عهد ميچی» بداية رسمية.

وروجعت الديانة الشنتوية القديمة، وقام أولو الأمر بدعاية قوية في الشعب حتى أقنعوه بأن الإمبراطور العائد إلى عرشه إلهي النسب والحكمة، وأن ما يصدره من مراسم يجب طاعته، كما يجب طاعه أوامر الآلهة.

فلما أن توفرت هذه القوة الحديدية لأنصار التغريب تمت على أيديهم معجزة أو ما يوشك أن يكون معجزة في تحول البلاد تحولاً سريعاً؛ فقد شق «إتوا» و«إتوي» طريقهما إلى أوروبا رغم كل ما صادفهما من صعاب وعقبات، ودرّسا أنظمتها وصناعاتها، ودهشا لطرقتها الحديدية وسفنها البخارية، وأسلاكها البرقية وسفنها الحربية، ثم عادا إلى بلادها تشتعل في صدرهما الحماسة الوطنية نحو تحويل اليابان إلى صورة أوروبية، فدعى رجال من الإنجليز للإشراف على بناء السكك الحديدية وإقامة الأسلاك البرقية وتكوين الأسطول، كذلك دعى رجال من الفرنسيين ليعيدوا صياغة القوانين ويدربوا

الجيش ، وكلف رجال من الألمان بتنظيم شئون الطب والصحة العامة ، واستخدم الأمريكان في وضع نظام للتعليم العام ، ولكي يتم لهم الأمر من جميع نواحيه جاءوا برجال من إيطاليا ليعلموا اليابانيين النحت والتصوير^(٥) ، وقد كان يحدث بعض الحركات الرجعية أحياناً ، وكانت تصل هذه الحركات إلى حد إراقة الدماء ، بل كانت الروح اليابانية كلها تنور آنأ بعد آن على هذا التحول المصطنع الذي رج أوضاع الحياة كلها ، لكن الآلة شقت طريقها آخر الأمر ، ودخلت اليابان بلداً جديداً في نطاق الانقلاب الصناعي .

ورفعت هذه الثورة بالطبع (وهي الثورة الوحيدة الحقيقية في التاريخ الحديث) ، طبقة جديدة من الرجال إلى منازل الثروة والقوة الاقتصادية ، — منهم الصناع والتجار والممولون — وقد كان هؤلاء في اليابان القديمة يوضعون في أسفل درجات السلم الاجتماعي ؛ وجعلت هذه الطبقة (البرجوازية) الصاعدة تستخدم في هدوء ما أتيح لها من مال وقوة نفوذ في تحطيم النظام الإقطاعي أولاً ، ثم عقبته على ذلك بالحد من سلطة العرش العائدة بحيث جعلت منها سلطة وهمية ؛ ففي عام ١٨٧١ حملت الحكومة أشرف الإقطاع على النزول عن امتيازاتهم القديمة ، وعوضتهم عن أراضيهم بسندات أصدرتها الحكومة(*) .

ولما كانت الطبقة الأرستقراطية القديمة قد ارتبطت هكذا بروابط المصلحة المادية مع المجتمع الجديد ، فقد بذلت خدماتها للحكومة عن ولاء ورضى ، ومكنتها من تحويل البلاد من عصرها الوسيط إلى عصرها الحديث دون أن تسفك الدماء في هذا السبيل ، وكان « إيتو هيرو بومي » قد عاد لتوه من زيارته الثانية لأوروبا ؛ فجري في بلاده على غرار ما رآه في ألمانيا ، إذ أنشأ بها طبقة عالية جديدة مؤلفة من خمس درجات :

(٥) كان هذا الإجراء يقابل في جوهره إلغاء النظام الإقطاعي وما يتبعه من عبودية في فرنسا سنة ١٧٨٩ وفي روسيا سنة ١٨٦٢ ، وفي الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ .

أمير ؛ فاركيز ، فكونت ، ففيكونت ، فبارون .
لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا هم الأعداء الإقطاعيين للنظام الصناعي الجديد
بل كانوا لهذا النظام أعوانه المأجورين .

جاهد « إيتو » في تواضعه جهاداً لم يعرف الكلل ، ليحقق ميلاده ضرباً
من الحكومة لا تعيبه العيوب التي بدت في عينيه عيوباً ناشئة من الإفراط
في الديمقراطية ، على ألا يحد ذلك من تجنيد أصحاب النبوغ وتشجيعهم
مهما تكن طبقتهم الاجتماعية لكي يحققوا للبلاد رقياً اقتصادياً سريعاً ؛
وتمكنت اليابان في ظل زعامته أن تعلن أول دستور لها سنة ١٨٨٩ ؛ فكان
الإمبراطور في قمة البناء التشريعي ، إذ كان من الوجهة الدستورية رأس
الحكومة الأعلى ، ومالكاً للأرض كلها ، وقائداً للجيش والأسطول المشولتين
أمامه وحده ، وهو الذي يُكسب الإمبراطورية وحدتها واستمرارها وقوتها
وسمعتها المستمدة من سمعة مليكتها ، وقد شاءت إرادته الكريمة أن يفوض
لقوته التشريعية إنشاء مجلسين نيابيين يظلان قائمين ما شاء هولما أن يقوموا -
مجلس الأشراف ، ومجلس النواب ، غير أنه هو الذي يعين وزراء
الدولة ، الذين يسألون أمامه وحده لا أمام مجلس البرلمان ، وكان تحت هؤلاء
طبقة من الناخبين عددها يقرب من أربعمائة وستين ألفاً حصروا في هذه الدائرة
الضيقة باسئراط مؤهلات كثيرة في الناخب من حيث مقدار ما يملكه ؛
ثم ارتفع عدد الناخبين بفعل حركات تحريرية متعاقبة حتى بلغ ثلاثة عشر
مليوناً في سنة ١٩٢٨ ، ولكن فساد الحكومة كان يساير التوسع في الديمقراطية
خطوة خطوة (٦) .

وساير هذا التقدم السياسي نظام تشريعي جديد (١٨٨١) قائم إلى حد
كبير على تشريع نابليون ، وهو يحقق خطوة تقدمية جريئة بالنسبة لتشريع
العصور الوسطى التي ساد فيها نظام الإقطاع ؛ فنحت للناس حقوقهم المدنية
منحاً سخياً - إذ منحت لهم حرية الكلام وحرية الصحافة وحرية الاجتماع

وحرية العبادة وعدم انتهاك الرسائل والبيوت ، والحصانة من القبض والعقاب إلا بإجراء قانوني(*) ، وحرمة التعذيب والمحنة وفكت عن جماعة الـ «إيتا» قيودهم الطبقية ، وسوّى بين الطبقات كلها أمام القانون من الوجهة النظرية ، وأصلحت السجون ، ودفعت الأجور للمسجونين على عملهم ، حتى إذا ما أطلق سراح المسجون أعطى مبلغاً من المال متواضعاً يبدأ به حياة جديدة في زراعة أو تجارة ؛ وعلى رغم ما أناحه هذا التشريع للناس من حرية ، فقد ظلت الجرائم قليلة الحدوث^(١) .

ولو اعتبرنا رضى الناس بالقانون عن طوعية علامة على مدنيّتهم ، عدّدنا اليابان في طليعة الأمم الحديثة حضارة (إذا استثنينا عدداً قليلاً من حوادث الاغتيال) .

ولعل أهم ما يميز الدستور الجديد هو إعفاء الجيش والأسطول من كل رئاسة لإلارئاسة الإمبراطور ، فإن اليابان لم تنس قط ما وقع لها من ذل في عام ١٨٥٣ ، ولذا صممت على إنشاء قوة عسكرية تمكنها من السيطرة على تقرير مصيرها بنفسها ، وتجعلها في النهاية سيدة الشرق كله ، فلم يكفها أن تعمم التجنيد ، بل جعلت من كل مدرسة في البلاد معسكراً للتدريب الحربي ، وثندياً يرضع النشء بلبان الحماسة الوطنية ، وكان لهؤلاء الناس استعداد عجيب للنظام والطاعة ، سرعان ما انتهى بقوتهم العسكرية إلى درجة أتاحت لليابان أن تتخاطب «الأجانب المجمع» مخاطبة الندلند ، كما أتاحت لها احتمال ابتلاعها للصين جزءاً جزءاً ، وهو أمل طاف برأس أوروبا ، لكنه لم يتحقق لها ، وحدث عام ١٨٩٤ أن أرسلت الصين حملة عسكرية لإخماد ثورة في كوريا ، وأن لبثت نعيد وتكرر القول بأن كوريا دولة تابعة لسلطة الصين ، فلم يعجب اليابان هذا كله ، وأعلنت الحرب على معلمتها القديمة ، وأدهشت العالم بسرعة

(*) أدت حى الحرب اتى اقتنصها مغامرة منشوريا إلى التضيق من هذه الحقوق تضييقاً شديداً .

نتصارها إذ أرغمت الصين لإرغاماً على الاعتراف باستقلال كوريا ، وعلى لتنازل لها عن « فرموزا » و « بورت آرثر » (على رأس شبه جزيرة لياوتنج) وعلى دفع تعويض مالى قدره مائتا مليون من التيلات ، وقد أيدت ألمانيا وفرنسا الروسية فى « نصحتها » لليابان بالانسحاب من « بورت آرثر » مقابل زيادة فى تعويضها المالى قدرها ثلاثون مليوناً من التيلات (والزيادة تدفعها الصين) وخضعت اليابان لما طلب إليها ، لكنها احتفظت بذكرى هذه المعاكسة على مضض ، وراحت ترقب فرصة الانتقام .

ومنذ تلك الساعة أخذت اليابان تعد نفسها إعداداً جاداً لا يعرف اللهو ، تعد نفسها للصراع مع روسيا صراعاً كان لا بد من وقوعه نتيجة اتساع الإمبراطوريتين فى آمالهما الاستعمارية ، ونجحت اليابان فى إثارة مخاوف إنجلترا من احتمال التوغل الروسى فى الهند فأبرمت مع سيدة البحار تحالفاً (١٩٠٢ - ١٩٢٢) ، تعهدت به كل من الدولتين أن تساعد الأخرى إذا ما اشتبكت فى قتال مع دولة ثالثة ودخلت دولة أخرى فى القتال ، وقبلما وقع السلسلة الإنجليز على ما يقيد حريتهم كل هذا التقييد الذى فرضته عليهم تلك المعاهدة ، فلما بدأت الحرب مع روسيا سنة ١٩٠٤ أقرض الممولون الإنجليز والأمريكان أموالاً طائلة لليابان ، لتعينها على كسب النصر من القيصر^(٨) ، واستولى « نوجى » على « بورت آرثر » وزحف بجيشه نحو الشمال قبل فوات الفرصة لإخماد مذبحه « مكدن » - وهى أفضح ما شهد التاريخ من مواقع دامية ، قبل أن يشهد حربنا العالمية (الأولى) التى لا يضارعها مضارع ، والظاهر أن ألمانيا وفرنسا فكرتا فى مساعدة روسيا بالسياسة أو بالسلاح ، لكن الرئيس روزفلت صرح عندئذ بأنه إذا حدث شئ كهذا ، فلن يتردد فى الوقوف إلى جانب اليابان^(٩) ، وفى ذلك الوقت ، أقام أسطول روسى قوامه تسع وعشرون سفينة ، وشق طريقه جريئاً حول رأس الرجاء الصالح ، مرتحلاً

بذلك رحلة لم يسبق لأسطول حديث أن ارتحل مثلها طولا ، وذلك لكي يقابل اليابان في مياهها وجهاً لوجه ، غير أن الأميرال « توجو » استعان لأول مرة في تاريخ الأساطيل البحرية باللاسلكى ، وظل على علم متصل بسير الأسطول الروسى ، ثم وثب عليه وثبة قوية في مضيق تسوشيا في السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٥ وأبرق « توجو » لقادته جميعاً رسالة تصور نفسية اليابان كلها . إذ قال : « إن نهوض الإمبراطورية أو سقوطها يتوقف على هذه المعركة » (١٠) فقتل من اليابانيين فيها ١١٦ ، وجرح منهم ٥٣٨ ، وأما الروس فقتل منهم أربعة آلاف ، وأسر سبعة آلاف ، وأغرقت أو أسرت كل سفنهم إلا ثلاثاً .

كانت « موقعة بحر اليابان » نقطة تحول في مجرى التاريخ الحديث ، فهي لم تقتصر على إيقاف التوسع الروسى في الأراضى الصينية ، بل أوقفت كذلك سيطرة أوربا على الشرق ، وبدأت ذلك البعث الذى اشتمل آسيا ، والذى يبشر بأن يكون محور الحركات السياسية كلها في هذا القرن الحاضر ، ذلك أن آسيا كلها قد دبّت فيها الحماسة حين رأت الإمبراطورية الجزرية الصغيرة تهزم أكثر دول أوربا عمراً بأهلها ، فدبرت الصين خطة لثورتها ، وبدأت تحلم بحريتها ، أما اليابان ، فلم يَطْف بياها أن توسع من نطاق الحرية ، بل فكرت في الزيادة من سلطانها ، فانتزعت من الروسياً اعترافاً بأن لليابان المكانة العليا في كوريا ، ثم ما جاءت سنة ١٩١٠ حتى أعلنت اليابان نهائياً ضم كوريا إليها رسمياً ، وهى تلك المملكة القديمة التى بلغت من المدنية يوماً شأوا عظيماً ، فلما مات الإمبراطور « ميچى » عام ١٩١٢ ، بعد حياة طويلة طيبة أنفقها حاكماً وفناناً وشاعراً استطاع أن يحمل معه إلى الآلهة الذين أنسلوا اليابان رسالة بأن الأمة التى خلقوها ، والتى كانت في بداية حكمه لعبة في يد الغرب الفاجر ، قد باتت اليوم رفيعة المكانة في الشرق ، وقطعت شوطاً بعيداً في طريقها نحو أن تكون محوراً للتاريخ كله . (١٢ - ج ٥ - مج ١)

الفصل الثاني

الانقلاب الصناعي

حركة التصنيع - المصانع - الأجور - الإضرابات -
الفقر - وجهة نظر اليابان

لم تلبث اليابان نصف قرن إلا وقد غيرت كل وجه من أوجه حياتها ، فتححرر الفلاح رغم فقره ، وأصبح في مستطاعه أن يملك جزءاً متواضعاً من الأرض يدفعه ضريبة سنوية أو أجراً سنوياً للدولة ، ولم يكن من حق أحد من سادة الإقطاع أن يقف في سبيله لو أراد أن يترك الزراعة ليلتمس وسيلة رزقه في المدن ، ذلك لأن مدناً عظمى قامت عندئذ على طول الساحل ، منها « طوكيو » (التي معناها العاصمة الشرقية) بقصورها الملكية والارستقراطية وحدائقها الفسيحة وحماماتها المزدهرة وعدد سكانها الذي لم يفقها فيه إلا لندن ونيويورك ، ومنها « أوساكا » التي كانت في سابق عهدها قرية للسمكة وحصناً ، فأصبحت اليوم جباً مظلماً من الأكواخ الخفية والمصانع وناطحات السحاب ، وهي مركز الصناعات في اليابان ، ومنها « يوكوهاما » و « كوبي » اللتين ترسلان من مرفأيهما الهائلين المعدين بكل ضروب الآلات الحديثة ، تلك الصناعات إلى مئات الموانئ ، محملة على ثاني أسطول تجارى في العالم (*) .

واستعانت البلاد في وثبتها من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالى باستخدامها لكل وسيلة ممكنة استخداماً لم يسبق له نظير ، فاستدعت الخبراء الأجانب اللذين وجلبوا من مساعديهم اليابانيين طاعة المتحرق لمعرفة إرشاداتهم ؛ ولم

(*) يدل الإحصاء الرسمى الأخير على أن سكان يوكوهاما ستمائة وعشرون ألفاً ، وسكان كوبي سبعمائة وسبعة وثمانون ألفاً ، وأوساكا ٢٠٤,١١٤,٢٠٠ ، وطوكيو المظلمى ٣١١,٠٠٠ و٣٠٠,٠٠٠ .

تمخص خمسة عشر عاماً ، حتى تقدم المتعلمون الأذكياء فيما تعلموه تقدماً أتاح لليابان أن تدفع للإخصائين الأجانب آخر أجورهم وأن ترسلهم إلى أوطانهم بكل إجلال ، واقتفت اليابان أثر ألمانيا ، فاستولت الحكومة على البريد والسكك الحديدية والتلغراف والتليفون ؛ لكنها في الوقت نفسه عرضت قروضاً سخية لمن يريد أن ينهض لنفسه بصناعة ما ، وجعلت تحمي تلك الصناعات الخاصة بالضرائب الجمركية العالية ، من منافسة المصانع الأجنبية في سائر الأقطار ؛ واستعانت البلاد بالتعويض المالى الذى أخذته من الصين بعد حرب سنة ١٨٩٤ على تمويل حركة التصنيع في اليابان وتشجيع الصناعات على نحو ما استعانت ألمانيا بالتعويض الفرنسى سنة ١٨٧١ على استحداث حركة التصنيع في أرضها ؛ وشبهت اليابان ألمانيا قبل ذلك بجبل واحد ، في قدرتها على البدء بآلات حديثة مقرونة بطاعة من العمال كالتى سادت في عصور الإقطاع ، على حين كانت الدول الأخرى المنافسة لها ، تعاني من آلات قديمة وعمال ثائرين ، وكانت مصادر القوة في اليابان رخيصة والأجور قليلة ، كما كان العمال يخضعون لرؤسائهم خضوع الولاء ؛ لهذا تأخرت عندهم قوانين تنظيم المصانع ، وفرضت على العمال فرضاً لا عنف فيه^(١٢) وفي سنة ١٩٣٣ كنت ترى مغازل «أوساكا» الجديدة لا تحتاج إلى أكثر من فتاة واحدة لكل خمس وعشرين آلة ، بينما كانت مغازل لانكشير القديمة تتطلب رجلاً لكل ست آلات^(١٣) .

وتضاعف عدد المصانع ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ ؛ ثم تضاعف مرة أخرى بين ١٩١٨ و ١٩٢٤ ، حتى إذا ما كانت ١٩٣١ زادت المصانع نصف عددها^(١٤) بينما كانت الصناعة في الغرب عندئذ تخوض أغوار أزمة عميقة ؛ وفي سنة ١٩٣٢ كانت لليابان الصدارة الأولى في تصدير المنسوجات بحيث أرسلت بليونى ياردة من الخمسة بلايين ونصف البليون من ياردات المنسوجات القطنية التى استهلكها العالم في ذلك العام^(١٥) ؛ وفي سنة ١٩٢١

تنازلت عن معيار الذهب ، وسمحت لعملتها الـ « ين » أن تهبط إلى أربعين في المائة من قيمتها السابقة في التجارة الدولية ، وبذلك استطاعت أن ترفع مبيعاتها في الخارج خمسين في المائة عما كانت بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ (١٦) ؛ وازدهرت التجارة الداخلية كما ازدهرت التجارة الخارجية ، وأتيح لأسرات تجارية كبرى ، مثل أسرقى « متسوى » و « متسويشي » أن تكسب ثروة طائلة جعلت رجال الجيش يتحالفون مع طبقات العمال في حركة ترمى إلى جعل الحكومة تتولى بنفسها ، أو تفرض رقابتها على الصناعة والتجارة (١٧) .

وبينما كان التقدم التجارى يخلق طبقة وسطى جديدة من الأغنياء ، كان العمال الذين ينتجون بأيديهم يتحملون عبء الأثمان المنخفضة التي جعلتها اليابان أداة تهزم بها منافساتها في الأسواق العالمية ؛ فكان متوسط أجر العامل سنة ١٩٣١-١٩١٧ من الريال كل يوم ، ومتوسط أجر العاملة ٤٨ سنتاً في اليوم وكان واحد وخمسون في كل مائة من العمال نساء ، كما كان اثنتا عشر في كل مائة ممن تقل سنهم عن ستة عشر عاماً (١٨) (**) وكانت الإضرابات كثيرة الوقوع

(*) لم ترق حركة النقل على اليابس بمثل ما ارتقت الحركة البحرية لأن السلسلة الفقرية الجبلية التي تمتد على طول البلاد ، جعلت التجارة تؤثر البحر ؛ لهذا ظلت الطرق رديئة القياس إلى الطرق في الغرب ، ولم تبدأ السيارات تهدد اليابان إلا منذ أمد قريب ؛ ومن الملاحظ الآن أن العربات التي يجرها الإنسان ، والتي جرى العرف على إرجاع تاريخها إلى ابتكاره بشر أمريكا في أوائل العقد الثامن من القرن الماضي (١٧) قد أخذت في الزوال اليوم أمام السيارات الأمريكية واليابانية ، ورصفت طرق طولها مائتا ألف ميل ؛ وفي طوكيو طريق مشقوق تحت الأرض يمكن مقارنته بنظامه في أوروبا وأمريكا مقارنة ترجع كفته على تلك النظراء ؛ ومدت أول سكة حديدية في اليابان سنة ١٨٧٢ على مسافة بلغ طولها ثمانية عشر ميلاً ، فلما كان عام ١٩٣٢ بلغت السكة الحديدية في تلك الجزر الضيقة ١٣٧٣٤ من الأميال ؛ ويقطع القطار المربع الحديد المسافة بين مدينة « دايرين » (بالقرب من بيرت آرثر ، وين « هسكنج ») وكانت تسمى شانجشون) عاصمة منشوريا ، وهي مسافة تبلغ سبعة كيلومتر ، وبواقع مائة وعشرين كيلو متراً في الساعة (أى نحو خمسة وسبعين ميلاً (١٨) .

(**) يرجع انخفاض أجور النساء إلى عوامل ، من بينها التقليل ذات التكاليف الباهظة التي تسببها العاملات اللاتي جرين على ترك الصناعة إذا ما توفر لديهن مهر انزواج .

والشيوعية تزداد اتساعاً ، حتى هبت على البلاد روح الحرب سنة ١٩٣١ ؛
فنفخت في الناس وطنية دعتهم إلى التعاون والتماسك ؛ وحرّم القانون « الآراء
الخطيرة » وفرضت قيود شديدة على نقابات العمال التي لم تبلغ قط مبلغ القوة
في اليابان^(٢٠) واتسعت رقعة المساكن الفقيرة في أوساكا وكوبي وطوكيو ،
فقد كانت الأسرة ذات الخمسة الأعضاء في طوكيو تسكن من تلك المنازل
الفقيرة غرفة تبلغ في المتوسط من ثمانى أقدام إلى عشرة أقدام مربعة - وهى
مساحة لا تزيد إلا قليلاً عن المساحة التى يشغلها سرير لشخصين ؛ وكان
يسكن في أمثال هذه المساكن في مدينة كوبي عشرون ألفاً من المتسولين
والمجرمين والشائهن والبغايا ؛ كانوا يسكنون في قذارة بلغت حدّاً جعل الوباء
يتفشى فيهم مرة كل عام ؛ وزادت نسبة الوفيات في الأطفال أربعة أمثال
ما كانت عليه في بقية اليابان^(٢١) ونهض شيوعيون مثل « كاتاياما » واشتركيون
مسيحيون مثل « كاجاوا » يقاومون بالعنف أو باللين تلك الحالة السيئة حتى
استيقظت الحكومة آخر الأمر ، وقامت بحركة تطهيرية لتلك المساكن الفقيرة ،
لم يشهد التاريخ أعظم منها .

وقد كتب « لافكاديو هيرن » منذ جيل ، يعبر عن رأيه الناقم على النظام
الحديث في اليابان ، فقال :

« إن التاريخ لم يشهد قط فيما مضى أمثال هذه الألوان من البؤس التي نجد
مجالها في ظل النظام الجديد ؛ وتستطيع أن تكون لنفسك صورة تقريبية عن
هذا البؤس ، إذا عرفت أن عدد الفقراء في طوكيو الذين يعجزون عن دفع
ضريبة المسكن ، يربو على خمسين ألفاً ، ومع ذلك فهذه الضريبة لا تزيد
قيمتها على عشرين « سنّاً » وهو ما يقابل عشرين « سنّاً » بالعملة الأمريكية
ولم يكن في أى جزء من أجزاء اليابان مثل هذا العوز قبل أن تراكم الثروة
في أيدي نفر قليل - إلا إذا استثنينا بالطبع الأعقاب المؤقتة التي تلحق عهود
الحرب^(٢٢) .

ولا شك أن « تراكم الثروة في أيدي نفر قليل » عام في العالم كله ، والظاهر

أنه عامل مصاحب للمدنية لا يتخلف ؛ ويقول الممولون اليابانيون ، إن أجور العمال هناك ليست أقل . مما ينبغي إذا روعى عدم كفايتهم في العمل نسبياً ، وإذا روعى إلى جانب ذلك رخص العيش في اليابان (٢٣) ، والرأى في اليابان هو أن الأجور المنخفضة شرط لازم لانخفاض الأسعار ، وانخفاض الأسعار شرط لازم للسيطرة على الأسواق الخارجية ، والأسواق الخارجية شرط لازم لصناعة تعتمد على حديد وفحم يستوردان من الخارج ؛ والصناعة شرط لازم لسد حاجات شعب يتزايد عدده في جزء لا تصلح الزراعة إلا في اثني عشر في كل مائة جزء من أجزاء أرضها ، وهى كذلك ضرورية لاكتساب الثروة وإعداد السلاح للذين بغيرهما لا تستطيع اليابان أن تحمى نفسها ضد عدوان الغرب .

الفصل الثالث

الانقلاب الثقافي

التغيير في الشباب - وفي آداب السلوك - الخلق الياباني - الأخلاق
والزواج في مرحلة انتقال - الدين - العلم - الطب في اليابان - الفن
والنقوش - اللغة والتعليم - القصص الطيبي - صورة جديدة من الشعر

إننا لنسأل هل تغير الشعب نفسه نتيجة للانقلاب الصناعي ؟ إن العين
لثلمح بعض ألوان التجديد ؛ فالبدلة الأوروبية المقبضة ذات الشعبتين ، قد
سيطرت على معظم سكان المدن ولقّت أبدانهم ، غير أن النساء مازلن يرتدين
ثياباً فضفاضة زاهية الألوان ، يربطها عند الوسط شريط مزخرف يلثم طرفاه
بعقدة عريضة عند الظهر(*) وكلما أصلحت الطرق حلت الأحذية محل
القباقيب الخشبية ؛ غير أن نسبة كبيرة من الجنسين ما تزال تمشي بأقدام
حافية سليمة من التشويه ؛ وإذا نظرت خلال المدن الكبرى ألفت كل
ضروب التشكيلات والتركيبات التي تجمع بين الثياب الوطنية والثياب
الغريبة ، كأنما أرادوا بذلك أن يرمزوا إلى تحول استُعْجِلَتْ خطواته فابتسر
ابتساراً .

ولا تزال آداب المعاملة عندهم نموذجاً « للتشريفات » الدبلوماسية ،
ولو أن الرجال ما برحوا عند عاداتهم القديمة في تقدمهم على النساء إذا مداخلوا
غرفة أو خرجوا منها ، أو مشوا في الطريق ، واللغة عندهم نسيج وحدها
في احتشامها فقل أن يداخلها فحش في اللفظ ، وتراهم يكسون بغطاء ظاهري
من التواضع احتراماً للنفس يبلغ حد التوحش ، وآداب السلوك قد تبلغ من
رقتها حدّاً يلطف من حدة العداوة مهما بلغت من استيلائها على النفوس :

(*) النساء المشتغلات بالتعليم أو الصناعة يرتدين ثياباً مفصلة عن الطراز الغربي ؛ على
أن الرجال والنساء معاً يتجنبون بعد ساعات العمل في ثيابهم التقاليدية .

والخلق الياباني — شأنه شأن الخلق الإنساني في كل بقاع الأرض — مؤلف من أشنات متناقضة لأن الحياة تضعنا في ظروف مختلفة كل حين ، وتطلب ، منا أن نأخذها بالشدة حيناً والرقه حيناً ، وبالسبر حيناً وبالصرامة حيناً ، وبالصبر حيناً والشجاعة حيناً ، وبالتواضع حيناً والكبرياء حيناً ، لهذا لا ينبغي لنا أن نأخذ على أهل اليابان جمعهم بين العاطفية والواقعية ، وبين رقة الإحساس وصرامة الحد في الحياة ، وبين طلاقة التعبير والكتمان ، وبين صرعة التأثير وكبح الجراح ؛ إنهم يغلب عليهم المرح والفكاهة وحب المتعة ، ويميلون إلى الانتحار الذي يروع المتفرج بمنظره ، وهم رقاق القلب — نحو الحيوان غالباً ونحو المرأة أحياناً — لكنهم قساة في بعض الأحيان على الحيوان والرجال(*) ، وإن الياباني الصادق في يابانيته ليتصف بكل صفات الحندي المحارب — الاعتداء والشجاعة والاستعداد للملاقاة الموت استعداداً لا يضارعه فيه مضارع ؛ ومع ذلك كله تراه في كثير من الأحيان يحمل بين جنبيه روح الفنان — فهو مرهف الحس سهل التأثير رقيق نشيط محب للاطلاع والبحث ذو ولاء وصبر ، وله قابلية شديدة لاستيعاب التفاصيل ، وهو ذو دهاء وحيلة ككل ذى جسد ضئيل ، وذكاؤه وقاد ، تراه لا يبرع في الخلق الفكرى ، لكنه قادر على الفهم السريع والاقتباس والمهارة العلمية ؛ ولقد اجتمعت في الياباني روح الرجل الفرنسى وغروره وشجاعة البريطانى وضيق أفقه ، وحرارة الإيطالى واستعداده للفنون ، ونشاط الأمريكى وميله للتجارة ، وحساسية اليهودى ودهاؤه .

ثم جاء اتصالهم بالغرب وصراعهم معه ، فغيروا حياة اليابان الاخلاقية

(*) حدث في الاضطراب الذى أعقب زلزال سنة ١٩٢٣ ، ان سكان يوكاهاما من اليابانيين — بينما كانت تقدم سفن النجدة الأمريكية بالقوت — استفلوا الشعب وذبحوا مئات (وقيل آلافاً) من دعاة التغيير ومن الكوريين العزل في الطرقات(٤٢) والظاهر أن وطنياً متحمساً قد أثار اليابانيين باعلانه أن الكوريين (الذين كانوا عدداً ضئيلاً) يدبرون قلب الحكومة وقتل الإمبراطور .

وطرائق السلوك فيها ، غير أن أمانتهم التقليدية(*) لا تزال قائمة بينهم إلى حد كبير ، وإن يكن التوسع في حقوق الانتخاب وحدة التنافس التي تلازم التجارة الحديثة ، قد أدخل في اليابان نصيبها النسبي من الرشوة التي هي من خصائص الحكم الديمقراطي ، والقسوة التي تتصف بها الحياة الصناعية ، وخفة اليد في عالم المال ؛ نعم إن «خلقتُ الفرسان» (ويسمونه بوشيدو) لا يزال باقياً هنا وهناك بين طبقات الجنود العليا، ولذا فهو بمثابة الضابط الارستقراطي الخفيف للجُمُوح الشيطاني الذي استولى على عالمي التجارة والسياسة ؛ والاعتقال كثير الوقوع على الرغم مما تتصف به عامة الناس من طاعة القانون والصبر على أحكامه - والاعتقال هناك لا يقع خلاصاً من استبدادية رجعية ، بل يقع عادة لتشجيع روح الوطنية التي لا تبالي الاعتداء ؛ من ذلك أن «جمعية الأفغوان الأسود» التي يرأسها «توياما» الذي يبدو في مظهر المنبوذ ، قد كرسَتْ نفسها أكثر من أربعين عاماً لبث سياسة غزو كوريا ومنشوريا بين أصحاب المناصب الحكومية في اليابان(**) وقد اتخذت الاغتيال أداة للوصول إلى هذا الغرض ، ومنها اكتسب الاغتيال مهمة شعبية ظل يقوم بها في تحريك العالم السياسي في اليابان(٢٦) .

لقد شارك الشرق الأقصى بلاد الغرب في الاضطراب الخلقى الذى يصحب كل تغير عميق يتناول الأساس الاقتصادى للحياة ؛ وازدادت الحرب التي ما فتئت قائمة بين الأجيال المتعاقبة ، بين الشباب الطافح بحماسة ، وبين الشيوخ

(*) يقول لافكاديو هيرن : (لقد عشت في أقاليم لم تعرف السرقة مدى مئات من السنين - حيث غلّت السجون التي ابتناها « ميجي » حديثاً ، خالية لا تقع فيها » (٢٥) .

(**) « الأفغوان الأسود » هو الاسم الذى تطلقه الصين على نهر أمور الذى يقصل منشوريا من سيبيريا ، واليابانيون ينظرون إلى الاغتيال نظرهم إلى نوع من العقاب الشريف الذى يحل عند محل النجس .

المفرطين في حرصهم ، ازدادت تلك الحرب حدة نتيجة لنمو الصناعة التي عمل على إبراز شخصية الفرد ، ونتيجة لإضعاف الإيمان الديني ؛ فالانتقال من الريف إلى المدينة ، وإحلال الفرد محل الأسرة باعتباره الوحدة القضائية المسؤولة ، للمجتمع الاقتصادي والسياسي ، قد قوض أركان السلطة الأبوية ، وأخضع عادات القرون الطويلة وأخلاقيها للحكم المتسرع الذي يحكم به المراهق على أمثال هذه الأمور ؛ وكنت ترى الشباب في المدن الكبرى يثورون على نظام الزواج تحت إشراف الأبوين ، وترى العروسين لا يجريان على مألوف العادات من حيث السكنى في بيت والد العريس ، بل هما أميل إلى إنشاء بيت مستقل أو « شقة » مستقلة ؛ هذا إلى أن سرعة تصنيع النساء قد حتم انحلال الروابط التي كانت تربطهن بالدار واعتمادهن في العيش على الرجال ؛ والطلاق في اليابان قد كثر حتى شابه الحال في أمريكا ، بل هو هناك أخف عاقبة منه في أمريكا ، لأن الرجل قد يستطيع الطلاق بمجرد توقيعه على دفتر للتسجيل ، ودفعه رسوماً تبلغ ما يساوي عشر « سنتات »^(٢٧) ولئن حرم القانون نظام التحليلات ، إلا أنه لا يزال قائماً فعلاً يتمتع به كل من تمكنه حالته المالية من تجاهل القانون^(٢٨) .

والآلة هي علو رجل الدين في اليابان كما هي في سائر أنحاء العالم ، ولما استوردت اليابان من إنجلترا أوضاعها الصناعية الفنية ، استوردت معها « سينسر » و « ستورت ميل » ، وبهذا أسدل الستار فجأة على سيادة المذهب الكنفوشيوسي في الفلسفة اليابانية ، ولقد قال تشمبرلين سنة ١٩٠٥ : « إن الجيل الموجود الآن في المدارس يتشكل على صورة فولتيرية واضحة المعالم »^(٢٩) ومن نتيجة هذا الاتجاه نفسه أن ازدهر العلم بارتباطه الحديث بالآلة ، واكتسب في اليابان قلوب أعظم الباحثين في عصرنا هذا ، بحيث انصرفوا إليه مخلصين

على نحو ما نعهد في اليابانيين من الولاء فيما يخلصون له(*) ؛ فالطب في اليابان - على الرغم من اعتماده في معظم مراحلها على الصين وكوريا - قد تقدم تقدماً سريعاً حين احتذى مثل الأوروبيين واندفع بحافزهم ، وخصوصاً الألمان ؛ وإذا أردت أن تعلم مدى السرعة التي انتقلت بها اليابان من مرحلة التلمذ إلى مرحلة الأستاذية التي أخذت تعلم فيها العالم أجمع ، فانظر إلى ما عمله « تاكامين » في استكشافه للأدريالين وفي دراسته للفيتامينات ؛ وما أداه « كيتاسانو » في مرض التنوس وفقر الدم ، وفي تقدم التلقيح ضد الدفتريا ثم ما عمله ألمهم جميعاً وأشهرهم جميعاً ، وهو « نجوشي » في مرض الزهري ومرض الحمى الصفراء .

ولد « هيدونجوشي » سنة ١٨٧٦ في إحدى الجزر الصغرى ، من أسرة بلغ بها الفقر حداً جعل أباه يترك أسرته حين علم أن طفلاً ثانياً في طريقه إلى الحياة ؛ وأهمل الوليد هذا إهمالاً جعله يسقط في مدفأة فاحترقت يده اليسرى حتى شامت ، وأوذيت يده اليمنى إيذاءً كاد يفقد نفعها فكان أن اجتنبه التلاميذ في المدرسة لما في جسده من وصمات وتشويه ، وراح الناشئ يفكر في الانتحار ، لكن جراحاً قدم إلى القرية حينئذ ، وعالج له يده اليمنى علاجاً ناجحاً ، واعترف « نجوشي » للجراح بالجميل اعترافاً جعله يقرر لتوه أن يكرس نفسه للطب ؛ ومن أقواله عن نفسه « سأكون نابليون ينقذ البشرية لا نابليون يفتك بها » « إنني أستطيع الآن أن أعيش معتمداً على نعاس أربع ساعات في الليل » (٢٠) وكان « نجوشي » مفلساً . فاشتغل في صيدلية حتى حمل صاحبها

(*) كان العلم في اليابان قبل ١٨٥٣ مستورداً معظمه من نتاج الوطن الأصل نفسه فالتقويم الياباني الذي كان فيما سبق معتمداً على أوجه القمر ، قد أعيد حسابه بحيث يساير السنة الشمسية ، على يدى كاهن كورى حوالى سنة ٦٠٤ ميلادية ، ثم أدخلت تعديلات من الصين سنة ٦٠٨ ميلادية ؛ واصطلحت اليابان - ولا تزال - طريقة أهل الصين في حساب الحوادث بردها إلى اسم الإمبراطور الذي وقعت في أيامه ، وسنة توليه الحكم ؛ وفي سنة ١٨٧٣ أخذت اليابان بالتقويم الجريجورى .

على رصد مبلغ من المال يتعلم به الطب ؛ وبعد أن تخرج في الطب من الجامعة .
ذهب إلى الولايات المتحدة وعرض خدماته على الهيئة الطبية في الجيش في
وشنطن مقابل نفقاته ؛ وهيات له مؤسسة روكفار للأبحاث الطبية معملا ،
ا^١ وشرع « نجوشي » يعمل وحده لا يشاركه أحد على الإطلاق في إجراء التجارب
والقيام بالبحث العلمي مما انتهى إلى أطيب الثمرات ؛ فهو الذى أنتج أول
عينة خالصة من جراثيم الزهري ، وكشف عن أثر الزهري في الشلل العام
وفي الشلل البطيء الذى يصيب حركة العضلات ، وأخيراً استطاع فى سنة
١٩١٨ أن يعزل طفيلي الحمى الصفراء ؛ فلما كسب الشهرة والثروة الموفقة ،
عاد إلى اليابان ، وكرّم أمه العجوز ، وجنا على ركبتيه أمام الصيدلى الذى
أنفق على دراسته الطبيعية اعترافاً له بالجميل ، ثم ذهب إلى أفريقيا ليدرس
الحمى الصفراء التى كانت تفتك بساحل الذهب من أوله إلى آخره ، فأصابته
هذه الحمى ومات سنة ١٩٢٨ ، ومما يزيدنا حسرة على موته أنه لم يكن
قد بلغ من العمر أكثر من اثنين وخمسين عاماً .

كان التقدم العلمى فى اليابان - كما كان كذلك فى الغرب - مصحوباً
بانحلال فى الفنون التقليدية ؛ فتقويض الطبقة الأرستقراطية القديمة قد قوض
عشاً كان يترعرع فيه حسن الذوق ، وراحت الأجيال بعدئذ تتخذ لنفسها
ما شاء لها هواها من معايير الجمال ، بحيث يستقل كل جيل فى معياره الذوق
عما سلفه ؛ وتدفقت الأموال من البلاد الخارجية سعيّاً وراء المنتجات الوطنية ،
فأدى ذلك إلى الإنتاج السريع الذى يعنى بالكم وحده ، وانحطت مستويات
الرسوم اليابانية تبعاً لذلك ، فلما عاد الشارون إلى طلب المصنوعات القديمة ،
انقلب الصناع جماعة من المزورين ، وأصبحت صناعة الآثار القديمة فى
اليابان - كما هى الحال فى الصين - أروج الصناعات فى الفنون الحديثة ؛
ولعل جانب الصناعة الخرفية المعروف باسم cloisonné أن يكون الفرع
الوحيد من فروع تلك الصناعة ، الذى تقدم فى اليابان منذ قدوم الغرب إلى

البلاد ؛ فالتقال المضطرب من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية ، وهجمة
الأذواق والأساليب الأجنبية على أهل البلاد مسترة برداء من الظفر والثروة ،
قد أدى إلى زعزعة الحس الجمالى عند اليابانيين وإضعاف ذوقهم بحيث لم يعد
على ما كان عليه من ثبات ؛ وهامى ذى اليابان قد اختارت السيف اتجاهها ،
فأعطتها قد كُتِبَ لها أن تعيد تاريخ الرومان - بأن تقلد فى الفن ، وتسود فى
الإدارة والحرب (٥) .

لقد لبثت الحياة العقلية فى الإمبراطورية الحديثة جيلاً اتجهت خلاله نحو
مملأة الأساليب الغربية ، فتكاثرت الكلمات الأوروبية فى لغة القوم ، ونظمت
النصحف على الطريقة ، وأنشئت مجموعة من المدارس العامة على غرار
المدارس النموذجية الأمريكية ؛ إذ صممت اليابان تصميم الأبطال على أن تجعل
من نفسها أمة تكون أسبق أم الأرض جميعاً فى إزالة الأمية ، وقد نجحت فيما
أرادت ، قى سنة ١٩٢٥ كان يختلف إلى المدارس من أبناء البلاد ٩٩٤ فى
المئة (٣١) وفى سنة ١٩٢٧ كان فى مستطاع ٩٣ فى كل مائة من أهل البلاد جميعاً
أن يقرأوا (٣٢) ؛ فقد أقبل الطلاب على الحركة العرفانية العلمانية الجديدة إقبالا
فيه حرارة الإيمان الدينى ، حتى لقد أفسد مئات منهم صحة أبدانهم بسبب
حماسهم فى كسب المعرفة (٣٣) واضطرت الحكومة اضطراباً أن تتخذ الوسائل
الفعالة لتشجيع الرياضة البدنية والألعاب بكافة صنوفها ، القومى منها والمستعار
من البلاد الخارجية ؛ وخرج التعليم من كنفه الدينى واصطبغ بصبغة علمانية
أكثر مما اصطبغ به التعليم فى معظم الأقطار الأوربية ؛ وأعينت خمس جامعات
إمبراطورية ، وقامت إحدى وأربعون جامعة أخرى - قد تقل فى نزعها
الإمبراطورية عن تلك الخمس - وضمت بين جدرانها آلاف الطلاب
المتحمسين ؛ وفى سنة ١٩٣١ كانت الجامعة الإمبراطورية فى طوكيو تشتمل
على ٨٠٦٤ طالباً ، وجامعة كيوتو تشتمل على ٥٥٥٢ طالباً (٣٤) .

(٥) أخذت اليابان اليوم حى الوطنية ؛ فأدت بها إلى إحياء الحوافز والأساليب القومية .

وأما الأدب الياباني في الربع الأخير من القرن (التاسع عشر) فقد ألقى نفسه في سلسلة من ألوان المحاكاة ؛ وتوالت على الطبقة المثقفة موجات الحرية الإنجليزية والواقعية الروسية والفردية النيتشية والبراجماتية الأمريكية ، فاكتسحتها واحدة بعد واحدة ، حتى عادت روح الوطنية فأكدت نفسها ، وبدأ الكتاب اليابانيون يكشفون عن مادتهم القومية فيعبرون عنها بأساليبهم القومية ؛ وقد ظهرت فتاة شابة تدعى « إيشي يو » فافتتحت حركة في كتابة القصة تنحو منحى المذهب الطبيعي قبل موتها سنة ١٨٩٦ وهي في عامها الرابع والعشرين ، وذلك بتقديمها صورة ناصعة عن تعاسة النساء وذهن في اليابان (٣٥) ، وفي سنة ١٩٠٦ دفع الشاعر « توسون » هذه الحركة إلى أوجها بقصة طويلة عنوانها « هاكاي » أي عدم الوفاء بالعهد ، قص فيها بنثر شعري قصة معلم وعد أباه ألا يفصح عن نفسه حقيقتها وهي أنه من طبقة « إيتا » أي الطبقة التي انحدرت من أسلاف عبيد ، وبهذا أتيح له بما كان له من قدرة وما ظفر به من تعليم أن يحتل مكانة عالية ، فأحب فتاة مهذبة من ذوات المكانة الاجتماعية ؛ وبعدئذ فار فورة صدق اعترف فيها بأصله ، وتنازل عن حبيته ومكانته ، وغادر اليابان لغير عودة ، فكانت هذه القصة عاملاً قوياً في تحريك النفوس تحريكاً انتهى آخر الأمر بإسْدال الستار على العوائق التي لبثت طوال التاريخ مفروضة على طبقة « إيتا » .

وكانت صورتنا الشعر الموجز المعروفتان باسم « تانكا » و « بوكا » آخر صور الثقافة اليابانية استسلاماً للمؤثرات الغربية ، إذ لبثتا أربعين عاماً بعد عودة الإمبراطور إلى عرشه الفعلي ، هما الصورتين المنشودتين لقرض الشعر الياباني ، وفقى الروح الشعري في آيات معجزات من البراعة والصناعة ، حتى كان عام ١٨٩٧ ؛ ظهر معلم شاب ، هو « توسون » في « سنداي » وباع لأحد الناشرين ديواناً من الشعر بخمسة عشرة ريالاً ، فجاء هذا الديوان بقصائده الطويلة ثورة تكاد تبلغ في عنفها مبلغ أية ثورة أخرى مما زعزع نسيج الدولة ؛ وكان الشعب قد ملّ الأقوال القصيرة الرشيقة ، فأقبل على هذا

الديوان (ذى القصائد الطويلة) إقبال الشاكر ، وسبب إقباله هذا ثراء للناسر ؛ وسار بعض الشعراء الآخرين في إثر توسون ، وانتهى الأمر بصورتي الشعر الموجز الـ « تانكا » والـ « بوكا » أن أسلمتا زمام السيطرة بعد أن ظلتا ممسكتين به ألف عام (٣٦) .

وعلى الرغم من ظهور هذه الصور الشعرية الجديدة ، فقد ظلت « المباراة الإمبراطورية في قرض الشعر » قائمة كما كانت ؛ فالإمبراطور يعلن في كل عام موضوعاً ، ثم يسوق مثالا بنشيد يمليه في ذلك الموضوع ؛ وتقتنى الإمبراطورة أثره ، وبعدئذ يرسل خمسة وعشرون ألف شاعر ياباني من كافة الأشكال والطبقات ، يرسل هؤلاء قصائدهم إلى « مكتب الشعر » في القصر الإمبراطوري ؛ وتشكل لها هيئة تحكيم من أعلى أعلام البلاد ؛ حتى إذا ما انتهى التحكيم إلى القصائد العشر الأولى ، قرئت على الإمبراطور والإمبراطورة ، وطبعت في الصحف اليابانية في العدد الذي يصدر في اليوم الأول من العام (٣٧) ، فياله من تقليد بديع خليق أن يدير النفس لحظة عن دنيا التجارة والحب ، وهو يدل على أن الأدب الياباني ما زال جزءاً حيويًا في حياة أمة هي أكثر الأمم حيوية في العالم المعاصر .

الفصل الرابع

الإمبراطورية الجديدة

الأسس المزعومة للمدنية الجديدة - أسباب انزعة الاستعمارية اليابانية -
الطلبات الواحدة والعشرون - مؤتمر واشنطن - قانون الهجرة الصادر
سنة ١٩٢٤ - غزو منشوريا - المملكة الجديدة - اليابان والروسيا
اليابان وأوروبا - هل لا بد لأمريكا من محاربة اليابان ؟

لقد أقامت اليابان الجديدة بناءها على أسس مزعومة على الرغم من نموها
السريع في الثراء والقوة ؛ فقد عدد سكانها من ثلاثة ملايين أيام (شوتوكو
تايشي) حتى بلغ سبعة عشر مليوناً في حكم (هيدويشي) ثم بلغ ثلاثين
مليوناً في عهد (يوشيموني) وزاد على خمسة وخمسين مليوناً في آخر عهد
(ميجي) (١٩١٢) (*) .

وإذن فقد تضاعف السكان في مدى قرن واحد ، وضافت الجزر التي
تكتنفها الجبال ، والتي تقل فيها الأراضي الصالحة للزراعة ، بملايين المترادة ؛
فسكان تلك الجزر الذين يبلغون نصف سكان الولايات المتحدة ، لا يجدون مما
يقيم حياتهم أكثر من جزء من عشرين جزءاً بالنسبة لثروة الولايات المتحدة (٢٨)
وإذن فلا سبيل أمامها سوى المصانع ، ومع ذلك تراها فقيرة فقراً يبعث على
الأسى ، في مواد الوقود وفي المعادن التي لا غنى للصناعة عنها ، نعم إن القوة

(*) بلغ عدد سكان الإمبراطورية اليابانية سنة ١٩٣٤ ثمانين مليوناً (والإمبراطورية
اليابانية تعني اليابان وكوريا وفورموزا وبعض الممتلكات الصغيرة الأخرى) ولو نجحت اليابان
في إسالة سكان منشوريا إلى الحكم الياباني فستحكم في دنيا اصنائة والحرب على مائة وعشرة
من الملايين ؛ ولما كان سكان اليابان وحدها يزيدون بنسبة مليون كل عام ، ثم لما كان سكان
الولايات المتحدة يقربون سرهين من حد الجمود لا زيادة بعده ، فربما جاء اليوم قريباً حيث
تصطدم الدولتان بعدد من السكان قريب من اتعادل .

الكهربائية المتولدة عن تدفق الماء كانت كافية في المجارى التي تسيل من الجبال إلى البحر ، لكن استغلال هذا المصدر أكمل استغلال لا يضيف إلى القوة المستعملة بالفعل إلا مقدار ثلثها^(٣٩) ولا يمكن الاعتماد عليها لسد حاجات المستقبل المتزايدة ؛ ووجدت طبقات من الفحم هنا وهناك ممتدة في عروق تكاد تغز على متناول الإنسان ، وجدت في جزر « كيوشو » و « هوكايدو » ، كما أمكن الحصول على البترول من « سخالين » ، أما الحديد - وهو من الصناعة لها وصميمها - فيكاد لا يكون له أثر في التربة اليابانية^(٤٠) ؛ وبعد هذا كله ، فإن مستوى المعيشة المنخفض الذى فرض على سواد الناس فرضاً يحكم صعوبة الحصول على المواد والوقود وارتفاع تكاليفها ، جعل الاستهلاك يزداد تأخراً بالنسبة إلى تقدم الإنتاج ؛ فالمصانع التي كانت آلاتها تزداد حسناً كل عام ، راحت تصب فيضاً من السلع يزيد على حاجة أهل البلاد ولا يمكن شراؤه فيها ، ويصرخ صرخات عالية مطالباً لنفسه بأسواق في الخارج .

من مثل هذه الظروف تنشأ الرغبة في الاستعمار ، وأعنى بكلمة الاستعمار ذلك المجهود الذى يبذله النظام الاقتصادى في بلد من البلاد - مستعيناً في ذلك بالحكومة التي هي أدواته في تحقيق أغراضه - يبذله نحو بسط سيادته على مناطق أجنبية يعتقد أنها تملئه بما تحتاج إليه من وقود وأسواق ومواد خامة وأرباح ؛ فأين عسى أن تجد اليابان هذه الفرصة وتلك المواد ؟ إنها لا تستطيع أن تتجه بأبصارها نحو الهند الصينية أو الهند أو أستراليا أو الفلبين ، لأن هذه البلاد قد سبقت الدول الغربية إلى الاستيلاء عليها ، وفرضت فيها من الحواجز الجمركية ما يناصر سادتها البيض على أهل اليابان ؛ وواضح أن الصين قد وضعها الله على أبواب اليابان مقدراً لها أن تكون سوقاً للسلع اليابانية ، كما أن منشوريا - منشوريا الغنية بفحمها وحديدتها ، والغنية بقمحها الذى لا يستطيع الجزر اليابانية أن تستنبتة في بلادها على نحو يفيدتها ، والغنية برجالها الذين

يصلحون للصناعة والضريبة والحرب - منشوريا هذه قد كتب عليها كذلك أن تكون تابعة لليابان ؛ وبأى حق ؟ بنفس الحق الذى استولت به إنجلترا على الهند وأستراليا ، واستولت فرنسابه على الهند الصينية ، واستولت به ألمانيا على شانتونج ، والروسيا على بورت آرثر ، وأمريكا على الفلبين - وهو حق الحاجة التى يشعر بها القوى ؛ وعلى كل حال فليس للناس حاجة فى نهاية الأمر إلى التماس المعاذير ، وإنما كل ما يتطلبونه هو القوة والفرصة السانحة اللتان تمكناك من فعل ما تريد ؛ فالنجاح فى رأى أتباع المذهب الداروينى ، ببر كل الوسائل التى تحققه

وجاءت الفرصة تفتح لليابان صدرها رحباً - جاءت أولاً فى الحرب العالمية الأولى ، ثم جاءت بعد ذلك فى انهيار الحياة الاقتصادية فى أوروبا وأمريكا ؛ فلم يقتصر أثر الحرب على مجرد الزيادة من إنتاج اليابان (كما حدث فى أمريكا) زيادة تطلبها سوق عظمى خارجية ناشئة بسبب قيام الحرب - وأعنى بتلك السوق قارة أوروبا التى كانت مشتبكة فى القتال ؛ بل إن تلك الحرب قد أدت كذلك إلى إضعاف أوروبا واستنفاد قواها ، وتركت اليابان وشكة أن تكون بغير شريك فى العالم الشرقى ؛ فبسبب هذا كله غزت شانتونج سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك بعام واحد تقدمت إلى الصين « بالمطالب الواحدة والعشرين » التى لو تمكنت من فرضها على الصين ، لأصبحت الصين مستعمرة هائلة تابعة لليابان الضئيلة .

فالمجموعة الأولى من المطالب أرادت من الصين أن تعترف بسيادة اليابان على شانتونج ؛ وطالبت اليابان بالمجموعة الثانية منها بامتيازات صناعية معينة ، وبالاعتراف بحقوق خاصة تتمتع بها اليابان فى منشوريا ومنغوليا الشرقية ؛ وعرضت المجموعة الثالثة من تلك المطالب أن تكون أكبر شركات التعدين فى أرض الصين شركة مشتركة بين الصين واليابان ؛ وطالبت المجموعة الرابعة

(وهى موجهة ضد رجاء أمريكا فى أن تكون لها محطة للفحم بالقرب من فوشو) « ألا تتنازل الصين عن أية جزيرة أو ميناء أو مرسى على طول الساحل لدولة ثالثة » ، واقترحت المجموعة الخامسة اقتراحاً متواضعاً وهو أن تستخدم الصين منذ ذلك الحين فصاعداً مستشارين يابانيين فى شئونها السياسية والاقتصادية والحربية ، وأن تكون لإدارة الشرطة فى المدن الصينية الكبرى فى يد مشتركة بين الصينيين واليابانيين ، وأن تشتري الصين نصف ذخائرها على الأقل من اليابان ، وأن يكون لليابان كل الحرية فى مد السكك الحديدية وحفر المناجم وبناء الموانئ فى منطقة فوكين (١) .

واحتجت الولايات المتحدة بأن بعض هذه « المطالب » فيه اعتداء على سلامة الأراضي الصينية ، وعلى مبدأ « الباب المفتوح » فألفت اليابان المجموعة الخامسة من تلك المطالب ، وعدلت بقيتها ، ثم قدمتها للصين مقرونة بإنذار نهائى فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ ، فقبلتها الصين فى اليوم التالى لتقدمها ، وتبع ذلك مقاطعة من الصين للبضائع اليابانية ، لكن اليابان مضت فى طريقها قدماً ، على زعم يوثق التاريخ صحته ، وهو أن المقاطعة التجارية لا بد منتهية عاجلاً أو آجلاً إلى فشل ، لأن التجارة تميل بطبيعتها إلى أن تتبع أقل التكاليف ؛ وفى سنة ١٩١٧ بسط « الفيكونت إشيأى » فى لباقة ، موقف اليابان للشعب الأمريكى ، حتى حمل الوزير « لانسنج » على توقيع اتفاق يعترف بأن « لليابان مصالح خاصة فى الصين ، خصوصاً فى الأجزاء المتاخمة لممتلكاتها » ، وفى مؤتمر واشنطن سنة ١٩٢٢ أرغم الوزير « هيوز » اليابانيين على الاعتراف بمبدأ « الباب المفتوح » فى الصين ، وبأن تقتنع اليابان بأسطول يبلغ ستين فى المائة من حجم الأسطول الإنجليزى أو الأمريكى (*) ووافقت

(*) وضعت نسبة الأساطيل الإنجليزية والأمريكية واليابانية على أساس ٥ ، ٥ ، ٣ وباعتبار امتداد السواحل أو الممتلكات التى تتطلب من إنجلترا أو من أمريكا دفاعاً ، إذا قيست إلى صغر حجم اليابان وحماية أرضها بحماية طبيعة .

اليابان في نهاية المؤتمر على أن تعيد إلى الصين ذلك الجزء من شانتونج (تسجناو) الذي كانت أخذته من ألمانيا إبان الحرب ، ثم مات الحلف الإنجليزى الياباني موتاً هائلاً ، وراحت أمريكا تحلم في فراشها الدافئ بسلام لا تزعجه الحروب أبداً الأبدى .

لكن السياسة الأمريكية اصطدمت بفشل من أبشع ما شهدته في تاريخها ، بسبب تلك الثقة الصببانية في مستقبل ناعم ، ذلك أن الرئيس « تيودور روزفلت » للمراى سكان الساحل الممتد على المحيط الهادى قد أزعجهم هجرات اليابانيين المتواصلة إلى كاليفورنيا ، أخذ في سنة ١٩٠٧ يفاوض الحكومة اليابانية مستعيناً بسلامة إدراكه التى كانت تكن في ثنايا حياته الصاخية التى قربته إلى قلوب الشعب ، واتفق معها « اتفاق السيد الكورى مع السيد الكورى » بحيث وعدت اليابان أن تمنع هجرة عمالها إلى الولايات المتحدة ، لكن ارتفاع نسبة المواليد بين أولئك اليابانيين الذين كانوا قد سمح لهم فعلاً بالدخول ، لم تزل تزعج الولايات الغربية من أمريكا ، حتى إن كثيراً من تلك الولايات أصدر القوانين التى تحرم على الأجانب امتلاك الأراضى ، ولما قرر الكونجرس الأمريكى سنة ١٩٢٤ أن يحدد الهجرة إلى البلاد ، أبى أن يطبق على الأجناس الآسيوية مبدأ النسبة المنخفضة التى سمح بها للشعوب الأوروبية(*) بل حرم هجرة الآسيويين تحريماً قاطعاً ، وقد كان من المستطاع أن نصل إلى نفس النتيجة تقريباً لو طبقنا النسبة الجديدة على كل الأجناس بغير تمييز ولا تعيين ، واحتج الوزير « هيوز » قائلاً : « إن هذا التشريع لا فائدة منه إطلاقاً حتى بالنسبة للغاية التى سن من أجل تحقيقها »^(١) ، لكن المتحمسين فسروا الإنذار الذى وجهه السفير الياباني بشأن « التسلح الخطيرة التى قد تترتب على هذا القانون ، فسروه بأنه تهديد ، وامتولت عليهم حمى البغضاء فأصدروا « قانون الهجرة » .

(٥) يقرر ذلك المبدأ أن يكون عدد المهاجرين من أى قطر مساوياً في نجه إلى مجموع العدد المسموح بهجرته طول العام ، لنفس النسبة التى بين عدد سكان الولايات المتحدة من أبنائه ذلك القطر سنة ١٨٩٠ وبين مجموع عدد سكان الولايات المتحدة في تلك السنة .

واشتعلت النار اشتعالا في اليابان كلها لهذا الذي بدا في عينها إهانة مقصودة ؛ وعقدت الاجتماعات وألقيت الخطب ، وانتحر وطني متحمس على طريقة (هاراكيبرى) أمام دار (الفيكونت إنوي) ليعلن بانتحاره ذلك عن شعور القوم جميعاً بالعار ؛ أما زعماء اليابان ، فكانوا يعلمون أن بلادهم قد أضعفها زلزال سنة ١٩٢٣ ، فصمموا وتربصوا ينتظرون الفرصة السانحة ، فلو سارت الأمور سيراً طبيعياً ، فسيفت الضعف كذلك بأمريكا وأوروبا ، وعندئذ ستنهز اليابان فرصتها ، وتثار لنفسها ولو بعد حين .

فلما أعقبت أعظم الحروب جميعاً أزمة اقتصادية هي أعظم الأزمات جميعاً ، وجدت اليابان فرصتها التي طال انتظارها لها ، لكي تثبت أركان سيادتها في الشرق الأقصى ؛ إذ أعلنت أن السلطات الصينية قد أساءت إلى تجار اليابان في منشوريا ، هذا إلى شعور خفي عندها بأن سككها الحديدية وسائر مُستَغَلَّاتها الاقتصادية هناك تهددها المنافسة الصينية ، فأمرت جيشها في سبتمبر سنة ١٩٤١ أن يتقدم في منشوريا ، بادئة في ذلك بالعدوان ، أما الصين فكانت في حالة من الفوضى بسبب الثورة وبسبب حركة انفصالية بين أقاليمها وبسبب ارتشاء ساستها ، فلم تستطع أن تجمع كلمتها في مناهضة اليابان إلا على صورة واحدة ، وهي أن تعود من جديد إلى مقاطعة البضائع اليابانية ، فلما تذرعت اليابان بحجة الدعاية الصينية لمقاطعة التجارة اليابانية ، وغزت شنغهاي (١٩٣٢) لم ينهض من الصينيين لمقاومة هذا الغزو إلا قلة ضئيلة ؛ ووجهت الولايات المتحدة اعتراضات في هذا الصدد ، ووافقتها عليها الدول الأوروبية (من حيث المبدأ) موافقة باعثها الحذر ، لكنها كانت في شغل من مصالحها التجارية الفردية بحيث لم تستطع أن تجمع كلمتها جميعاً على إجراء حاسم لإزاء هذه الإزالة السريعة لسيادة الرجل الأبيض على الشرق الأقصى ، تلك السيادة التي لم تدم إلا قليلاً ؛ وعينت عصبة الأمم لجنة برئاسة (إيرل ليتن) فقامت ببحث يظهر

فيه الإحكام والحياد ، ثم قدمت تقريرها ؛ غير أن اليابان انسحبت من العصبة على نفس الأساس الذى دعا الولايات المتحدة سنة ١٩٣٥ إلى رفضها الاشتراك فى (هيئة العدل الدولية) - وهو أنها لا تريد أن تحاكم أمام هيئة قضائها هم أعداؤها ؛ وكانت مقاطعة البضائع اليابانية فى الصين قد خفضت وارادات اليابان إلى الصين بنسبة أربعة وسبعين فى المائة بين شهر أغسطس سنة ١٩٣٢ وشهر مايو سنة ١٩٣٣ ؛ لكن التجارة اليابانية فى الوقت نفسه كانت تطرد التجارة الصينية من الفلبين وولايات الملايو والبحار الجنوبية ؛ ولم تحل سنة ١٩٣٤ حتى استطاع ساسة اليابان - بمعونة ساسة الصين - أن يحملوا الصين على إقرار تعريفه جمركية فى صالح المنتجات اليابانية ضد منتجات الدول الغربية (٤٣) .

وفى مارس سنة ١٩٣٢ عينت السلطات اليابانية (هنرى بوى) وارث عرش مانشو فى الصين ، رئيساً لحكومة دولة منشوكو الجديدة ، ثم نصبته بعد عامين ملكاً باسم (كانج ته) وكان ذوو المناصب فى تلك الحكومة إما من اليابانيين أو من أهل الصين الموالين لليابان ، وقد كان خلف كل موظف صينى مستشار يابانى (٤٤) ؛ فبينما كانت خطة (الباب المفتوح) معترفاً بها من الوجهة الفنية ، التمسّت اليابان سبلها نحو وضع التجارة والموارد المنشوكية تحت سلطانها (٤٥) ؛ ولئن تعذر على اليابانيين أن يمحضوا فى هجرتهم من بلادهم إلى تلك الدولة ، فقد تدفقت رموس الأموال اليابانية إليها تدفقاً غزيراً ، ومدت الخطوط الحديدية لأغراض تجارية وعسكرية ، وأصلحت الطرق بخطوات سريعة ، وبدأت المفاوضات لشراء (السكة الحديدية الشرقية الصينية) من السوفيت ، ولم يكتف الجيش اليابانى الظافر القادر بتنظيم الدولة الجديدة ، بل جعل يملئ سياسة حكومتها فى طوكيو ، وغزا إقليم (جهول) بالنيابة عن الملك (بوى) ، ثم تقدم حتى كاد يبلغ (بيپنج) ، لكنه تقهقر تقهقراً مشرفاً ، لينتظر الفرصة السانحة .

وإلى أن تحين تلك الفرصة المرتقبة ، راح ممثلو اليابان في تانكنج يبذلون جهدهم المالى كله ليكسبوا من الحكومة الصينية رضاها عن زعامة اليابان في كل جانب من جوانب حياة الصين الاقتصادية والسياسية ؛ فإذا ما كسبت الصين بالغزو أو بالقروض المالية ، باتت اليابان على استعداد لمواجهة عدوتها القديمة : التى كانت فيما مضى إمبراطورية الروس أجمعين ، وأصبحت اليوم تعرف باسم « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ؛ وإن الجيش اليابانى ليستطيع أن يضرب ضربه فى أى موضع على طول طريق القوافل فى منغوليا فيخترق « كابلان » و « أورجا » ؛ أو عبر الحدود المنشوكية فيتوغل فى « شيتا » أو فى أى موضع آخر من مئات المواضع الضعيفة التى يتثنى عندها الخط الحديدى حول الدولة الجديدة ؛ ذلك الخط الذى يمتد من سيبيريا ، والذى لا يزال فى معظم أجزائه فى الشرق الأقصى خطأ مفرداً ، أقول إن الجيش اليابانى يستطيع أن يضرب ضربه فى أى موضع من تلك المواضع فيقطع الرباط الحيوى الذى يربط الصين وفلاديفستك وما وراء بيكال ، بعاصمة الروس ؛ فأخذت روسيا تعد نفسها لهذا الصراع المحتوم إعداداً فيه روح البطولة وحرارة التحمس ؛ فبذلت مجهوداً فى استغلال مناجم الفحم وإقامة مصانع الصلب فى مدينتى « كوزنتسك » و « ماجنيتو جورسك » ، بحيث يمكن تحويل تلك المناجم والمصانع إلى معامل هائلة للذخيرة ، وأعدت فى ألوقت نفسه طائفة كبيرة من الغواصات فى « فلاديفستك » ليلاقى الأسطول اليابانى ، كما أعدت مئات من قاذفات القنابل التى جعلت أعينها مفتوحة ترقب مراكز الإنتاج والمواصلات فى اليابان ، وتلحظ مدنها المنشأة من خشب دماره ميسور .

ووقفت الدول الغربية خلف هذه الطليعة المنيرة بالشر ، وقفت واجلة خائبة الرجاء : فأمريكا يأكلها الغضب لفقدانها أسواق الصين ؛ وفرنسا تساءل : ترى كم يتاح لها أن تظل مهيمنة على الهند الصينية ، وانجلترا قلقة

على استراليا والهند ، ومضطربة بسبب منافسة اليابان لها ، لا فى الصين وحدها بل فى كل أرجاء ملكها فى الشرق ؛ ومع ذلك ففرنسا آثرت أن تعين اليابان معونة مالية على مناصبتها العدوان ، وبريطانيا الحذرة رأت أن تنتظر فى صبر لم يسبق له مثيل ، راجية أن يفك كل من منافستها العظيمنتين فى التجارة الآسيوية بالأخرى ، فتركا العالم لانجلترا وحدها من جديد ؛ وأخذ تضارب المصالح يشتد خدة يوماً بعد يوم ، ويدنو رويداً رويداً من الصراع المكشوف ؛ وأصررت اليابان على أن تحتفظ بالشركات الأجنبية التى تباع لها البترول ، بمخزون من البترول على أرض يابانية يكفى حاجة الحزور نصف عام فى حالة الطوارئ ؛ وأغلقت مانشوكو أبوابها فى وجه البترول اليابانى ، واستطاعت اليابان - رغم احتجاجات الأمريكين ورغم معارضة رئيس جمهورية أورجواى - استطاعت أن تأخذ تصريحاً من الهيئة التشريعية فى أوراجواى ، بأن تقيم على نهر پلات ميناء حرة ، تدخلها السلع اليابانية بغير ضريبة جمركية ، أو تصنع فيها البضائع اليابانية ؛ ومن هذا المركز الحربى ، ستنفذ اليابان إلى قلب أمريكا اللاتينية من حيث التجارة والمال ، ستنفذ بخطوات لم يسبق لها مثيل فى السرعة منذ عميل الغزو الألماني السريع لأمريكا الجنوبية على نشوب الحرب العظمى ، وعلى اشتراك أمريكا فيها ؛ ولئن أخذت ذكريات تلك الحرب فى الزوال ، فإن العدة لتتخذ من جديد لحرب جديدة(*) .

أليس لأمريكا بد من محاربة اليابان ؟ إن نظامنا الاقتصادى يسخو فى العطاء لأصحاب رموس الأموال ، فيعطيههم قسطاً كبيراً من الثروة التى يتعاون على خلقها العلم والإدارة والأيدى العاملة ، فلا يبقى إلا قدرأ أقل مما ينبغى أن يقيه لسواد المنتجين ، حتى يتاح لهم أن يشتروا السلع التى أنتجوها ؛ وهذا يفيض قدرٌ زائد من السلع ، يصرخ مطالباً بغزو الأسواق الخارجية ،

وإلا اضطرب مجرى الإنتاج في داخل البلاد (أو اضطرب أصحاب تلك السلع أن يزيدوا من القدرة الاستهلاكية بين أفراد الشعب) ، ولئن كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لنظامنا الاقتصادى (يقصد النظام الأمريكى) فهو أصح بالنسبة لليابان ، فهى مضطرة كذلك إلى غزو أسواق خارجية ، لالكى تحتفظ بثروتها فحسب ، بل لتضمن كذلك الوقود والمواد الخام التى لا غنى عنها لقيام صناعتها ، ويشاء التاريخ الساخر أن تكون هذه اليابان التى أيقظتها أمريكا من حياتها الزراعية الساكنة سنة ١٨٥٣ ودفعتها فى حياة الصناعة والتجارة ، هى نفسها التى تواجه اليوم كل قوتها وكل دهائها لكسب الأسواق الآسيوية بانخفاض أسعار السلع الأمريكية ولفرض رقابتها على تلك الأسواق بالغزو الحربى وبالأسابيب الدبلوماسية ، تلك الأسواق التى كانت هى بعينها ما علقّت أمريكا رجاءها عليها لأنها أوسع مخرج يمكن تهيئته لفيض البضائع الأمريكية ، وقد عهدنا فى التاريخ أنه إذا تنافست دولتان على أسواق بعينها ، فإن الدولة الخاسرة فى مجال المنافسة الاقتصادية - إذا ما كانت أقوى من زميلتها ثروة وعدة حربية - هى التى تعلن الحرب على الأخرى .

ولا شك أن حرباً كهذه لو نشبت بين أمريكا واليابان ، كانت خاتمة مرة لما أسدته أمريكا من يد فى فتح أعين اليابان ، لكن شئون الدول ينتابها ممدد لو أفلت زمامه من أيدى القابضين على الأمور ، قبل أن يستجمع قوته ، فإنه لا بد مكتسح الأمة التى يطفو بأرضها ، إلى مأزق من الظروف لا يدع أمامها مجالاً للاختيار إلا بين طريقين إما الذل وإما القتال ، ويميل من قد تجاوزوا سن الحندية ، إلى إثثار الحرب على الخشوع ، وليس يقلل من خطر نشوب قتال بيننا وبين اليابان ، الاحتمال القوى بأن تنشب حرب بينها وبين روسيا ، لأنه لو عادت هاتان الأمتان إلى تحدى إحداهما الأخرى ، فقد لا نجد بدا من التدخل فى الأمر على أساس المبدأ القديم ، ذلك المبدأ الذى نهضت لتأييده

أملّة كثيرة في عصرنا بحيث نستخلص منها الحكمة السديدة ، وهى أنه خير لنا أن نعاون على الفتك بمنافس تعرض فعلا لهجمة من عدوه ، من أن ننظر حتى يكسب نصراً يزيد في قوته زيادة خطيرة ؛ أما إذا أردنا ألا ننساق في هذا الطريق ، فكل ما نطلبه هو أن نذكر أنه مهما بلغت شدة الحاجة باليابان إلى أسواق الشرق ؛ فهذه الأسواق أبعد جداً من أن تكون شرطاً لازماً لازدهار تجارتنا ؛ وأنا إذا كسبنا تلك الأسواق إما بحرب باهظة النفقات في بحا بعيدة ، أو بتنافس يدعوننا إلى الهبوط بمستوى حياة شعبنا ، فذلك كسب أجوف ؛ وقد يكون نعمة لبلادنا أن يضطر تجارنا إلى البحث عن أسواق لسلعهم داخل حدود بلادنا ؛ وعندئذ فقد يتبين لنا أن سعادتنا لا تعتمد على غزونا لأسواق وراء البحار ، بل إن سعادتنا في نشر ثمرات الاختراع والصناعة ومنتجاتها نشراً يتيح لأهل بلادنا - وإنهم لكثيرون - أن يكونوا سوقاً تكفى لبيع مصنوعاتنا - حتى إذا بلغت المصنوعات أعلى درجات الإنتاج ؛ لأن مساحة قدرها ٣٧٣٨٠٠٠ ميلاً مربعاً تكفى لاستهلاك ذلك الإنتاج .

أما وقد علمنا اليابان أساليب الصناعة والحرب ، فلا بد لنا أن نصبر على القضاء الذى جعلها مؤقتاً سيدة الشرق اقتصادياً وحرياً ، فليس بنا حاجة إلى الحقد على « أبناء الشمس » إذا ما حانت ساعة قوتهم ومجدهم ، ولا إلى حسدهم على إمبراطوريتهم المتهاة أو ثروتهم التى قد تتعرض للزوال ؛ إن العالم فيه من سعة الرحب ما يكفيننا ويكفيهم معاً ؛ ولو شئنا ، لوجدنا في البحار آفاقاً لا تزال بعيدة بيننا وبينهم ؛ بحيث تهيب لنا السلام (*) .

(*) لم يتحقق أمل الكاتب وقامت الحرب بين الدولتين على ما هو معروف . (المعرب)

خاتمة

تراثنا الشرقى

لقد مررنا مسرعين ، على نحو لم نكن نودّه ، خلال أربع آلاف عام من أعوام التاريخ ، فررنا بذلك على أغنى الحضارات التى شهدتها أكبر القارات ؛ ويستحيل أن نكون قد فهمنا هذه الحضارات أو أن نكون قد وفيناها حقها العادل ؛ إذ كيف يستطيع عقل واحد فى حياة واحدة أن يستوعب أو يقدر تراث جنس بأسره ؟ إن النظم الاجتماعية والعادات والفنون والأخلاق عند شعب من الشعوب تصور عملية الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به تجارب لا حصر لعددها ، يظل فيها ذلك الشعب يخطئ لكى يهتدى بالخطأ إلى الصواب كما تصور حكمة الأجيال التى تعاقبت فى ذلك الشعب فتكدست تراثاً غزيراً حتى بات من العسير صياغتها فى عبارات تضم أطرافها ؛ فلا الفيلسوف بذكائه ولا الطالب الصغير بعقله يستطيع أن يحيط بمثل ذلك التراث إحاطة الفاهم لأسراره ؛ دع عنك أن يحكم عليه حكماً عادلاً ؛ إن أوروبا وأمريكا هما طفل مدلل وحفيد أنجبتاهما آسيا ، ولم يُقدّر لهما قط أن يتينا غزارة الثروة التى جاءتهما قبل بداية تاريخهما القديم ، لكننا إذا عمدنا الآن إلى تلخيص تلك الفنون وأساليب العيش التى استمدتها الغرب من الشرق ، أو التى ظهرت لأول مرة فى الشرق - حسب ما يدلنا علمنا المحدود المتداول - فسنجد أننا نرسم بذلك التلخيص - عن غير قصد منا - رسماً تخطيطاً لسير المدنية .

إن أول عوامل المدنية هو العمل - الزراعة والصناعة والنقل والتجارة ؛

ونحن نصادف. في مصر وآسيا أقدم ما نعلمه من حضارة زراعية(*)
إذ نصادف أقدم نظم الري ؛ كما نصادف أول(†) إنتاج لتلك المشروبات
المنبهة التي لانظن أن الحضارة الحديثة كان يمكن أن تقوم بغيرها — وهى
الجنة والنبذ والشاي ؛ لقد تقدمت الصناعات اليدوية والأعمال الهندسية في
مصر قبل عهد موسى ، تقدمها في أوروبا قبل فولتير ؛ والبناء بالقرايميد يرجع
تاريخه إلى عهد سرجون الأول على أقل تقدير ؛ وأول ظهور عجلة الخزاف
وعجلة العربة كان في « عيلام » ، وأول ظهور التيل والزجاج كان في مصر ،
وأول ظهور الحرير والبارود كان في الصين ؛ وخرج الحصان من آسيا الوسطى
إلى ما بين النهرين ومصر وأوروبا ؛ وأبحرت السفن الفينيقية حول أفريقيا
قبل عصر بركليز ، وجاءت « البوصلة » من الصين فأحدثت في أوروبا ثورة
تجارية ، وكانت سومر أول من ترك لنا عقوداً تجارية ؛ وأول نظام للقروض
وأول استعمال للذهب والفضة معيارين للقيمة ؛ والصين هى أول من قام
بمعجزة قبول الورق مكان الفضة والذهب .

وثانى عناصر المدنية هو الحكومة — أعنى تنظيم الحياة والمجتمع ووقايتها
بفضل القبيلة والأسرة والقانون والدولة ؛ ففي الهند تظهر الجماعة القروية ،
كما تظهر « دولة المدينة » في سومر وأشور ؛ ومصر قد أحصت سكانها
وفرضت ضريبة على الدخل وحافظت على الأمن الداخلى مدى قرون طويلة
دون أن تستخدم من وسائل العنف إلا حدها الأدنى ؛ وها هما « أور — إنجور »
« وحمورابى » قد سنّتا تشريعين عظيمين من تشريعات القانون ؛ و « دارا »

(*) يجوز أن تكون الزراعة وإخضاع الحيوان لخدمة الإنسان قديمين في أوروبا ، فيرجحان
فيها إلى العصر الحجري الجديد كما يرجحان إلى مثل هذا العصر في آسيا . لكن الأرجح أن ثقافة
أوروبا في العصر الحجري الجديد في أوروبا كانت أحدث عهداً من ثقافتى ذلك العصر نفسه في
أفريقيا وآسيا (راجع الجزء الأول من سلسلة أجزاء هذا الكتاب ، الخاص بنشأة الحضارة) .
(†) في هذه العبارات وما يتلوها من عبارات ، قد حذفنا كلمة « فيما نعلم » على أن
تكون مفهومة القارئ .

قد نظم بجيشه الإمبراطورى ورُسُلُه إمبراطوريةً من خير ما شهد تاريخ الحكومات فى حسن الإدارة .

وثالث عناصر المدنية هو الأخلاق — العادات وآداب السلوك ، والضمير والإحسان ؛ فالأخلاق قانون ينشأ فى باطن النفس ، ويولّد فيها آخر الأمر تمييزاً بين الصواب والخطأ ، وينظم ما يجيش فى الإنسان من شهوات فيخضعها للطريق السوى ؛ وبغير ذلك القانون تنحل الجماعة أفراداً وتسقط فريسة لدولة أخرى يكون فيها التماسك الاجتماعى ؛ ومن القصور الملكية القديمة فى مصر وما بين النهرين وفارس ، عرف العالم آداب المعاملة الرقيقة ؛ بل إن الشرق الأقصى لم يكنه اليوم أن يعلم آداب المعاملة وكرامة النفس للغرب الغليظ القلب ، وظهر فى مصر نظام الزواج بزوجة واحدة للزوج الواحد ، وهناك أخذ ذلك النظام يكافح ليثبت أقدامه ويدم بقاءه إزاء المنافسة التى لاقاها من نظام تعدد الزوجات للزوج أو الأزواج للزوجة الذى ظهر فى آسيا ، وهو نظام ظالم لكنه عامل على تحسين النوع البشرى ، وكذلك كانت مصر أول دولة بعثت صرختها مطالبة بإقامة العدل الاجتماعى ، كما كانت الدولة اليهودية أول من دعا الناس إلى الإخاء البشرى ، وأول من صاغ للإنسانية قانون الأخلاق الذى يشعر الإنسان بنسبته لأسرة البشرية جمعاء .

ورابع عناصر المدنية هو الدين — أى الانتفاع بعقائد الإنسان فى القوى الحارقة للطبيعة للتخفيف من الآلام والسمو بالشخصية الإنسانية وتقوية الغرائز الاجتماعية والنظام الاجتماعى ، فقد استمدت أوروبا أعز أساطيرها وتقاليدها من سومر وبابل والدولة اليهودية ، وفى تربة الشرق نبتت قصص الخلق والطوفان وسقوط الإنسان وخلاصه ، ومن آلهات أمهات كثيرات جاءتنا فى النهاية « أجمل زهرة من زهرات الشعر » وأعنى بها مارية أم الله — كما وصفها هينى = ومن فلسطين برزت الوجدانية وانبعث أرق أغاني الحب والثناء فى الأدب ، كما خرج منها أقوى وأعزل وأفقر شخصية شهدها التاريخ .

وخامس عناصر المدنية هو العلم - وهو النظر الصافي والتسجيل الصادق والاختبار المحايد وجمع المعرفة شيئاً فشيئاً ، بحيث تكون من الصدق الموضوعي بما يمكننا من التنبؤ بمجرى الطبيعة في المستقبل وضبطه ، فترى مصر قد طوّرت الحساب والهندسة وأنشأت التقويم ، كما نرى الكهنة المصريين قد مارسوا الطب وكشفوا عن الأمراض وقاموا بشتى صنوف العمليات الجراحية وسبقوا أبقرات في إخلاصه لفنه ، ودرست بابل النجوم ورسمت مواضع البروج وقسمت لنا الشهر أربعة أسابيع وآلة قياس الزمن اثنتى عشرة ساعة والساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية ، وعلمتنا الهند بواسطة العرب أعدادها البسيطة وكسورها العشرية السحرية كما علّمت أوربا دقائق التنويم المغناطيسى وفن التطعيم .

وسادس عناصر المدنية هو الفلسفة = وهى محاولة الإنسان أن يفهم شيئاً عن الوجود فى مجموعه ، ولو أن الإنسان حين يأخذ التواضع حيناً بعد حين يتبين الحقيقة وهى أن فهم الوجود فى مجموعه مستحيل إلا على اللانهاية ، هى بحث جرىء ياتس عن العلل الأولى للأشياء ومغزاها النهائى ، وعن معنى الحق والجمال والفضيلة والعدالة والإنسان الأمثل والدولة المثلى ، وهذا كله يظهر فى الشرق قبل ظهوره فى أوربا بقليل : فترى المصريين والبابليين يتأملون طبيعة الإنسان وقضائه المرسوم ، واليهود يكتبون تعليقات خالدة عن الحياة والموت ، بينما كانت أوربا تتخبط فى طور الهمجية ، كذلك نرى الهنود يتناولون المنطق ونظرية المعرفة فى نفس الوقت الذى عاش فيه بارميندس وزينون الأيلى على أقل تقدير ، وكتب الـ « يوبانشاد » نخوض فى الميتافيزيقا ، وبوذا يذيع علم نفس يشبه ما جاء به علم النفس الحديث القريب العهد ، مع أنه عاش قبل أن يولد سقراط بيضعة قرون ، وإذا كانت الهند قد أغرقت الفلسفة فى الدين ، ولم توفق إلى استخلاص التفكير السليم من أوهام الأمل ، فإن الصين قد صممت جادة أن تجعل تفكيرها دينوياً ، وأنجبت - قبل أن

يولد سقراط أيضاً - مفكراً كانت له حكمة رزينة لا تكاد تغير منها شيئاً إذا أردت أن تجعلها هادياً للناس في عصرنا هذا ، ومصدر وحى لكثير من الذين يودون مخلصين أن يسوسوا الدول سياسة شريفة .

وسابع عناصر المدنية هو الأدب - وهو نقل اللغة على تتابع الأجيال ، وتربية النشء وترقية الكتابة وإبداع الشعر والمسرحية والحافظ على القصة وتكوين ذكريات الماضي ؛ وأقدم ما نعرف من مدارس هو ما كان منها في مصر وبلاد النهرين ، بل إن أقدم المدارس الحكومية كانت مصرية كذلك ، والأرجح أن تكون الكتابة قد جاءتنا من آسيا ، كما جاءت أحرف الهجاء والورق والمداد من مصر ، ثم جاءت الطباعة في الصين ، ويظهر أن البابليين قد جمعوا أقدم مجموعة من قواعد النحو وقواميس الألفاظ وأول ما جمع من مكنتات ، والاحتمال قوى في أن تكون جامعات الهند قد سبقت أكاديمية أفلاطون ، وصقل الآشوريون أبناء الأساطير فجعلوا منها تاريخاً ، ثم نفخ المصريون في التاريخ فجعلوه ملحمة ، وقدم الشرق الأقصى إلى العالم تلك الصور الرقيقة من الشعر التي تركز كل روعتها في نظرات سادقة لطيفة يصوغونها في صور خيالية ترسم في أذهانهم لسانها ، وكان « نابونيدوس » و « آشوربانيبال » من رجال البحث الأثري - وهما اللذان استكشف الباحثون الأثريون آثارهما ، وترجع طائفة من الحكايات القديمة الخرافية التي تمتع أطفالنا إلى الهند القديمة .

وثامن عناصر المدنية هو الفن - وهو تجميل الحياة بالألوان والأنعام والصور التي تشرح الصدور ، والفن في أبسط ظواهره يكون في تجميل البدن ، فنرى ثياباً رشيقة ومجوهرات فاخرة ودهوناً للزينة الداعرة ، نجد كل ذلك في العصور الأولى من حضارة المصريين والسومريين والهنود ، وإن المقابر المصرية لملؤها قطع الأثاث الجميلة والخزف الرشيق والنحت الرائع في العاج والخشب ، ولا شك في أن اليونان قد تعلموا شيئاً من مهارتهم في النحت والعمارة والتصوير والنقش البارز ، لا من آسيا وإفريقيا فحسب ،

إن كذلك من الآيات الروائع التي كانت لم تزل في أيامهم تسطع على مرآة النيل ، فن مصر وبلاد النهرين أخذت اليونان نماذج عمدها الدورية والأيونية ، ومن تلك البلاد نفسها جاءنا إلى جانب العمدة «البواكى» والدهاليز والقياب ، وساهمت أبراج الشرق الأدنى القديم بنصيب في تشكيل العمارة الأمريكية اليوم ، وكان للتصوير الصينى والرسوم الحفرية اليابانية أثرهما في تغيير بعض قواعد الفن في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وكذلك وضع «البورسلان» الصينى أمام أعين الأوربيين نموذجاً جديداً للكمال تحتذي به ، والحلال الخزين الذى تسمعه في الأغنية الجريجورية ، يرجع عصره بعد عصر حتى يبلغ أصله الأول في الأغاني الباكية التي كان ينشدوها اليهود المشردون إذ هم يجتمعون خاشعين في معابدهم المتناثرة هنا وهناك .

تلك هي بعض عناصر المدنية ، وجزء من التراث الذى خلفه الشرق للغرب .

ومع ذلك كله فقد وجد العالم القديم (من التاريخ الأوروبى) مجال الإضافة إلى هذا التراث الفنى فسيحاً ، فستبنى إقريطش حضارة تكاد تبلغ في قدمها مبلغ الحضارة المصرية وستكون حلقة اتصال تربط بين ثقافات آسيا وإفريقيا واليونان ، وسترقى اليونان بالفن بحيث لا تنشد الحجم بل الكمال ، وستزواج بين رقة الأنوثة التي تتمثل في الصورة النهائية والصقل الختامى للقطعة الفنية وبين قوة الذكورة التي تتمثل في عمارة مصر وتماثيلها ، فتمهد السبيل بذلك إلى جو يظهر فيه أعظم عصر شهدته تاريخ الفن ، وستدخل في نواحي الأدب كلها تلك الخصوبة المبدعة التي يتصف بها العقل الحر ، فضيف ملاحم ملتوية الشباب ومآسى عميقة الأغوار ، وملاهى ضاحكة وتواريخ تأخذ بالخيال ، ستضيف كل ذلك إلى ذخيرة الآداب الأوروبية ، وستنظم الجامعات وتقيم حرية الفكر الديوى فترة ناصعة تتخلل فترات يضطهد فيها الفكر المستقل ، وستفوق كل سوابقها في الرقى بالرياضة والفلك وعلم الطبيعة التي خافتها لها مصر والشرق ، وستبتكر علوم الحياة ابتكاراً ، وتنبش نظر الإنسان إلى الكون نظرة طبيعية ، وستأخذ بيد الفلسفة حتى تصل بها إلى مرحلة الوعي.

والنظام وستبحث بحثاً عقلياً خالصاً في كل مشكلات حياتنا ؛ ستحرر الطبقات المتعلمة من سلطان رجال الدين ومن الخرافة ، وتحاول إقامة الأخلاق على أساس لا يعتمد في شيء على معونة ما فوق الطبيعة ؛ وستنظر إلى الإنسان باعتباره مواطناً لا باعتباره « رعية » وتهبه حريته السياسية وحقوقه المدنية ، وتطلق له من الحرية العقلية والخلقية ما لم يسبق له نظير ، ستخلق الديمقراطية خلقاً وتنشئ الفرد لإنشاء . وستستأنف روما السير في هذه الثقافة فتنتشرها في أرجاء الدول القائمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وتحمىها مدى خمسمائة عام من هجمات البرابرة ، ثم تنقلها خلال الأدب الروماني واللغات اللاتينية إلى أوروبا الحديثة ؛ وسترفع المرأة إلى مراكز القوة والمجد والتحرير العقلي ، التي ربما لم تكن قد ظفرت بها من قبل ؛ وتقدم إلى أوروبا تقويماً جديداً وتعلمها مبادئ النظام السياسي والأمن الاجتماعي ، وتقيم حقوق الفرد على أساس ثابت من القوانين التي عملت على تماسك القارة الأوروبية خلال قرون من الفقر والفوضى والخرافة .

وفي الوقت نفسه سيعود الشرق الأدنى ومصر إلى الازدهار مرة أخرى بحافز من التجارة والفكر اليونانيين والرومانيين ، وستحيى قرطاجنة كل ما كان لصيदा وصور من ثروة ورفاهية ؛ وسيجتمع « التلمود » في أيدي يهود مشتين لكنهم ذوو ولاء ؛ وسيزدهر العلم والفلسفة في الإسكندرية ، وسيتولد من امتزاج الثقافتين الأوروبية والشرقية دين أريد به أن يمحو الحضارة اليونانية والرومانية إلى حد ما ، وأن يُبقى عليها ويضيف إليها إلى حد ما ؛ إن كل العوامل كانت مهيأة لتنتج الفترات التي كانت بمثابة الذرى للعصور القديمة (الأوروبية) ، وهي أثينا في عهد بركليز ، وروما في عهد أوغسطس ، وأورشليم في عصر « هيرود » ؛ وكان المسرح معداً لمسرحية مثلثة الجوانب ، قوامها أفلاطون وقيصر والمسيح .

كلمة عن المؤلف

ولب «ول ديورانت» في «نورث آدمز» من أعمال «ماسدشوست» سنة ١٨٨٥ ؛
وتلقى تعليمه في مدارس « نورث آدمز » هذه ومدارس « كيرني » من أعمال
« نيو جيرسي » ، وهي مدارس تتبع الكنيسة الكاثوليكية في ذينك الإقليمين ؛
وتلقاه كذلك في كلية القديس بطرس (اليسوعية) في مدينة جيرسي وفي
جامعة كولمبيا بنيويورك ؛ ولبت صيفاً يشتغل مراسلاً ناشئاً « للحرية
نيويورك » وكان ذلك عام ١٩٠٧ ؛ لكنه وجد هذا العمل شديد الوطأة على
نفسه فلم يحتمل المضي فيه ، فاكثف بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية
وغيرها من المواد في كلية « سيتن هول » في سوث أورانج من أعمال نيو جيرسي
(١٩٠٧ - ١١) ، وهناك التحق بإحدى حلقات الدرس سنة ١٩٠٩ لكنه
عاد فتركها سنة ١٩١١ لأسباب ذكرها في كتابه « مرحلة التحول » وانتقل
من تلك الحلقة الدراسية إلى الدوائر المتطرفة في نيويورك ، وهناك اشتغل
التدريس في « مدرسة فر » (١٩١١ - ١٣) فكانت تلك الفترة بمثابة
لتجربة في التربية الحرة ؛ وفي سنة ١٩١٢ طاف بأرجاء أوروبا على نفقة
أولدن فريمان « الذي صادقه وتعهد أن يوسع من آفاقه ؛ وفي سنة ١٩١٣
كثرت اهتمامه في الدراسة ليحصل على الدرجة الجامعية من جامعة كولمبيا ،
تخصص في علم الحياة متتلماً على « مرجن » و « كالكينز » ؛ وفي الفلسفة
تتلماً على « وودبردج » و « ديوي » ؛ ونال درجة الدكتوراه من تلك
الجامعة سنة ١٩١٧ ، وأخذ يعلم الفلسفة في جامعة كولمبيا عاماً واحداً ؛ ثم بدأ
نقى في سنة ١٩١٤ - في الكنيسة المسيحية الكاثنة في شارع أربعة عشر وفي
طريق الثاني بنيويورك - بدأ يلقي هناك تلك المحاضرات في الفلسفة والأدب
في أعدته لإخراج كتابيه « قصة الفلسفة » و « قصة الحضارة » ؛ فقد كان

معظم المستمعين إليه في تلك الحاضرات من العمال والعاملات الذين كانوا يتطلبون وضوحاً تاماً وعلاقة تربط ما يقال بالحوادث الجارية ، كانوا يتطلبون ذلك في كل المواد التاريخية التي تعتبر جديدة بالدرس ، وفي سنة ١٩٢١ نظم « مدرسة لبيير تمبل » التي أصبحت تجربة من أنجح التجارب التي أجريت في تربية الكبار في العصر الحديث ، ثم تركها سنة ١٩٢٧ ليكرس نفسه لكتاب « قصة الحضارة » وطاف بأوروبا مرة أخرى سنة ١٩٢٧ ، وطوف بالعالم سنة ١٩٣٠ ليدرس مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان ، وعاد فطوف بالعالم من جديد سنة ١٩٣٢ ليزور اليابان ومنشوريا وسبيريا والروسيا ، وهو يرجو لنفسه في الخمسة الأعوام المقبلة (التي تلت إخراج هذا الجزء من قصة الحضارة) أن ينفق عاماً في اليونان وإيطاليا ليأخذ أهفته للجزء الثاني من « قصة الحضارة » .

المراجع†

الباب الثامن والعشرون

1. The *Kojiki* (681-711), in Murdoch, i, 59f, and Gowen, H.H., *Outline History of Japan*, 37f.
2. Murdoch, iii, 483.
3. Gowen, *Japan*, 13; Chamberlain, B.H., *Things Japanese*, 249.
4. Gowen, 25, reports three days of rain or snow in the average week.
5. Gowen, 17, 12; Chamberlain, B. H., 195; Redesdale, Lord, *Tales of Old Japan*, 2.
6. Chamberlain, B. H., 127.
7. Gowen, 99; Murdoch, iii, 211, 895-7; Chamberlain, 130.
8. Ibid, 128.
9. Hearn, Lafcadio, *Japan : An interpretation*, 455.
11. Gowen, 61; Murdoch, i, 38.
12. Ibid.
13. Hearn, 448; Fenollosa, ii, 159.
14. Fenollosa, i, 64; Murdoch, i, 98-9.
15. Gowen, 64.
16. Murdoch, i, 49, 97.
17. Armstrong, 5, 18.
18. Ibid., 2.
19. Hearn, 53.
20. Murdoch, i, 39.
21. Brinkley, Capt. F., *Japan : Its History, Arts and Literature* v, 118 Hearn, 45, 51.
22. Gowen, 67.
23. Ibid., 65.
25. Ibid., 118.
26. Murdoch, i, 240-1.
27. Ibid, i, 377-8; Gowen, 116.
28. Murasaki, Lady, *Tale of Genji*, 27.
29. Tetjens, 156; tr. Curtis Hidden Page, Some authors attribute the poem to Michizane (Gowen, 119).
30. Close, Upton. *Challenge: Behind the Face of Japan*, 28; Gowen, 105; Latourette, i, 226.
31. Fenollosa, i, 149.
32. Brinkley *Japan* iv, 148.
33. Fenollosa, 153
34. Murdoch, i, 279.
35. Brinkley, i, 230.
36. Murdoch, i, 228 30.
37. Gowen, 147.
38. Murdoch, ii, 711.
- 38a. Close, *Challenge*, 54.
39. Gowen, 156.
40. Ibid., 161 - 2; Murdoch, i, 545; Brinkley, ii, 190.
41. Ibid, ii, 108; vii, 17.
42. Close, 33.
43. Ibid., 34.
44. Murdoch, ii, 305.
45. Ibid., ii, 311.

(†) سُنِّبَ اسم الكتاب كاملاً عند أول ورودهِ في هذه القائمة ثم نُكِّنِي بعد ذلك.

بذكره مختصراً

46. Froez in Murdoch, ii, 369.
47. Gowen, 191.
48. Murdoch, ii, 89, 90, 238; Hearn, 365; Gowen, 191.
49. Hearn, 365.
50. Murdoch, ii, 241.
51. Ibid., 243.
52. Close, 44.
53. Brinkley, ii, 219.
54. Armstrong, 85.
55. Close, 56.
56. Ibid., 57-8.
57. Aston, 218-9; Bryan, 117.
58. Murdoch, ii, 402f.
59. Ibid., ii, 205.
60. Brinkley, ii, 205.
61. Murdoch, iii, 315-30.
62. Hearn, 390.

الباب التاسع والعشرون

1. Hearn, 3.
2. Okakura, 10, 8.
3. Brinkley, iv, 6-7, 134; Murdoch iii, 171.
4. Brinkley, ii, 116; iv, 172.
5. Ibid., iv, 36.
6. Chamberlain, B. H., 415.
7. Nitobe, Inazo, *Bushido, the Soul of Japan*, 18.
8. Brinkley, iv, 147, 217; Redesdale, 40.
9. Secretion of Iyeyasu's "Legacy" in Hearn, 193; Murdoch, iii, 40.
10. Ibid.,
11. J. H. Longford, in Murdoch, iii, 40n. Longford adds, *Se non everò ben trovato*.
12. Nitobe, 23.
13. Brinkley, iv, 56.
14. Ibid., 142, 109.
15. Hearn, 313; Gowen, 251.
16. Ibid., 364.
17. Murdoch, iii, 221; Aston, 231; Chamberlain, *Things Japanese*, 220-1; Hearn, 318.
18. Close, 59; Nitobe, 141.
19. Redesdale, 13, 16-7, 272; Aston, 230; Murdoch, iii, 235.
20. Nitobe, 121.
21. Murdoch, i, 188-9.
22. Brinkley, *Japan*, iv, 53; Hearn 328.
23. Brinkley, iv, 55, 92; Close, 58.
24. Brinkley, iv, 61.
25. Ibid., 63.
26. Hearn, 195.
27. Close, 58.
28. Hearn, 378.
29. Murdoch, iii, 336; Brinkley, iv, 67.
30. Hearn, 260, 255; Murdoch, i, 172; Brinkley, i, 238, 241; iv 111.
31. Gowen, 97.
32. Chamberlain, 150; Redesdale, 16; Armstrong, 19.
33. Brinkley, i, 133.
34. Murdoch, i, 17.
35. Brinkley, v, 195; ii, 118.
36. Gowen, 98.
37. Brinkley, ii, 118; v, 1; Murdoch, i, 603.
38. Close, 341.
39. In Aston, 149-50.
40. *History of Japan*, iii, 21, in Murdoch, iii, 171.
41. Cf. Close, 369.
42. Murdoch, iii, 445-50.

44. *Encyc. Brit.*, viii, 910.
45. Gowen, 115.
46. Sansum, W. D., M. D., *Normal Diet*, 76.
47. Brinkley, i, 209, 213.
48. Shonagon, Lady Sei, *Sketch Book*, 29.
49. Brinkley, iv, 176-81 ; ii, 92, 104 ; Hearn, 257 ; Holland, Clive, *Things Seen in Japan*, 172.
50. Brinkley, i, 139, 209-10 ; iv, 130, 175, 186.
51. Brinkley, ix, 176.
52. Chamberlain, 60.
53. *Ibid.*
54. Murdoch, i, 40.
55. Brinkley, iv, 164.
56. *Ibid.*
57. *Ibid.*, i, 146 ; ii, 106.
58. *Ibid.*, ii, 111-2.
59. Ganteby, E. V., *Cloud Men of Yamato*, 35-6.
60. Brinkley, ii, 258-66.
61. Okakura, 15.
62. Gowen, 213.
63. *Ibid.*
64. Okakura, 139 ; Brinkley, iii, 9.
65. Walsh, Clara, *Master-Singers of Japan*, 108.
66. Gowen, 23.
67. Binyon, 30.
68. Gatenby, 25.
69. Hearn, 85.
70. *Ibid.*, 75, 80-1, 89 ; Murdoch, iii, 75.
71. Aston, 282 ; Hearn, 78 ; Redesdale, 92 ; Brinkley, i, 149.
72. Armstrong, 55.
73. Brinkley i, 188.
74. Shonagon, 50.
76. Brinkley, iv, 142 ; Close, 62 ; Chamberlain, 504.
77. *Ibid.*, 501 ; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 171.
78. Close, 61.
79. Hearn, 68, 83.
80. Genesis, ii, 24 ; Chamberlain, 166.
81. Nitobe, 141.
82. Cf., e.g., the passage quoted in Bryan, 88.
83. Redesdale, 37 ; Ficke, A. D., *Chats on Japanese Prints*, 210 ; Chamberlain, 525 ; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 200.
84. Brinkley, iv, 116.
85. *Ibid.*, 120.
86. Murdoch, iii, 216.
87. Brinkley, ii, 49.
88. Redesdale, 34.
89. Brinkley, v, 257.
90. By Prince Aki, 740 A.D., in Gatenby, 33.
91. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 144.
92. Brinkley, v, 207 ; Murdoch, iii, 112.
93. *Ibid.*, ii, 18-9.
94. *Ibid.*, ii, 18 ; Brinkley, i, 181.
95. *Ibid.*, i, 182.
96. Murdoch, i, 489.
97. *Ibid.*, 603.
98. *Ibid.*, 605 ; Armstrong, 171.
99. Brinkley, v, 254.
100. Murdoch, iii, 101, 113.
101. *Ibid.*, 115-9.
102. Armstrong, 56f.
103. *Ibid.*, 76, 78, Aston, 263-4.
104. Ekken, Kaibara, *Way of Contentment*, tr. by K. Hoshino, 71.
105. *Ibid.*, 90.
106. 24, 17.
107. 24.
108. 33, 39, 43.

109. 85, 44, 59, 61, 49, 54. I have ventured to print the last two lines as poetry, though the text gives them as prose.
110. Murdoch, iii, 127.
111. Armstrong, 133.
112. Ibid.
113. Murdoch, iii, 129f.
114. In Armstrong, 222.
115. Ibid., 236f 226.
116. 263-4.
117. 261.
118. 241f.
119. 255 ; Murdoch, iii, 481.
120. Ibid., iii, 343-4.
121. Ibid., 474.
122. Ibid , 476f, 485 ; Aston, 319-32.
123. Murdoch, iii, 491-2.

الباب الثلاثون

1. Close, 28.
2. Bryan, 13-15 ; Aston, 56-7; Gowen, 125.
3. Carter, 35.
4. Ibid , 178.
5. Close, 77.
6. Brinkley, i, 229 ; iv, 136.
7. Gatenby, 27.
8. Bryan, 54, 74.
9. Aston, 263.
10. Tr. by Curtis Hidden Page, in Tietjens, 162.
11. Tietjens, 163.
12. Murdoch, ii, 515.
13. Murasaki, Lady, 239.
14. Ibid., 149, 235 ; Shonagon, 51.
15. Murdoch, iii, 326.
16. Noguchi, Yone. *Spirit of Japanese, Poetry*, 11.
17. Gatenby, 97-102 ; Tietjens, 159.
18. Holland, 157.
19. Murdoch, iii, 470.
20. Gowen, 128.
21. Murasaki, 33, 29.
22. Ibid., 75.
23. 98, 134.
24. 144.
25. 46.
26. 50.,
27. Bryan, 65 ; Gowen, 128.
28. Holland, 137 ; Aston, 56.
29. Ibid., 846-8. 391.
30. Ibid., 269-71.
31. Ibid., 392.
32. Murdoch, i, 571.
33. Aston, 255.
34. Brinkley, v, 112.
35. Aston, 249.
36. Gowen, 268.
37. Murdoch, iii, 240.
38. Aston, 116.
39. Ibid., 114f. I have changed the the order of the last five items.
40. Aston, 197-9 ; Bryan, 100.
41. Redesdale, 84.
42. Close, 65.
43. Okakura, 132.
44. Noguchi, 11.
45. Bryan, 136.
46. Brinkley, iv, 110.
47. ibid., vi, 113 5.
48. Aston, 279.
49. Okakura, 112 ; Brinkley, viii, 29.
50. Brinkley, vii, 319.
51. *Encyc, Aris.*, vii, 960.
52. Brinkley, i, 219 ; iv, 156 ; Chamberlain, 340-3.
53. Brinkley, iv, 78.

54. Muraski, 212.
55. Chamberlain, 84.
56. Brinkley, vii, 157.
57. Ibid., vii, 84.
58. Fenollosa, i, 56.
59. Gowen 105.
60. Murdoch, i, 503.
61. Ledoux, L.V., *Art of Japan*, 62.
62. Armstrong, 9.
63. Brinkley, vii, 77.
64. Gowen, 124.
65. Ibid., 213.,
66. Brinkley, viii, 11.
67. Ibid., 265.
68. 25.
69. 180.
70. 185.
71. 236.
72. Brinkley, vii, 339.
73. Ibid., 9.
74. Brinyon 53.
75. Ibid , 20.
76. Fenollosa, ii, 81.
77. Okakura, 113.
77. *Encyc, Brit.*, vii, 964.
79. Ledoux, 26.
80. Ibid., 28.
81. Gowen, 284.
82. Fenollosa, ii, 183. it should be added that in the opinion of some critics Matabei is a mythical personage.
83. Ficke, 282-94.
84. Gowen, 285 ; Ficke, 363.
85. Noguchi, 27.
86. Ficke, 368.
87. Gowen, 284.
88. Fenollosa, ii, 204.
89. Gowen, 286.
90. Dickinson, O. Lewes, 65.
91. *Ten O'clock, Sub fine.*

الباب الحادي والثلاثون

1. Murdoch, iii, 456 ; Gowen, 287.
2. Ibid., 298-9.
3. 300.
4. 312.
5. Brinkley, iv, 217.
6. Ibid., 81, 256.
7. Close, 325.
8. Ibid., 165.
9. Gowen. 349.
10. Close, 149.
12. Gowen, 376.
13. Close, 872.
14. *Word Almanac*, 1935, p. 667.
15. Close, 395.
16. *Almanac*, 668 ; Close, 391 N.Y. *Times*, April 15, 1934.
17. Gowen, 341.
18. Close, 289.
19. Eddy, 119, Park, 250 ; Holland, 148-52 ; Barnes, Jos., ed., *Empire in the East*, 70.
20. Eddy, 124f.
21. Ibid., 118., 136.
22. Hearn, 488.
23. Barnes, 69 ; Close, 373. The Maurette Report, of June 1, 1934, to the International Labor Office, accepts this explanation of the low wage-level in Japan.
24. Close, 344.
25. Hearn 17.
26. Close, 134-42.
27. Chamberlain, 314 ; Close, 302.
28. Ibid., 198.

- | | |
|--|--------------------------------|
| 29. Chamberlain, 447. | 37. Tsurumi, 59. |
| 30. Close, 177f. | 38. Gowen, 416. |
| 31. Eddy, 127. . | 39. Barnes, 51. |
| 32. <i>Almanac</i> , 669. | 40. <i>Ibid.</i> , 48-50. 197. |
| 33. Brinkley, v, 83. | 41. Gowen, 369-70. |
| 34. <i>Almanac</i> , 669. | 42. <i>Ibid.</i> , 402. |
| 35. Tsurumi, Y., <i>Present-day Japan</i> ,
68. . | 43. Barnes, 75 ; Close, 377. |
| 36. Walsh, 116 ; Bryan 40, 194. | 44. <i>Almanac</i> , 974. |
| | 45. Barnes, 62. |

فهرس الاعلام

(۱)

اوساكا ۱۴۴ ، ۱۲۵ ، ۱۵۵ ، ۱۷۴ ،

۱۷۵

ارسكاروايلد ۶۰

اوغسطس ۲۰۵

اوناديكاكو (كتاب) ۷۹

اونكى (رسم) ۱۳۱

اونوجورينمون (نحات) ۱۳۳

اوفى (شيطان) ۷۰

اويوى (مدرسة فكرية) ۸۰ وما بعدها

ايجر جت دى قيصر (خراف هولندي) ۱۳۸

ايتا (طبقة اجتماعية) ۴۶ ، ۱۸۶

ايتوتوجاى (مفكر) ۸۴

ايتو حنمى (مفكر) ۸۲ ، ۸۳ ، ۸۵

ايتو هيروبووى ۱۶۹ ، ۱۷۰

ايزاجاى (إله) ۸ ، ۸۷

ايزانامى (آلهة) ۸ ، ۸۷ ، ۱۱۸

ايباسو (حاكم) ۲۴ ، ۲۸ وما بعدها

۳۸ ، ۴۲ ، ۴۵ ، ۴۶ ، ۸۴ ، ۹۰ ،

۱۱۳ ، ۱۲۱ ، ۱۲۵ ، ۱۴۸ ، ۱۶۵

ايبيتسو (حاكم) ۳۳ ، ۱۲۵

ايبسادو (حاكم عسكري) ۱۶۷

ايشى يو (كاتبة) ۱۸۶

ايميتسو (حاكم عسكري) ۳۹

ايبينارى (حاكم عسكري) ۶۶

ايبوشى (امبراطور) ۱۶۶

(ب)

بارمينيس ۲۰۲

باسومارو (مؤرخ) ۱۰۵

بركليز ۲۰۰ ، ۲۰۵

پكوك (أوراق) ۱۱۶

برى (قائد بحرى أمريكى) ۱۶۶ ، ۱۶۷

أبقراط ۲۰۲

إتوا ۱۶۸

أچانقا ۱۴۲

أدولف كروش (أمريكى) ۱۲۰

أراى هاكوسيكى (عالم) ۷۲ ، ۱۰۸

أريتا (مدينة لصنع الخرف) ۱۳۷ ، ۱۳۸

إزوى ياما (مصدر الپورسلان) ۱۳۸

استهنوس (فنان) ۱۲۵

أشور بانفبال ۲۰۳

أشباى (فيكرت) ۱۹۱

اشيكاجا (اسرة) ۲۳ ، ۱۲۳

أشيكاجا تاكاوجى (قائد عسكري) ۱۴۶ ،

۱۴۷

اشيكارا (عالم دينى) ۷۲

أفلاطون ۲۰۳ ، ۲۰۵

أكاميتو (شاعر) ۹۲

اكن (فيلسوف) ۶۴

إل جريكو ۱۴۴

أما تيراسو (آلهة الشمس) ۸ ، ۸۷

إمرسن (كاتب أمريكى) ۷۷

أميدا - بوذا ۱۳۰ ، ۱۴۴

إنرو (حلية لزيينة) ۱۲۰

إنكيو (امبراطور) ۱۱۸

أنوبى ۱۶۸ ، ۱۹۳

أواسا ماتابى (فنان) ۱۵۴

أوتومارو (فنان) ۱۵۶

أوحيوسوراي (مفسكر) ۸۲ ، ۸۴

وما بعدها

أور - انجور (مشرح) ۲۰۰

أورنجيزب ۱۳۱

بوذا ۱۱۷ ، ۲۰۲

بوذية ۱۴

بوشينو (قانون الفروسية) ۳۸ وما بعدها

بوکا (قالب في الشعر) ۱۸۶ ، ۱۸۷

بوني (هنري) ۱۹۴

بیبو (صا مجموعه من الصور) ۱۴۱

بيوا (آلة موسيقية) ۱۱۸

(ت)

تاج محل ۱۳۱

تاکا (أمير) ۱۵

تاکا توکی (حاكم) ۲۳

تاکاکورا (قصر) ۱۲۴

تاکامورا (نحات) ۱۳۳

تاکامین (عالم) ۱۸۳

تاکابوش (فنان) ۱۴۵

تانج (حاكم) ۱۸

تانکا (قالب في الشعر) ۹۴ ، ۹۶ ، ۹۷

۱۸۶ ، ۱۸۷

تانیو (فنان) ۱۴۸

تاهيتو (شاعر) ۵۶

تايرا (أسرة) ۱۷

تای - ينج (ثورة) ۱۶۶

تراث (كتاب للإمبراطور أيباسو) ۳

تسورا يوكي (شاعر) ۵۹ ، ۶۸ ، ۶۹

۹۲ ، ۹۳

تسونايوش (حاكم وراع للفنون) ۳۳

تشمبرلين ۱۸۸

تشيرو (شاعرة) ۵۹

قلمود ۲۰۵

تنش تينو (مشرع) ۴۴ ، ۹۰

توبا سوجو (فنان) ۱۴۵

توجو (أميرال) ۱۷۳

توجوواکا (أسرة حاكمة) ۳۶

تودايجي (معبد) ۱۱۸ ، ۱۲۳

تورو كوجوموتو (فنان) ۱۵۵

توسا (مدرسة فنية) ۳۳ ، ۱۴۵

توسون (شاعر) ۱۸۶ ، ۱۸۷

توشيرو ياكى (آثار خزفية) ۱۳۷

توكوجاوا (أسرة حاكمة) ۲۴ ، ۳۳ ، ۳۴

۴۷ ، ۵۰ ، ۵۲ ، ۵۴ ، ۷۲ ، ۱۴۷ ، ۱۴۸

۱۶۵ ، ۱۵۰ ، ۱۶۵

توكو جاواشو جونائى ۷

توم چونز (قصة) ۱۱۶

تويانا (زعيم وطنى) ۱۸۱

(ث)

ثورو (كاتب أمريكى) ۱۱۱

(ج)

جنيتو شوتوكى (كتاب تاريخ) ۱۰۶

جنجى (قصة) ۶۵ ، ۹۹ وما بعدها ، ۱۱۶ ، ۱۱۹ ، ۱۴۵

جنروكو (حاكم) ۳۳ ، ۹۷

جنشى (موت التابع عند موت متبوعه) ۳۹

جوتز سايجيرو ۱۳۹

جودايچو (إمبراطور) ۲۳

جوكاكو (نحات) ۱۳۱

جوكى (نحات) ۱۳۱

جوناس . هانواى (كاتب) ۵۸

جيشنشا إيكيو (قصص) ۱۰۴

جيتيه (الشاعر الألماني) ۷۶ ، ۷۷

جيزو (إله) ۷۰

جيشا (طائفة الغواني) ۶۶

(ح)

هورايجو ۲۰۰

(د)

دارا ۲۰۰

دايوتسو ۱۱۸
 دايجو (إمبراطور مستنير) ۱۸ ، ۹۲
 دای نهونشی (كتاب تاريخ) ۱۰۶
 دلفت (مكان لصناعة الخزف في هولنده)
 ۱۳۸
 دنجيو دايشي (كاهن) ۱۴۴
 (ج)
 راكوياكى (اسم لنوع من أفداح الشاي)
 ۱۳۸
 رالف آدمز كرام ۱۲۳
 روکو (واضع قواعد شرب الشاي) ۵۷ ،
 ۱۳۸
 روسو ۶۰ ، ۶۹ ، ۸۵
 روزفلت ۱۷۲ ، ۱۹۲
 روكنلر ۱۸۴
 رونافات (فئة من السيفين) ۴۱
 ريزا مپى (خزاف) ۱۳۸
 (ز)
 زن (حالة في البوذية) ۱۴۴ ، ۱۴۶
 زنجورو هوزن (خزاف) ۱۴۰
 زينون ۲۰۲
 (س)
 ساتسوما (مكان لصنع أفداح الشاي)
 ۱۳۸ ، ۱۳۹
 ساتو (سير) ۸۶
 ساكون (مثال لها راكبرى) ۴۲
 سامواراي (حملة السيف) ۲۸ وما بعدها ۳۷
 وما بعدها
 ساميزانة (آلة موسيقية) ۱۱۸
 ساندوكيودن (قصصى) ۱۰۳
 سايچيو هوشى (شاء) ۹۵
 سبنسر (فيلسوف انجليزى) ۱۸۲
 سبنوزا ۷۵ ، ۸۱
 سيوكيو (انتصار بينر البطن) ۴۰
 سرجون الأول ۲۰۰
 سى شوناجون (مؤلفة) ۵۳ ، ۶۳ ، ۶۵
 وما بعدها
 سيشيو (فنان) ۱۴۶ ، ۱۴۷
 سقراط ۲۰۲
 سوجاوار (أسرة) ۱۷
 سوجاوارا ميتشيزانى (راع للأدب) ۹۷
 سوکوکوجى (مدرسة فنية) ۱۴۶
 سويكو (إمبراطورة) ۱۴ - ۱۲۲
 سيتو (مدينة لمصنع الخزف) ۱۳۷
 (ش)
 شاراكو (فنان) ۱۰۵
 سنتو (ديانة) ۱۳ ، ۷۱ ، ۸۶ ، ۱۲۲ ،
 ۱۶۸
 شنجون (مذهب دينى) ۷۱
 شنشو (فنان) ۱۵۸
 شويون (فنان) ۱۴۶
 شوتوكوا ۹۰ ، ۱۲۲
 شوتوكوتايشى (أمير) ۱۴ ، ۱۳۱ ،
 ۱۸۸
 شوجن (اسم للحاكم العسكري) ۳۶
 وما بعدها
 شودفو (فنان) ۱۴۶
 شوشو (بلد سيشيو) ۱۴۷
 شومو (إمبراطور) ۴۵ ، ۱۳۱
 شونزوى (خزاف) ۱۳۷
 شوهمى (مؤلف) ۷۳
 شيكاماتسو (مؤلف مسرحى) ۱۱۵
 شكسير ۱۱۲ ، ۱۱۵
 شيما رزو (أسرة حاكة) ۳۷
 شيما زويو (قائد) ۱۳۸
 (ص)
 صنج (فنان) ۱۴۵ ، ۱۶۳

دايوتسو ۱۱۸
 دايجو (إمبراطور مستنير) ۱۸ ، ۹۲
 دای نهونشی (كتاب تاريخ) ۱۰۶
 دلفت (مكان لصناعة الخزف في هولنده)
 ۱۳۸
 دنجيو دايشي (كاهن) ۱۴۴
 (ج)
 راكوياكى (اسم لنوع من أفداح الشاي)
 ۱۳۸
 رالف آدمز كرام ۱۲۳
 روکو (واضع قواعد شرب الشاي) ۵۷ ،
 ۱۳۸
 روسو ۶۰ ، ۶۹ ، ۸۵
 روزفلت ۱۷۲ ، ۱۹۲
 روكنلر ۱۸۴
 رونافات (فئة من السيفين) ۴۱
 ريزا مپى (خزاف) ۱۳۸
 (ز)
 زن (حالة في البوذية) ۱۴۴ ، ۱۴۶
 زنجورو هوزن (خزاف) ۱۴۰
 زينون ۲۰۲
 (س)
 ساتسوما (مكان لصنع أفداح الشاي)
 ۱۳۸ ، ۱۳۹
 ساتو (سير) ۸۶
 ساكون (مثال لها راكبرى) ۴۲
 سامواراي (حملة السيف) ۲۸ وما بعدها ۳۷
 وما بعدها
 ساميزانة (آلة موسيقية) ۱۱۸
 ساندوكيودن (قصصى) ۱۰۳
 سايچيو هوشى (شاء) ۹۵
 سبنسر (فيلسوف انجليزى) ۱۸۲
 سبنوزا ۷۵ ، ۸۱

كاناجاوا. (معاهدة) ١٦٧
كاناياما (شيوعي) ١٧٧
كانجاكوشا (طائفة علمية تناصر الصين)
٨٥

كانج ته ١٩٤
كانو (مدرسة فنية) ٣٣
كافويتوكو (فنان) ١٢٤ ، ١٤٨
كابوماسانويو (فنان) ١٤٧
كانو موتوبو (فنان) ١٤٧
كايبارا إكن (مفكر) ٧٧
كتزان (خزاف) ١٣٩
كوانون (آلهة) ٧٠
كوبوداشي (قديس) ٧١ ، ١٣١ ،
١٤٤

كوتاني (مكان لصنع الخزف) ١٣٩
كوتسوكي ٤١
كوحون (إمبراطور) ٢٣
كوجيكي (كتاب) ١٠٥
كورين (فنان) ١٣٩ ، ١٤٨
كوسى نو (فنان) ١٤٤
كوشين (إمبراطور) ٤٥
كوكن (إمبراطورة) ٦٥
كوركنشو (ديوان شعر) ٩٢ ، ٩٤
كوكى (نحات) ١٣١
كومازادا (مفكر) ٨٢ ، ٩١
كونفوشيوس ٢٥ ، ٣٢ ، ٧٣ ، ٨٢ -
٨٥

كوياسان (دير) ٧٠
كوتيسو كورين (مدرسة فنية) ١٤٨
كيثا باتاكي (مؤرخ) ١٠٦
كيثا ساتو (عالم) ١٨٢
كيكي (حاكم عسكري) ١٦٨
كيمفر (مؤلف) ٤٩
كيميارو (نحات) ١٣١
كيوتو (حاكم) ٥٣
كيو كوكى باكين (قصص) ١٠٤

(ع)

همارى (ميناء) ١٣٨

(ف)

فايفس (نوع من الخزف) ١٣٩
فتزجرولد (المترجم رباعيات الخيام) ١٠٢
فرانسر اكسافير (مبشر) ٢٧
فرا انجليكو ١٤٤
فلاسكويز (فنان) ١٥٩
ففلوزا (مؤلف) ١٢ ، ١٨
فويجيوارا (أسرة) ١٧ ، ١٨ ، ١٤٥
فيدياسى ١٢٥
فيلدنچ (قصص انجليزى) ١١٦
فيوجى (جبل معبود) ٩
فيواجوارا سيچوا (مفكر) ٧٣ ، ٧٤

(ق)

قبلا فان ٢٢ ، ١٢٤
قيصر ٢٠٥

(ك)

كايوكى شيباي (مشرح شعبي) ١١٤
كاتاكاتي (نوع من الكتابة) ٨٩
كاتوشيرو زيمون (خزاف) ١٣٧
كاجا ١٣٩
كاجا نوشيو (شاعرة) ٩٦
كاجاوا (اشتراكي مسيحي) ١٧٧
كارلايل ١٥٠
كاسوجا ١٤٥
كاكيمون (خزاف) ١٣٨
كاكيمونو (نوع من التصوير) ١٤٢
كاماتاري ١٥
كاماكورا ١٣٣
كامونوشوى (أديب) ١١٠

کیون ۱۴۵

کیونا جا (فنان) ۱۵۵

(ل)

لافکادیو هیرن (مؤلف) ۱۲، ۲۷، ۳۳،

۳۵، ۱۷۷، ۱۸۱

لانديکوا (بحار إسبانی) ۳۱

لانسج (وزير) ۱۹۱

لنیفورد (مؤلف) ۳۸

لیتن (ایرول) ۱۹۳

لیوفاردو ۱۴۷، ۱۶۳

(م)

ماتسورا - باشو (شاعر) ۹۷

ماروبای اویکو (فنان) ۱۵۰ - ۱۵۲

ماکیه ذر (نوع من التصویر) ۱۴۲

مانیوشو (کتاب قدیم) ۹۲

مایوشی (کتاب ومفکر) ۷۲، ۸۶،

۱۶۶

مکسوکونی (حنید آیسو وهو مؤرخ

۱۰۶

منشاواکی (صناعة خزفیه) ۱۴۰

مردوخ (کاتب) ۷۲

المصح ۲۰۵

مکدن (مذبحه) ۱۷۲

مل (ستوارت) ۱۸۲

ملت (مصور) ۱۶۳

منج (مکان لصناعة الخزف) ۱۶۳

موتو اوری (مصاح دینی ومفکر) ۸،

۷۲، ۸۶، ۸۷، ۱۶۶،

موراساکی توشیکیو (کاتبه قصصیه) ۹۹

وما بعدها ۱۱۶، ۱۱۹

موروکیوسو (مفکر) ۷۵

مورس ولیم (۱۵۰

موری سوزن (فنان) ۱۵۲

مولیر ۸۴

مودو (امپراطور) ۴۴، ۹۰

میسوهیتو (امپراطور) ۳۹

مینا موتو (أسرة) ۱۷، ۲۳

مینا موتو سائیتومو (حاکم شاعر) ۱۸،

۲۱

(ن)

نابلیون ۱۷۰، ۱۸۳

نابونیوس ۲۰۳

نارا ۴۶، ۵۳، ۸۹، ۱۱۸، ۱۲۲،

۱۲۳، ۱۳۰، ۱۳۳

ناکای توجو (مفکر) ۸۱

نامیکاوا تنجین (کاتب) ۸۴

نایکی (مثال للهاراکیری) ۴۲

نکسوکا (حلیه للزینة) ۱۲۰، ۱۳۳

نخوشی (عالم) ۱۸۳

نکو ۱۲۱، ۱۲۵، ۱۴۸

ننسی (خزاف) ۱۳۹

نوبونا جا ۲۴، ۲۵، ۱۱۴، ۱۳۸

نوجی (قائد حربی) ۳۹، ۱۷۲

نیدون (معناها اليابان) ۸

نیشی هنجوان (معبد) ۱۲۱، ۱۲۴

نینجی (إله) ۸

(ه)

هاراکیری (طريقة الانتحار) ۴۰،

۱۹۳

هارونوبو (فنان) ۱۵۴، ۱۵۵

هاشیمارو (مثال للهاراکیری) ۴۲

هانکامبو (کتاب تاریخ) ۱۰۷

هایاشی رازان (مفکر) ۶۴ وما بعدها

۹۱

هتو ۳۹

هویز (فیلسوف انجلیزی) ۸۵

هیوز (وزیر آمریکى) ۱۹۱ ، ۱۹۲ -

(و)

واجاکوشا (طائفة علمية تتعصب ضد

الصين) ۸۶

وانج یانچ منچ (مفکر) ۸ ، ۸۱

وايوستو (تمثال) ۱۳۳

تمان (کاتب آمریکى) ۱۵۹

وردزورث ۶ ، ۱۰۲

وسلر (فنان) ۱۵۹ ، ۱۶۰ ، ۱۶۳

ویلی (مترجم قصة جنجی) ۱۰۲

یاجودا ۱۲۴

ینہونجی (کتاب تاریخ) ۱۰۶

یوبانشاد (کتاب مقدس ہندی) ۲۰۲

یوریتومو ۲۱ ، ۱۳۷

یوری (حاکم) ۱۶۷

یوسیمتسوا (حاکم عسکری) ۱۴۶

یوشیماسا (حاکم محب للفنون) ۲۳ ، ۱۴۷

یوشیمسو (حاکم محب للفنون) ۲۳ ، ۷۲

۱۲۳

یوشیمونی (حاکم) ۲۳ ، ۴۵ ، ۱۶۵

۱۸۸

یوکیوئی (مدرسة فنية) ۱۵۴ - ۱۵۷

۱۵۹

یوی - ی - مون (بوابة مشهورة)

۱۲۵

ییشن سوزو (کاهن) ۱۴۴

هوج (أسرة حاكمة) ۲۲

هوجوکی (کتاب مقالات) ۱۱۰

هوریوجی (معبد) ۱۵ ، ۱۲۲ ، ۱۲۹

۱۳۰ ، ۱۴۳

هوکو (نوع من الشعر) ۹۷

هوکوسامی (فنان) ۱۳۱ ، ۱۴۳ ، ۱۵۴

۱۵۶ ، ۱۵۹ ، ۱۶۴

هوکرکی (کتاب) ۴۷

هومر ۱۱۶

هون تسی (مفکر) ۸۵

هیاکونن اشو (دیوان شعر) ۹۵

هیتومارو (شاعر) ۹۲

هیداری جتجاو (فنان) ۱۲۰ ، ۱۲۱

هید یوری (امپراطور) ۲۷ ، ۲۸

هید یوشی (امپراطور) ۲۴ وما بعدها

۱۱۳ ، ۱۱۷ ، ۱۲۴ ، ۱۲۵

۱۳۳ ، ۱۳۸ ، ۱۴۸ ، ۱۵۶

۱۶۶ ، ۱۸۸

هید فیدادا ۳۲ ، ۳۳

هیراتا (مفکر) ۸۷

هیرادو (حاکم) ۱۴۰

هیرود ۲۰۵

هیروشیچی (فنان) ۱۵۴ ، ۱۵۹

هیزاکوریج (قصة) ۱۱۶

هیزن (إقليم لصنع الخزف) ۱۳۷ ، ۱۴۰

هیشیکارا مورونوبو (فنان) ۱۵۵

هینی (شاعر ألمانی) ۲۰۱

فهرست

صفحة

الترتيب التاريخي للمدينة اليابانية	٣
الباب الثامن والعشرون : بناء اليابان	٧
الفصل الأول : أبناء الآلهة	٨
الفصل الثاني : اليابان البدائية	١١
الفصل الثالث : العصر الإمبراطوري	٢٦
الفصل الرابع : اللطفة	٢١
الفصل الخامس : « وجه القردة » العظيم	٢٥
الفصل السادس : الشوجن العظيم	٢٩
الباب التاسع والعشرون : الأسس السياسية والخلقية	٣٥
الفصل الأول : طبقة الساموراي	٣٦
الفصل الثاني : القانون	٤٤
الفصل الثالث : العمال	٤٦
الفصل الرابع : الشعب	٥٤
الفصل الخامس : الأسرة	٦٢
الفصل السادس : القديسون	٦٩
الفصل السابع : المفكرون	٧٣
الباب الثلاثون : الفكر والفن في اليابان القديمة	٨٨
الفصل الأول : اللغة والتعليم	٨٨
الفصل الثاني : الأشعر	٩٢
الفصل الثالث : النثر	٩٩
القصص (٩٩) التاريخ (١٠٥) المقالة (١٠٨)	
الفصل الرابع : المسرحية	١١٢
الفصل الخامس : فن الدقائق الصغيرة	١١٧
الفصل السادس : فن المهارة	١٢٢

صفحة

الفصل السابع : المعادن والمعادن	١٢٩
الفصل الثامن : الخزف	١٣٦
الفصل التاسع : التصوير	١٤١
الفصل العاشر : الصور المنقورة	١٥٣
الفصل الحادى عشر : فن اليابان وحضارتها	١٦١
الباب الحادى عشر والثلاثون : اليابان الجديدة	١٦٥
الفصل الأول : الثورة السياسية	١٦٥
الفصل الثانى : الانقلاب الصناعى	١٧٤
الفصل الثالث : الانقلاب الثقافى	١٧٩
الفصل الرابع : الامبراطورية الجديدة	١٨٨
خاتمة تراثنا الشرقى	١٩٩
كلمة المؤلف	٢٠٦